الفكر التاريخي عند الإغريق



من هومر إلى عصر هيراكليس

تأليف: أرنولد توينبي

ترجمة: لمعي المطيعي

مراجعة: دكتور محمد صقر خفاجة

الألف كتاب ٥٦٧

الفكر التاريخي عند الإغريق

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٥٦٧

الفكر التاريخي عند الإغريق

تأليف
أرنولد توينبي

ترجمة
لمعي المطيعي

مراجعة
دكتور محمد صقر خفاجة

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

١٩٦٦

هذه ترجمة كتاب :

Greek Historical Thought

تأليف :

Arnold Toynbee

تعريف

ولد المؤرخ المعاصر « أرنولد توينبي » في لندن — ١٤ أبريل عام ١٨٨٩ . ودرس الأدبين اليوناني واللاتيني في جامعة أكسفورد . وفي عام ١٩١٩ عين أستاذاً للأدب البيزنطي بجامعة لندن . وبدأ يشرف على المعهد الملكي للشئون الدولية منذ عام ١٩٢٥ ، كما عين أستاذاً للتاريخ العام في جامعة لندن . وفي عام ١٩٢٢ بدأ يضع الخطوط الأولى لمؤلفه الضخم (دراسة التاريخ) وصدرت منه المجلدات الثلاثة الأولى عام ١٩٣٤ .

وإذا كان المؤرخ « أرنولد توينبي » قد شهر بين المهتمين بالدراسات التاريخية بفضل هذه المجلدات ، فإن الكتاب الذي نقدمه لقراء العربية لأول مرة ، يعتبر المدخل الحقيقي لدراسة التاريخ .

ويمكن تلخيص نظرة توينبي إلى الحضارة والتاريخ في عبارة صدّر الناشر بها هذا الكتاب وهي : عالم واحد — ماض وحاضر ومستقبل .

وكتابنا هذا ليس مجرد سرد تاريخي لتراث الإغريق ، وإنما هو يعبر عن تحليل لفلسفة التاريخ وفن كتابته عند المؤرخين الإغريق ، ويكشف في الوقت ذاته عن مدى إيمان « توينبي » بأثر الحضارة الإغريقية في الحضارة الحديثة .

المترجم

المحتويات

صفحة

الجزء الأول

الجزء الثـــانى

صفحة

صفحة

الجزء الثالث

الجزء الرابع

مقدمة

بدأ الفكر التاريخى القديم عند الإغريق أو الهيلينيين وقت أن تشكلت الأصول الأولى لشعر « هومر » فى عقولهم . وانتهى حينما سلم « هومر » بأولوية الإنجيل باعتباره الكتاب المقدس لدى المثقفين الناطقين باليونانية والكاتبين بها . وقد ظهرت النزعة الأخيرة فى تسلسل مؤلفى التاريخ المتعاقبين ، فيما بين التواريخ التى أخرج فيها كل من .ثيوفيلاكتوس سيموكاتا Theophylactus Simocatta و « چورج البيسيدى » George of Pisidia مؤلفاتهما المتعاقبة ؛ ولما كان كلاهما يكتب إبان حكم « هرقل » Heraclius ، فقد وضع اسم ذلك الإمبراطور على غلاف هذا الكتاب بقصد توضيح أبعاده[1] . وأيا كان الأمر ، فإن العملية التاريخية قلما تحدث طفرة ، وإن الانتقال من الحضارة الهلينية إلى الحضارة البيزنطية (والتى كانت هذه الثورة الأدبية إحدى ملامحها العديدة) قد استغرق فترة ثلاثة قرون كاملة من بدايتها إلى نهايتها ، ويتضح هذا بمجرد أن ندخل فى نطاق نظرتنا بعض الأوجه الأخرى للحياة . فإن « باولوس » Paulus مثلاً ، الذى كان فى خدمة البيت الإمبراطورى ، وواحداً من مدرسة « أجاثياس » Agathias المؤرخ المعاصر له فى فن قرض الشعر البسيط ، كان لا يزال ، فى القرن السادس بعد المسيح ، قادراً على أن ينظم دون مشقة بلغة « ميمنرموس » Mimnermus وأوزانه ،

---

(١) حكم هرقل من عام ٦١٠ — ٦٤٠ م وهو البطل فى قصيدة جورج التاريخية ، بينما كان البطريرك سرجيوس Sergius ساعده الأيمن نصير ثيوفيلاكتوس . وأى قارىء ملم باليونانية ما عليه إلا أن يلقى نظرة على الابتهالات فى قصيدة جورج (نشرها عام ١٨٣٦ « بيتشر » J. Beacher فى بون — Corpus Siript arum Historiae Byzantinae) ليدرك لماذا استبعدها المؤلف من هذا الكتاب باعتبارها غريبة على التراث الهلينى . ومن جهة أخرى ، أوردت مقدمة ماركوس الشماس Meracus the Peacon لحياة « بورفيريوس الغزى » Porphyrius of Gaza باعتبارها من أول الأمثلة الهامة للفكر الجديد الذى كان يغزو (الهلينية) فعلا .

وإن كان موضوع أطول قصائده وأكثرها شهرة هو (كنيسة آيا صوفيا) Hagia Sofia ، تلك التحفة المعمارية التي تتباين كل التباين، أو تكاد، مع مظهر أي أثر هليني في (كولوفون) Colophon أو (إفسوس) Ephesus أو (أثينا) Athena . وفى نفس الوقت يظهر هذا التباين فى مجال الدين . فالاعتقاد الذى قوامه الكبرياء والقدر المحتوم والنقمة عند الأرباب ؛ هذا الاعتقاد البدائى العميق ، إنما يعبر عن خصائص الهلينية فى نظرتها إلى الحياة . ويبدو هذا الاعتقاد جلياً فى أقدم أشعار هوميروس ، ونحن نورده مصحوباً بالاعتقاد التهكمى القديم فى آخر جملة من المقطوعة الأخيرة مترجمة فى كتابنا هذا . وتتضح روح هذا الدين الهلينى القح ، فى كل جوانب الأدب الذى تشيع فيه ، إلا أن مخص المقطوعة التى تحمل عنوان (اللاأدرية) والتى ترجمت عن « أجاثياس » السلف المباشر لـ « بروكوبيوس » Procopius ، إنما يفصح عن حقيقة مؤداها أنه فى منتصف القرن السادس بعد المسيح انقرضت الديانة الهلينية — حتى فى قلوب الرجال الذين تلقفوا التراث الأدبى الهلينى والذين ما فتئوا يسبحون بأرباب الهلينيين : وفى حذلقة تذكرنا بأسلوب هيرودوت ، يمتنع « بروكوبيوس » عن مناقشة (أسرار) الجدل المسيحى المعاصر على أساس أن الموضوعات محل النزاع القائم ، إنما هى بطبيعتها مما لايدركه العقل الإنسانى ،ويعرض ، دون أن يعمد إلى ذلك ، مايعتقد أنه الحقائق البديهية المجردة التى تتصل بذات الله . إلا أن أى شخص يمكنه أن يقف من خلال هذه الصفحات ، بالأحرى ، من مؤلف « ف . م . كورنفورد» Cornford — على النظرة الهلينية الحقيقية إلى الدين ،سوف يدرك على الفور أن بديهيات « بروكوبيوس » لابد وأن تكون قد بدت «لهيرودوت »Herodotus أو« ثوكوديديس » Thucydides أو «بولوبيوس» على أنها من أسباب الخير والشر الرئيسية . مسكين بروكوبيوس ! ألا ما أعمق غمته لو أنه استطاع أن يتحقق من أن عجرفته العقلية ، ما كانت لتجديه فتيلا ، بأية صورة من الصور، إزاء تقدير نماذجه الأدبية الكلاسيكية ، بل من شأنها أن تضعه

بلا وازع من ضمير فى مصاف «هيباتيوس» Hypatius و«ديمتريوس» Demetrius المبجلين ، بل كذلك مع صاحب الجلالة المقدس الملك جستنيان Gustinian ذاته ، بصفته طرازاً مؤقتاً يصور عصره لين العريكة .

لقد كانت نقمة الأرباب أمراً خطيراً بالنسبة للهيلينيين ، إذ أنهم آثروا أن يدخروا كنوزهم حيث تأكلها العثة * ويفسدها الصـدأ ، ويتسلل اللصوص فيسرقونها . لقد كانت مملكتهم ، يقيناً ؛ مملكة من هذه الدنيا . وقد نصح « بركليس » Pericles مواطنيه أن يدعوا عظمة أثينا تستقر فى أفهامهم ، لا أن يمروا عليها بشكل عابر ؛ (فالخلاص) الذى كان موضوع النقاش فى (ميلوس) Melos كان يعنى أن ينجو البدن وحده من القتل أو العبودية ولم يكن يعنى أن تفلت النفس من قيود الإثم أو الضياع[1] ؛ (فالمخلص) بالمعنى الصحيح فى عرف اليونانى ، هو « بطليموس » Ptolemy بن « لاجوس » Lagus ، الذى انتزع لنفسه بنجاح هذا اللقب من « زيوس » Zeus إلى أن نزل عنه لصعلوك من سلالة رعاياه الشرقيين . أما الخطيئة التى أبى « بولوبيوس » إلا أن يسدل الستار عليها ، فقد كانت حماقة سياسية تمكن بها « ديايوس » Diaeus ورفاقه من تدمير الوحدة الآخية Achaean . وبعبارة أخرى ، كان العالم الهليني (وهنا تكمن أهميته الفائقة بالنسبة إلينا) أقرب ما يكون إلى العالم الذى نعيش فيه الآن ، وذلك فى مقابل السماح المسيحى الذى يتوسط بيننا من الناحية الزمنية ، أو فى مقابل تلك الديانة التى لم توجد بعد ، والتى من شأنها ، دون شك ، أن تدخر كنزاً جديداً فى سماء جديدة حينما تأخذ دنيانا فى الزوال ، لتستقر فى النهاية هى الأخرى كسابقاتها فى (خضم لا قرار له حيث لا تناسب بين جميع الأشياء .)

ولا يتسع المقام فى حدود هذه المقدمة إلى أن نعرض أى حاشية للتراجم ، مهما

---

(١) انظر الحضارة والسجية ص ٢١٥ — ٢٢٧

كانت مختصرة ، تتناول مؤلفى التاريخ ممن ورد ذكر أعمالهم فى متن الكتاب[١]، وإن كانت ملاحظة عامة أو ملاحظتان قد تساعدان على إيضاح الأمر . وبادئ ذى بدء ، لم يكن المؤرخون الهلينيون (خاصة أعظم هؤلاء المؤرخين) من أصل هلينى خالص . فقد جاء «هيرودوت» من مجتمع (هاليكارناسى) الذى يتحدث باللغتين الهلينية والكارية Carian ، و «ثوكوديدس» رغم أنه أثينى المولد وظل مواطناً أثينياً (حتى وقت نفيه) ، فقد جرت فى عروقه[٢] دماء تراقية Thracian؛ وكان «يوسف» Josephus يهودياً و «بروكوبيوس» فلسطينياً . وقد جرت العادة منذ عصر الإسكندر وما تلاه على عدم الإشارة إلى أن المؤرخين الهلينيين قد وفدوا من سائر الشعوب التى ذاعت بينها بشارة الهلينية تدريجياً . وبهذه الصورة ، فإن المدرسة التاريخية الهلينية لم تقصر نفسها على اللغة اليونانية ، وكان يمكن توضيح ذلك فى هذا الكتاب لو اتسع المجال ، بتضمينه ترجمات من اللغة اللاتينية[٣] ولقد مكنت رقعة روما السياسية المتسعة المؤرخين الرومانيين بشكل لا مثيل له ، من أن يجمعوا شئون العالم ويربطوا مصيرها بمصير دولتهم ،

(١) بالنسبة إلى هذا أحيل القارئ إلى مؤلف «بيورى» Bury (المؤرخون الإغريق القدامى The Ancient Greek Historians وإلى الحواشى الرائعة الموجزة الشاملة الخاصة بالأسانيد فى نسخة جيبون Gibbon .

(٢) حسب ما يعرفنا هو نفسه فقد حصل على امتيازات ملكية فى مناطق التعدين التراقية فى (بانجيم) Pangaeum ، ومن المحتمل أن يكون قد عكف هناك على كتابة تاريخه بعد الكارثة الحربية التى أدت إلى نفيه من أثينا .

(٣) إن المؤرخين الرومانيين الأول (مثل سلفهم الأول كسانثوس الليدى Xanthus The Lydean فى القرن الخامس ق . م) قد وجدوا من الطبيعى جداً أن يمارسوا ما كان يعرف بالفن الأدبى الهلينى باللغة اليونانية — رغم أن بذور الهلينية قد سقطت فى بعض الأحيان على أرض صخرية ؛ لكنهم أظهروا أصالة أعظم من الأناضوليين والسوريين المصطبغين بالصبغة الهلينية ، كما أنهم نشروا ترجمة للأدب الهلينى فى لغتهم الوطنية . وفى نفس الوقت فإن حق الأدب علينا أكثر أهمية من الأصالة اللغوية ، ويعتبر التراث الرومانى منقولا عن الهلينية كما كانت الإمبراطورية الرومانية بمثابة الطور الأخير فى المجال السياسى للمجتمع الهلينى . وعلى العكس ، فهناك أعمال تاريخية فى اللغة اليونانية القديمة (كتبها الأدباء اليسوعيون الأول أو البيزنطيون الأواسط) وهى نتاج حضارات ليست هلينية .

ولهذا ، فإنهم قد نزعوا ، كما بين « ديونوسيوس » Dionysius الهاليكارناسي ، إلى خلق نوع جديد من الأدب التاريخي الهليني يمثل في التاريخ المحلي . ومن هذه الزاوية ، قدم لنا المؤرخون الرومانيون على نحو ما فعل زملاؤهم الأدباء الذين عالجوا الكوميديا الأخلاقية الأثينية ، قدموا لنا المادة الوحيدة تقريباً لإعادة بناء فرع فقدناه من الأدب الهليني ، وذلك حتى أعاد لنا الاكتشاف الحديث لكتاب « أرسطو » (دستور أثينا) ، التاريخ المحلي لأهم عواصم (هيلاس) Hellas نفسها في صورة موجزة .

وهكذا ظل تأثير الهلينية في مجال التاريخ وفي غيره من المجالات ، يشع في نطاق أوسع من اللغة اليونانية ومن الجنس اليوناني ؛ وهذه إحدى البينات الكبرى على عظمتها . وفي نفس الوقت ، فإنه من الصحيح أيضاً أن بعض صور إبداع الفكر التاريخي الهليني العميقة الرائعة ، إنما كانت بتأثير الاتصال بمجتمعات غير هلينية وقد تفتحت بصيرة « هيرودوت » بفضل دراسته للحضارة الإيرانية السورية التي انطوت عليها دولة الآخيمينين العالمية ، والتي حاولت في عصره أن تشمل العالم الهليني ، ولكنها أخفقت في ذلك . وكذلك تنبه « بولوبيوس » بفضل إلهام إيطاليا الرومانية (التي جعلت رقعتها تتسع إلى الغرب) في وقت أحرزت فيه روما ، عسكرياً ، ما أخفقت في إحرازه فارس ، وكان الظافر في كل قطاع آخر من الحياة يقع أسير الهلينية[1] . وكان « بولوبيوس » الذي أتى من (ميجالوبوليس) Megalopolis في أعماق (أركاديا) Arcadia ، هو الوحيد من بين العبقريات التاريخية الثلاث للهلينية ، الذي كان هلينياً قحاً ، مقارنة بالمعنى الحيواني للكلمة والذي لا أهمية له ؛ إلا أن الحضارة في أي وقت معين من وجودها ، لا تكون بأية حال نتاج تحول فيزيائي أو نتاج بيئة محلية ، إنها خليط من القديسين (ومن

---

(١) خضع الرومان ، في كل شيء ما عدا الفتح العسكري ، للهلينية بشكل كامل أكثر من أي شعب شرقي طوروس Taurus ، ونقلوا طواعية عن الهلينيين حتى في التكنيك الحربي ، كما يتضح مما اقتبسنا ؛ من بولوبيوس بعنوان (بذور على أرض طيبة) والذي ترجمناه في كتاب (الحضارة والسجية) ص ٩٢ — ٩٣ .

الأشرار كذلك) يحوطهم ذلك الحشد العظيم من الشهود يزدادون باطراد، والذى ضم غالبية الجنس البشرى ؛ وعلى هذا فإن العضوية فى الحضارة أمر روحى أكثر منه مجرد انتماء مادى . والذى يمكن تصوره ، لأول وهلة هو أن « لاؤنيكوس خالكوكونديلس » Laonicus Chalcocondyles المؤرخ الأثينى ، الذى سجل فى القرن الخامس عشر نشوء الإمبراطورية العثمانية ، بلغة يونانية كلاسيكية رائعة وبأسلوب ترسم فيه بعناية أسلوب « هيرودوت » و « ثوكوديدس » ، أمكنه أن يعود بنسبه إلى « اريخثيوس » Erechtheus أو « ديوكاليون » Deucalion من ناحية الأبوين بشكل قد يبدو أكثر صواباً مما فعله « ثوكوديدس » نفسه ، وهو ما كان يمكن أن يظهر، لو أن خبيراً من خبراء الأنثربولوجيا فحص حالته ، إذن لكشف عن سمة (هلينية كبيرة) ، توضح منبته وملامحه . ورغم هذا كله ، فإن « ثوكوديدس » سيبقى فى القمة كأعظم المؤرخين الهلينيين دون منازع ، بينما سيبقى « خالكوكونديلس » درة الحضارة البيزنطية — لا الحضارة الهلينية[1] . ولعله يكون لغواً من جانب (خالكوكونديلس » ومعاصريه البيزنطيين فى عصر الإحياء ، أن يتمردوا على أبوة « ديوكاليون »، بينما لألفى سنة خلت ، كانت ربة الإلهام قد أقامت لديوكاليون أطفالاً من بين أحجار (تراقيا) Thrace و (كاريا) Caria . وثمة سمة ثانية للفكر التاريخى الهلينى ، ألا وهى أنه لم يكن بحال من خلق مؤرخين محترفين . فالشعر الذى نظم فى مختلف العصور ، شأنه فى ذلك شأن فلسفة أفلاطون والأدب الطبى للمدرسة الأبوقراطية Hippocrates يدخل ضمن مادة هذا الكتاب ، لأنها تعبر بصورة أكثر وضوحاً من أى عمل تاريخى بالمعنى الفنى للعبارة عن أفكار تاريخية هلينية رئيسية.

---

(١) يمكن أن نضيف ، أننا إذا ما استعدنا أى عمل تاريخى من نتاج الحضارة المنيوية Minoan ونجحنا فى تفسيره ، فقد نجد أن هذه الأعمال (إذا ما جاءت من المستعمرات البرية فى كريت) قد كتبت فى شكل ما باليونانية . وأيا كان الأمر ، فإن ذلك لن يجعل منها أعمالا هلينية . وفى الحقيقة، سوف لا يكون باعثاً على الدهشة ، إذا ما أظهرت هذه الأعمال قرباً للروح البيزنطية أكثر من الروح الهلينية .

وعلى العكس من ذلك ، فقد أسهم المؤرخون فى الأدب الروائى وعلم الوراثة والأنثربولوجيا والعلوم الطبيعية التى استبعدت من هذا الكتاب باعتبارها بعيدة عن موضوعه . وهناك أمر أكثر أهمية ، قصد إليه قصداً ، وهو أن الكتاب جاء غفلا من الفقرات التى تتناول تاريخ الحرب . وقد يكون أكثر من أربعة أخماس (من باب الحدس !) الكتابات التاريخية الهلينية التى وصلت إلينا ، مليئة بوقائع تفصيلية عن العمليات الحربية — وإنها لحقيقة غريبة ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما كان عليه الجمهور الذى كتبت له معظم مؤلفات التاريخ الهليني من عقل وبصيرة . إن حيز هذا المجلد ونصوص الأسانيد التى توافرت له ، جعل من الضرورى أن ننبذ أية محاولة تصور (من ناحية الكم) قدراً كبيراً من التاريخ الهليني خلاف ما يلقى ضوءاً على جوانب أخرى من الفكر التاريخى الهليني. فتاريخ فن الحرب فى ذاته ، إنما يمكن تناوله بشكل سديد فى مجلد مستقل فى سلسلة المؤلفات التاريخية .

ولعل السمات التى ذكرناها لا تمت بشكل واضح إلى الكتابة التاريخية الهلينية . وثمة خواص أكثر ارتباطاً ، فإذا ما نحن ضيقنا نظرتنا إلى المؤرخين أنفسهم، وجدنا أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الرجال العلمانيين . فثوكوديديس وكسينوفون Xenophon وبولوبيوس ويوسف (وهم أربعة من أعظم الأعلام الخمسة)، كانوا رجال أعمال لامعين تحطم مستقبلهم ، فحولوا طاقاتهم إلى مجرى الأدب ، حينما حرمتهم نقمة الأرباب فرصة شغل مناصب الدولة ، وإدارة الأعمال العامة عن طريق الجمعيات السياسية ، أو تولى قيادة الأساطيل والجيوش فى الميدان . أما العلم العظيم الخامس ، وهو هيرودوت ، فحياته الخاصة تكاد تكون غير معروفة لنا . إن عقله ذا الاتجاه الفولتيرى يوحى بأنه دقيق الملاحظة ، ناقد بفطرته أكثر منه رجل يشارك بطبعه فى الأعمال ؛ ومع ذلك فإن عمله الذهنى كان دائماً نشاطاً إنسانياً حياً ، لأنه درس التاريخ المعاصر له كما درس علم الاجتماع ، من الطبيعة ، فى سلسلة من رحلات طويلة محفوفة بالمخاطر . وبعبارة أخرى ، كان يرقب بعينى «أوديسيوس» لا بعدسيات « رانك » وهذه سمة تتميز بها المدرسة التاريخية الهلينية . وقد أخذ

« بولوبيوس » أيضاً ، يتوغل إلى الشمال الغربى فى قلب العالم الهلينى . وقتذاك كما توغل هيرودوت إلى الجنوب الغربى . أما « ديودورس» Diodorus الذى ينم عمله أحياناً عن الأداء المكتبى ، فلم يكن قانعاً (كما يحدثنا هو نفسه) بأن يقبع بين جدران المكتبات فى (أجريوم) Agyrium أو حتى مكتبات روما . وفيما يتعلق بالمؤرخين الذين كان لهم حظ معاصرة عهود النمو أو فترات الاضطراب(١) ، فإن أمر اتصالهم عن كثب بحياة مجتمعهم الإيجابية لا يدعو فى واقع الأمر إلى الدهشة ، إلا إذا قورن ذلك بمظاهر الحضارات الأخرى . وأيما كان الأمر فجدير بالاعتبار، أن هذه السمة لم تختف فى أثناء الطور الثالث والأخير ، الذى كان فيه العالم الهلينى يرفل فى أغلال السلام الرومانى Pax Romana بشكل سلبى ما . ففى ذلك العصر ، كان من المتوقع على الأقل أن يسود أسلوب المؤرخ الأكاديمى ، إلا أنه لا يوجد من عصر الإمبراطورية الرومانية غير « ديونوسيوس و « يونابيوس » Eunapius ؛ وهما المثالان الوحيدان غير المشكوك فيهما ، من الطراز الذى وجد طريقه إلى المجلد الحالى . وقد كان « أريان » Arrian و « ديو » Dio من العسكريين وأرباب السياسة وذوى التجارب فى الحياة العامة والمسئوليات العملية مثلما كان « كسينوفون» أو « بولوبيوس » . وأغلب الظن أن « هيروديان » Herodian كان فى سلك الخدمة المدنية . وكان « آبيان » Appian إما موظفاً مدنياً وإما عضواً بمجلس الأعيان المحلى بالإسكندرية ، والذى كان لا يزال يباشر فى عهده الإدارة المحلية . وكان « ماركوس الشماس » Marcus Diaconus من ذوى النظرة العملية (وفى بعض الأحيان كان يبدو شديد التأثير للغاية). أما « بريسكوس(٢)» Priscus فقد كان محامياً ، وبالمثل كان « بروكوبيوس » و« أجاثياس » و« مينا ندر » الأعلام الثلاثة المرموقون الذين أنجبهم القرن السادس بعد المسيح . وكانت المحاماة آخر مهنة

(١) يمكن تحديد هاتين الفترتين الأوليين من التاريخ الهلينى تحديداً تقريبياً هكذا : من ١١٢٥ إلى ٤٣١ ق . م ومن ٤٣١ إلى ٣١ ق م . على التوالى .

(٢) ومنه اقتبسنا فقرة فى كتابنا (الحضارة والخلق) ص ١٣٠ — ١٣٦ .

حرة وقفت فى وجه تفكك المجتمع الهلينى . ومع أن « أجاثياس » كان يشكو من أن هذا العمل لم يترك له فراغاً كثيراً لدراساته التاريخية ، فإننا لا نأسف عليه كثيراً ونحن نتأمل كيف أفاد خليفته « سيموكاتا » من وقت فراغه المبدد .

بعد هذا العرض الموجز للمؤرخين الهلينيين، والعالم الذى عاشوا فيه ، يجدر بنا أن نختم الحديث بكلمة عن مناهج الترجمة. فى رأى المترجم الحالى(*)، أن الخطأ الجسيم الذى لا يمكن علاجه ، ويجدر بالعقل الغربى الحديث بأن يتجنبه ، هو أن يسمح لنفسه ، عند تناول أى فرع من فروع الأدب الهلينى ، بأن تسيطر عليه فكرة بأن هذا كله إنما قد تم حدوثه وتدوينه والإحساس به إبان ألفين أو ثلاثة آلاف سنة خلت ، وكأنما قد دخل فى ذمة القدم التاريخى ، ومن ثم يكون ، والأمر هكذا ، ساذجاً ضحل التجربة. والحقيقة التى تقوم بيننا وبين أسلافنا الغربيين لثلاثة أو ستة أو إثنى عشر قرنا خلت فى صورة واعية ، إنما تكاد لا تحتمل قياساً بعلاقاتنا مع عناصر الحضارات الأخرى ، حتى ولو كان تاريخ حياة تلك الحضارات سابقاً على حضارتنا من الناحية الزمنية . وعلى الرغم من مثل هذه الأسبقية الزمنية ، قد ينطوى الماضى البعيد فى الحضارات الأجنبية على ملامح قد تكون من الناحية الذاتية أقرب إلى حياة عصرنا من تلك التى يشتمل عليها الماضى القريب الذى انبثقت منه حياتنا . وبعبارة أخرى فإن الأسبقية الزمنية والتبعية الزمنية لها دلالة ذاتية ضئيلة أو ليست لها دلالة فى غير محيط حضارة واحدة معينة ، بينما ، عند مضاهاة حضارات متباينة ، فإن العلاقة الزمنية المباشرة بينها عامل لا علاقة له بالموضوع فى معظم الأحيان ، ومن ثم فعادة ما يكون عاملا مضللاً . أما فى المعنى الفلسفى ، فإن الحضارات كانت ومازالت وسوف تظل متعاصرة الواحدة مع الأخرى . فهى جميعاً بنت الأسرة ذاتها ، وفى الجيل ذاته ، والفروق فى الأعمار بينها فروق تتناهى فى الصغر إذا ما قورنت بالعهد الطويل الذى عاشت خلاله الأسرة الإنسانية التى وجدت قبل مولد أية حضارة . وعلى هذا ،

* هنا يشير « أرنولد توينبي » إلى نفسه (المترجم العربى) .

فى محاولة الوصول إلى معادلة بين حضارتين مستقلتين (وهذا ما يعنيه فى النهاية النقل من اليونانية الغابرة إلى الإنجليزية الحديثة) قد يكون من المران المفيد للخيال أن نحدد بطريقة تقريبية ومتعارف عليها إلى حدما ، نقطة بداية كل منها ، ونقيس الفترة الزمنية فيما بينها ، ثم نطرح مقدار هذه الفترة حتى يتسنى معرفة القرن فى الحضارة المبكرة زمنياً ، والقرن المعين الذى يقابله فى الحضارة المتأخرة حسب وجهة النظرهذه . فمثلاً ، إذا أخذنا عام ١١٢٥ ق . م على أنه العام المتعارف عليه للهلينية ، والذى أخذت فيه الحضارة الهلينية تنبثق من بين حطام العالم المينوى وأخذنا عام ٦٧٥م باعتباره العام المتفق عليه لنوع مماثل بالنسبة للغرب ، والذى أخذت فيه الحضارة الغربية تنبثق من بين بقايا الهلينية (فى امتدادها الرومانى) فسوف تقدر الفترة الزمنية بين التاريخ الهلينى والتاريخ الغربى بحوالى ١٨٠٠ عام ، وهى فترة يلزم دائماً طرحها جانباً ، حتى يتيسر الوقوف على المقابلة فى أية مرحلة بعينها ، على نحو ما يتم القياس من نقطة البدء لكل واحدة منها . ولعل من نافلة القول أن نقرر أن هذا المنهج لا يقصد به أن يكون مبدأ تاريخياً جامداً ، وإنما هو مجرد فرض للوصول إلى أسلوب دراسة مقارنة . وبالاستعانة بأداة القياس الافتراضية هذه ، يمكن لنا التحقق من أية أجيال هلينية وأية أجيال غربية ، كأن الواحد منها يقابل الآخر ، بمعنى أنهما كانا منفصلين من نقطة بدء كل منهما بفترة زمنية متساوية ، ومن ثم يكون كل منهما قد طوى بين جنبيه قدراً متساوياً من التجربة التقليدية أو التراث الاجتماعى فى شتى ميادين الاقتصاد والسياسة والأدب والفن والدين وما إليها (رغم أنه ليس من الضرورى أن يكون القدر متساوياً فى الكيف) وبهذه العصا السحرية فى أيدينا ، يمكن لنا أن نلهى أنفسنا بنقل « بلوتارخ » نفسه (مثلاً) ، لا مجرد كتاباته وحدها ، من العالم الهلينى إلى عالمنا ، فإذا ما فعلنا ذلك ، بدا وكأن « بلوتارخ » قد ولد فى عام ١٨٤٦ وقدر له أن يموت فى عام ١٩٢٥ وذلك على اعتبار أنه آخر وأعظم من بقى من العصر الفيكتورى ! وإذا كان ثمة دلالة لهذا كله ، فإننا لا نأمل أن نقدر « بلوتارخ » طيلة مثابرتنا على قراءته فى ترجمة (لانجهورن) Langhorne أو أن نعيد ترجمته على نحو يطيب

لنا ، مادمنا نمزج ترجمتنا الحديثة بالمحسنات الإليزابثية ، حتى نكون قد بلغنا إلى تركيب صنف من الترجمة يغاير فى مقوماته كل قطعة من الأدب الحى فى عهدنا أو فى غيره من العهود. ونحن لايتسنى لنا ، من باب أولى ، أن ندافع عن مثل هذا التقادم الزائف فى حالة مؤلفين ، إذا تصورنا أن ننقلهم بأشخاصهم إلى عالمنا نحن ، فإما أن يكونوا لم يولدوا بعد وقت ذاك ، وإما أنهم مازالوا فى المراحل الأولى من طفولتهم . فمثلاً ، قد يكون « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurelius لايزال فى الرابعة من العمر ويتطلع إلى البقاء حتى عام ١٩٨٠ . سلم الله أطفالنا الذين ولدوا فى العالم الغربى هذا عام ١٩٢١ من نقمة الآلهة حتى لاينظروا إلى الحياة تلك النظرة القاتمة التى نظر بها « من يقابلهم » من الهلينيين العظام ! .

ترى ما معنى هذه الموازنة المقترحة بالنسبة لترجمة الأدب ؟ قد يبدو لأول وهلة ، وكأنما ينبغى لنا أن نترجم « ماركوس » و « بلوتارخ » إلى الأدب الإنجليزى (أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى أو أى أدب غربى خالص) الذى يكتب فى جيلنا ، ثم من سبقوهم طوراً بعد طور ، بالأسلوب الذى يقابله من ماضينا الأدبى ـ محافظين على الحقيقة ذاتها التى تمتد إلى ثمانية عشر قرناً تقريباً خلال هذه العملية . وأيا ما كان الأمر ، فما إن نحاول وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، حتى تتضح العقبات . ففى المحل الأول ، نجد أن (موجات) التاريخ الغربى والهلينى غير متطابقة . ففى التاريخ الهلينى نجد أن الأدب قد وصل القمة (ولم يصل إلى مثلها بعد ذلك أبدا) خلال القرنين فيما بين أعوام ٥٢٥ و ٣٢٥ ق . م ، والتى تعاصر (حسب مشروع قياسنا الافتراضى) القرنين فيما بين ١٢٧٥ و ١٤٧٥ فى الغرب . وأيا ما كان الأمر ، فإن تلك الفترة ، فى حالة كحالتنا ، وإن بلغت قمة أقل فى حيـــاة إيطاليا الشمالية الوسطى ، فإنها كانت بعيدة عن الذروة من تاريخ حياة سائر المجتمع .

وقد نهض الغرب برمته ، إلى درجات أعلى من التعبير الذاتى (أو على نحو ما عبر بركليس — أقام صروحاً لا تفنى تشهد على وجوده خيراً كان ذاك أو شراً)

فيما بين حوالى ١٧٧٥ م إلى الحرب الأوروبية [١] بينما فى الجانب المقابل ، نجد أن الفترة المماثلة من التاريخ الهليني وهى (٢٥ ق . م — ١١٤ م) تقع برمتها فى ظل الطور الأخير من الحياة الهلينية ، التى كان يحاول فيها العالم الذى يرزح تحت عبء أربعة قرون من الاضطرابات[٢] ، يحاول أن يلم شعثه للمرة الأخيرة قبل الانحلال الذى لا مناص منه . ونحن الذين كنا لم نزل فى ريعان شبابنا عام ١٩٢٤ لا نزعم أننا نعرف بعد ، ما إذا كان الغرب قد بدأ (فقط مجرد البدء) فى الانحدار إلى الدرك الأسفل ad tartara leti ، فى حين أن « بلوتارخ » فى شيخوخته قد تأكد حتماً ، فى قرارة نفسه (وإن لم يكن قد سلم به عقلاً) ،أن (هيلاس) Hellas قد حققت شوطاً بعيداً نحو الانحدار . ومن ثم فإننا ومن ورائنا عدد أكبر من مراحل التقدم ، وعدد آخر أقل من أطوار التأخر ، وهـذا أكثر مما توافر لوعى « بلوتارخ » ، يتحتم علينا أن ننظر إلى الوراء ، إلى أسلافنا بأعين مغايرة . فالعالم الهليني الوسيط ، فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لم يكن فى واقع الأمر على درجة من النضج والغلبة تفوق ما كان عليه العالم الغربى الوسيط فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من عصرنا فحسب ، بل إنه لم يكن هناك مفر من أن يبالغ فى أشكاله النسبية عند جيل بلوتارخ قياساً إلى ما كان عليه أهله من تراخ ووجل . وإذا ما نظرنا بعقليتنا الحديثة ، ألفينا نقيض ذلك . فالقرنان الرابع عشر والخامس عشر (حتى إن نظرنا إليهما على أساس ما تجسم فى ممثليهما الإيطاليين) يحملان طابع ما نزدريه نحن الآن ، على اعتبار أنه طابع (فج) بدائى على أحسن الفروض . وفيه عناصر ، بل عناصر كريهة ، من كل ما نحس به و نأسف لعدم وجوده لدينا ، بل لا نستطيع أن نأخذها برمتها مأخذ الجد أو أن نعامل أطفالهم ، وهم أسلافنا ، على أنهم رجال لهم مثل ما لنا من مستوى عقلى . ولا يمكننا حتى اصطناع مثل هذا بغير أن نعى ما لدينا من عدم سلامة الطوية . ويقابل هذا موقف « بلوتارخ »[٣] و « ديونوسوس »

---

(١) الحرب العالمية الأولى

(٢) ١٣١ — ٣١ . ق . م .

(٣) هذا ، على أية حال . سواء كان بلوتارخ أو لم يكن ، هو مؤلف (الخبث فى مؤلفات هيروودوت)

إزاء «هيرودوت» و «ثوكوديدس» على التوالى . فهما ، من ناحية ، قد نظرا إلى أسلافهما الوسيطيين بشىء من التبجيل ، على اعتبار أنهم شراح لمثل ضائعة لم يعد من سبيل إلى بلوغها ، وثانياً ، فإن ما اتسم به كل مارد من هؤلاء العمالقة فى مشهده الأوليمبى من سحائب المجد ، قد أعمى بصيرتهما وأغلق الأفق أمامهما . «وعندما نزل موسى من الجبل ، لم يكن يعرف أن بشرة وجهه تشرق وهو يتحدث إليهم . ولما رأى هارون وكل بنى إسرائيل أن بشرة وجه موسى تشع ، خشوا أن يقتربوا منه» ترى هــــل خاف قوم موسى وأشاحوا عن النور الذى كان يدافع عنهم ؟ . إن «ديونوسيوس» و «بلوتارخ» كانا فى الموقف ذاته ، غير قادرين كل القدرة على أن يخفيا الكراهية والقنوط إزاء (الشعلة المتألقة) فى هيرودوت أو ثوكوديدس ، أما وقد كرسا جهودهما ، شأنهما فى ذلك شأن معاصريهما ، بغية رعاية شيخوخة هيلاس ، وإزالة التجاعيد من فوق جبينها ، وتهدئة روعها وإبعاد الهذيان عنها وتوجيه أفكارها (عندما كانت الأفكار الحيوية لا تزال تداعب عقلها) بعيداً عن المستقبل المخيف ، نحو ماض ذهبى أو شبه ذهبى ، فإنهما لم يعودا يقويان على مواجهة الأقوياء المسلحين الذين أحبوا هيلاس ومرحوا معها ورأوها كما هى وعرفوا خيرها وشرها ، وهى إنسانية فى كل الحالين ، فى السنوات التى لا سبيل إلى إعادتها حينما كانت هيلاس وأبناؤها فى ريعان الشباب . كلا . . . إن الهلينيين أبناء الإمبراطورية لم يستطيعوا مواجهة أبناء السنوات الخمسين[1] من قومهم ، بما لهم من تطلع ذهنى لا يخشى منه وموهبة غريزية لا تتطلب جهداً فى تفرس الحقيقة على الوجوه ، ووعيهم بالقوة الخارقة التى منحتهم قلباً يسخر ويمزح فى الوقت المناسب ، وهذا ما يثير الشجن على كل ما صار إلى القدم . إن الإرتباك يعلو الوجوه عندما تجسر على النظر إلى أنماطها الثابتة على الوجه .

وهذا يعنى أن نقل كل طور من أطوار الفكر الهلينى وأسلوبه إلى

(١) فيما بين الحرب الفارسية الكبرى ونشوب الحرب البلوبونيزية (٤٨٠ — ٤٣١ ق . م)

ما يماثله من طور غربى متكافىء إنما يشكل استحالة تاريخية،حتى بالنسبة للدارس الذى حبته الطبيعة درجة أعلى من الذوق اللغوى دونه ذوق المترجم الحالى . كذلك فإن هـذا لايعنى ، حتى إذا ما استطعنا أن نبلغ المستحيل ، أن نفيد من النتيجة تلقائياً ، لأنه بقدر ما نكون قد نجحنا فى نقل ماضى الأدب الهلينى إلى ماضى أدبنا ، بقدر ما نبتعد به بشكل مبتذل عن نطاق رؤيتنا الحديثة . إن تراثنا الأدبى الغربى ، فى حقيقة الأمر ، هو مجال الأدب الوحيد الذى لا سبيل إلى ترجمته بالأسلوب الغربى هذه الأيام . ففى الوقت الذى نحاول فيه أن نستحدث عملاً أدبياً فنياً إنجليزياً من أعمال القرن السادس عشر أو السابع عشر ، فى نفس هذا الوقت يتلاشى سحر الإحساس والترابط وأكثر عناصر الجمال بفعل ساحر،(١) بينما ، فى الناحية الأخرى ، أى حينما نحاول أن نترك خيالنا الأصل غير المدنس ، فإننا غالباً ما ندرك افتقارنا إلى بعض عناصر الجوهر الأخرى . وإن أخص خصائص العصر (الإليزابيثى) ـ كالألوان على الزجاج الرومانى ـ لتنشر علينا غيمة غموض بين عقولنا والعقول التى أوجدت الحق الأصيل والجمال ، والتى قد وجدت هى بدورها من أجلها أيضاً . لقد وجدت هذه فى حاضر حى وأوجدها أناس أحياء ولم تتطرق إليها وقت خلقها مسحة من قدم ؛ ومن هنا أصبح من المستحيل تماماً أن يتم تجاوب روحى بيننا وبينهم . ومن هنا أيضاً بدا واضحاً أنه من الخطأ كل الخطأ من وجهة النظر العملية ، أن ننقل ، حتى ولو كان ذلك متيسراً ، أثر حضارات أخرى فى صورة تستعصى على مداركنا ، بينما هى أيضاً خطأ محض من الناحية النظرية . وبعد ذلك كله ، هل يعتبر أى نتاج للأدب الهلينى فجاً أو بدائياً أو ساذجاً أو عتيقاً إذا ما نظر إليه كما هو دون ما تعديل أو تحريف ، وكما خرج إلى حيز الوجود منذ عـدة مئات من السنين ؟ إن الفكرة المبهمة بين القراء

---

(٢) هذا واضح بالطبع فى حالة ترجمتنا الغربية المحلية للإنجيل؛ التى هى بمثابة أسس الأدب الحديث بين الطوائف البروتستانتية. وبينما كنت أترجم ثلاث مقطوعات من العهد الجديد، كخاتمة لهذا الكتاب والكتاب المصاحب له عن الأصل اليونانى ، وقفت الترجمة الإنجليزية المعتمدة حائلا بينى وبين النصوص التى أمامى وكان أن انصرفت قانطاً من مهمتى .

الغربيين الحديثين ، عن « هيرودوت » من أنه (أبو التاريخ) الساذج ، كان من شأنها أن تملأ « ديونوسوس » أو « بلورتارخ » دهشة . إذ أن لقب الشرف التقليدى هذا ، من شأنه أن يكون فى حد ذاته تحذيراً كافياً فى وجه كل من يعتقد بهذا المفهوم ، وهو اللقب الذى اقترن عادة بهيرودوت فيما بيننا ، لأن الإبداع والخلق إنما هما من صنع عقول عارفة دقيقة لا من فعل عقول بسيطة ، وإن معرفة هيرودوت ودقته قد تجلتا عاريتين ، ولا بد أنهما أذهلتا كثيرين من قراء الغرب العصريين ، كما أذهلتا جمهور الهلينيين فى عصر الإمبراطورية . كذلك لم تكن السذاجة من خصائص نتاج « هوميروس » (١) . وشعر « هسيود » Hesiod فى الواقع ؛ هو الجزء الوحيد من سائر الأدب الهلينى المترجم فى هذا المجلد ، الذى يمكن أن يوصف بحق وبشكل عام ، بأنه بدائى ، والفقرة التى اختيرت من ملحمته (الأعمال والأيام) تبين أنه حتى هذا التعميم لايخلو من استثناء ، إذا كان ولا بد أن يكون هناك رصيد محترم من التجربة الاجتماعية ، فى عقل يمكن أن يحس بشكل مرهف مدى فظاعة الانحلال (٢) .

---

(١) إن روح هومر المضللة (والتى تجلت فى تناوله للأرباب بشكل لاذع) ليست الآن محمودة السيرة ، إلا أنها بالطبع ليست ظاهرة هلينية على إطلاقها . وإن الدراسات المقارنة لنوع أدب الملاحم ، فى سبيل اكتشاف ذلك مؤخراً ، أبعد من أن تكون (بدائية) ، إذ أن الملاحم فى كل العصور والأماكن هى النتاج المرموق لمجتمع مثقف ويتغلغل صداها تدريجياً فى العالم السفلى الحقيقى للفولكلور (انظر Chadwick's Heroic Age, Murray's Risc of the Greek Epic)

(٢) إن الأدب الهلينى الوسيط فى نقائه واتجاهه العقلى والتأملى يبدى تشابهاً أكثر وضوحاً للأدب الإسكندرانى فى الوثنى فى الغرب الوسيط أكثر من الأدب المسيحى الغربى المعاصر له . فهل ثمة سبب لهذا ؟ يرى البروفسور و. ب كير W. P. Ker فى كتابه (Epic and Romance) أن الإسكندرانيين أفادوا من عدم انسحابهم وبلبلتهم من جانب تراث الماضى السريانى والهلينى ، الذى سيطر على مسيحية القرون الوسطى . وأوضح كيف أن الإسكندرانيين العباقرة أصبحوا مشلولين منذ أن أصابتهم عدوى الرومانية المسيحية الغربية واللاهوت المسيحى الغربى . وإذا ما افترضنا أن هذه العدوى لم تحدث ، فليس ثمة معرفة لما هى الدرجة التى لم يستطع الأدب الإسكندرانى أن يبلغها فى تطور مستقل ، وقد استمتع الهلينيون بمثل هذا التطور غير المقيد على وجه التحديد لأن الهلينيين (على عكس التيوتون) لم يتركوا أى بقايا من الحضارة النوبوية السابقة لتقطع طريقهم الخاص نحو النور وإرباكه .

لهذه الأسباب المتعددة ، فإن أسلوب الترجمة الذى انتهجناه هنا ، من شأنه أن يكسو كل مقتطف من كل مـؤلف من كل عصر ومن كل طابع بعض لباس من الإنجليزية التى نكتب بها فى هـذا النصف الأول من القرن العشرين بعد المسيح . وقد تركز جهد المترجم الرئيسى فى ألا يجعل القارئ يحس لأول وهلة أنه أمام شىء مترجم ، أى أمام شىء غير أصيل قـد طرقته الأيدى من قبل . وهذا كما أعلم تماماً ، مثال سلبى ، وأن وصايا النهى لها مضارها المعروفة . ويتمثل الخطر فى هذه الحالة بأن تكون النتيجة حديثاً دارجاً ركيكا مما قد يضحى معه بالجمال والخلود فى غضون الجهد المبذول لاستعادة واقعية الحياة . ترى هل من سبيل إلى التوفيق بين الجمال والخلود ! أو هل العلاقة بينهما موضع مساومة دائمة ؟ ولـكن هذا السؤال ينأى بنا بعيداً عن مجالنا . . .

إنه ينبغى لنا فقط أن نمس بعض نقاط فى التفصيل . وبادئ ذى بدء ، نجد اللغة اليونانية القديمة من ناحية ومجموعة لغاتنا الغربية المحلية الحديثة من ناحية أخرى ، إنما هى لغات ذات طبيعة مختلفة بشكل واضح . فالأسـلوب فى اللغة اليونانية بسيط والنحو معقد . بينما الأسلوب فى لغاتنا معقد نسبياً والنحو بسيط . وما عليك إلا أن تنقل أى قطعة من اليونانية إلى أى لغة حديثة فى أسلوبها المجرد الأصيل ، حتى تجد أنك نقلت شيئاً لا هو بالإنجليزى أو الفرنسى أو الألمـانى أو الإيطالى . فنى أدبنا الغربى ، كما هو الحال فى غيره من صور التعبير الذاتى عندنا ، يوجد دائماً على وجه التقريب شىء ملتو ومعقد — لمسة من مزراب من شأنها أن تثير الاشمئزاز فى نفس الهلينى بشكل خطير ، غير أنه لا سبيل إلى حذفها من أى كتابة غربية دون أن نصيب الطبيعة[1] بهزة عنيفة . ومن هنا غالباً ما تـكون الترجمة معقدة جداً حيث هى بسيطة فى مواضعها الأصلية . وعـكس ذلك (وهذا محل دراسة كلاسيكية) ، وبالطبع فمن المستحيل تماماً ، أن نعيد إنتاجاً أدبياً فى أى من

---

(١) هذا العنصر يمـكن أن ندركه بالمثل فى الـكوميديا الإلهية وهاملت وفاوست والبؤساء بمقارنتها بأعظم أعمال الفن الهلينى .

لغاتنا ، ولاسيما فى الإنجليزية ، بالبناء النحوى المعقد الذى تتميز به اللغة الإغريقية[1] بدرجة عالية من التركيب والتأليف . إذ أن انكسار سياق الجملة دون انكسار سلسلة التفكير الذى تنطوى عليه إنما هو أمر مألوف وإن كان مشكلة خلابة على الدوام، وفى المحاولة المستمرة لحلها فإن المترجم قد أفاد من السهولة التكتيكية التى تتوافر فى كتاب مطبوع بين دفتيه صفحات يقدمها على اعتبار أنها مخطوط مكتوب فى مجلد . ومن المهم ، فى الملف المخطوط أو « المجلد » بالمعنى الحرفى والأصيل للكلمة) أن تتجنب أى انقطاع فى التسلسل . فى هذه الحالة ، ليست هنا صفحة تقدم عليها مساحة كافيـة للملاحظات ، وليست هناك صفحات أخيرة تضمنها الحواشى . وإذا ما رفعت الملاحظات والحواشى من المتن ووضعتها آخر المجلد ، ضاع وقت القارئ ونفد صبره فى تقليب مضن ، وسوف تطمس الكتابة ذاتها على الملف، وفضلاً عن ذلك فإن من يقوم بالنسخ مرة ثانية قد تسقط منه هذه الحواشى سهواً ، وهكذا ، سوف يضيع فى النهاية جهد كل إنسان . وعلى هذا فمن المستحب ، فى أى عمل يتعلق بالأدب الهلينى ، أن تضم الملاحظات والحواشى إلى النص نفسه عن طريق الأقواس ، ومن حسن حظ المؤلفين الهلينيين ، أن التعقيد النحوى فى اللغة اليونانية القديمة قد أعطاهم هذه الفرصة التى ليس فى وسعنا تهيئتها . وأياً كان الأمر ، فإن الجهد ، حتى فى اللغة اليونانية ، غالباً ما كان عملاً من أعمال البطولة، وشيئاً فشيئاً ، فإن المترجم لا يجد أنه قد أراح مهارته المثقلة فحسب ، بل سيجد أن فكرة الأصيل المتخم كذلك ، قد استراح بشكل لا مثيل له بفضل استخدام مشروعنا الحديث[2] .

وكان على المترجم أن يواجه مشكلة أخرى فى تحديد موقفه إزاء بعض الكلمات والأسماء الدقيقة المعينة ، فمثلا هل له أن يبقى على الكلمات الإغريقية (هيلاس)

---

(١) حاول ذوو الطبيعة الغريبة هذا فى الماضى، تحت التأثير المباشر لعصر الأحياء ،ولكن لم يقدر لأسلوب Lyly ولا لأسلوب ملتن أن يكون المؤثر التشكيلى فى النثر الإنجليزى .

(٢) تتميز ملاحظات المؤلف والمترجم الواحدة عن الأخرى بشكل دقيق .

و (الهلينيين) أم يغيرها إلى (اليونان) و (اليونانيين) ؟ وبعد كثير من التبصر رفض اختيار بديل لأكثر الأسماء شيوعاً ، لأن البديل فى الإنجليزية الحديثة له معان مزدوجة . ومبدئياً ، فإن الناس يفترضون أن (هيلاس) دولة قائمة ، وأنها أمة قائمة أكثر من أنها عالم قد اندثر ، والأخذ بالافتراض الأقوى قد يكون له أثر يشوه ذلك العالم المندثر . إذ أن (هيلاس) القديمة لم تكن دولة وإنما كانت عالماً يشتمل على مئات من (الدول) لم تكف عن الحرب فيما بينها حتى الطور الأخير من تاريخها ، ولم يكن آل (هلينيون) القدامى أمة وإنما كانوا مجتمعاً من أمم يتكلم بعضها بلغات وطنية — غير إغريقية . ومن ثم فقد تركنا كلمات (هيلاس) و (هليني) كما هى ، وينبغى أن ننطقها ومعها كل (وأكثر من كل) ما تحمل من ارتباطات عاطفية وتصورية ترادف عندنا لفظى (أوروبا) و (الأوروبيين)[1] . ومن جهة أخرى فإن اسم اللغة قد ترجمناه إلى (اليونانية) ما دامت كلمة (هلينية) من شأنها أن تبعث على الحيرة فى هذا الصدد ، بينما ينبغى أن ينقذنا من الخلط وضع غربى مشابه . فكما يتكلم (الأوروبيون) ويكتبون بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ... هكذا ، ولم يحل هذا بينهم وبين أن يكونوا أعضاء كغيرهم فى الانتماء لحضارة واحدة ، قد تكلمت غالبية الهلينيين وكتبت دائماً باليونانية ، بينما جاء هلينيون آخرون عبر الزمن ، يحملون الاسم من

---

(١) إنها لمسألة غريبة أن يكون الاسم الذى أخذ قدسية الأموات غير دقيق من الناحية العلمية على أى وجه من الوجوه . ففى شرق القارة الأوروبية وجنوبها الشرقى ، هناك أناس كثيرون مازالوا بعيدين أو اهتدوا مؤخراً فقط إلى الحضارة (الأوروبية) . بينما على النقيض فى الحديث عن الحضارة (الأوروبية) فإننا لا نذهب إلى أن نخرج من حوزتها الشعوب فى أمريكا والتى يرجع أصلها إلى غرب أوربا . ومع أن اصلاحات (الغرب) و (الغربيين) أكثر دقة ، إلا أنها ليست شائعة . وبالمثل . هناك شعوب ناطقة باليونانية فى الأجزاء الشمالية الغربية من الأراضى اليونانية التى أشار إليها ثوكوديديس على (أنها غير هلينية) . بينما كانت فى وقته شعوب لاتتكلم باليونانية ، كشعوب ليكيا Lycia وكاريا Caria واتروريا Etruria وحتى لاتيوم Latium وقرطاجنة Carthage كانت تطالب بأن ينظر إليها على أنها أعضاء فى المجتمع الهلينى أكثر من اليورتانيين Eurytanes والتسبروتيين Thesproti أو الخايونيين Chaones .

الناحية الروحية إلا أنهم عبروا عن تراثهم الهليني باللغات الإتروسكانية واللاتينية والليدية والفريجية واللوقيانية أو الآرامية .

وثمة مشكلة ختامية حول الكلمة اليونانية (البرابرة) . . . هل ينبغي أن نتركها كما هي أم نجد مرادفا لها ؟ وهنا اختار المترجم المرادف الثاني ، لأنه (كما يبدو) لا تكاد الكلمة الأصلية تشتمل على المعنى الفرعي في اليونانية ، كما هو موجود في الكلمة المستعارة في الإنجليزية . ومعناها في اليونانية واسع ومتباين جداً . وحينما تكون الفكرة الجذرية سلبية ، فإن الترجمة الصحيحة هي بالتأكيد (غير الهلينيين)أو (اللاهلينيين). وأيا كان الأمر ، فالكلمة غالباً ما تشير إلى عناصر من حضارات منافسة أوسامية ، بينما قد يؤدي استخدام الكلمة (برابرة) في الإنجليزية إلى خطأ كامل إذا ما استبدلت بكلمة (الشرقيين).وأخيراً ، فثمة حالات قليلة، يبدو فيها أن كلمة (أناس قبليين) هي البديل الطبيعي ، ولكنها حالات نادرة . [١] .

ولفظة أخرى وهي (بوليس) Polis ، نادراً ما ترجمت إلى (مدينة) لأن تلك الكلمة إنما توحي إلى عقولنا بضخامة مجتمع مدني على نطاق غير معروف للعالم الهليني فيما عدا بعض بقاع قليلة خلال فترة قصيرة نسبياً من تاريخه [٢] ، بينما لا توحي بالتأكيد بمعنى الدولة ذات السيادة . فإذا عدنا إلى المقارنة ، نجد أنه بينما تكون (بوليس) الهلينية دون البلدة الإنجليزية في مستواها المادي ، فإنها تتمتع بحياة سياسية وشخصية متميزة على مستوى يختلف تماماً عن المجلس العظيم وهو

---

(١) ثمة أهمية تاريخية للحقيقة القائلة بأن الهلينيين استخدموا كلمة بذاتها لتعبر عن هذا التنوع في المعاني ، لأنها تكشف عن تشربهم الذاتي وميلهم إلى إنكار ما أنجزته المجتمعات الأخرى . وقد كان هذا ضعفاً خطيراً يعزى بشكل كبير إلى انتصار سوريا النهائي ، في النزاع الطويل المؤلم الذي شقته الحضارتان في المجالات المختلفة ؛ في الحرب والسياسة والاقتصاد والدين .

(٢) قد يتعثر المراقبون الهلينيون أمام التجمعات الحضارية التي لها نمط نطق غربي ؛ إلا أن هذا النمو والمدى عندنا أكبر من حدود الهلينيين (في زمنها المتحجر) في مأوى الحضارتين المصرية والعراقية .

أعلى تنظيم سياسى لمدينة غربية ضخمة . وكانت (بوليس) من الناحية القانونية (دولة) ومن الناحية الفعلية (بلداً) بينما كان شعبها يشكل (أمة)سواء خرج فى ألف رجل قوى أو فى عدد أكبر أو أقل لتلتحم سيوفهم بسيوف جيوش بلد أصغر فى التركيب وأقل درجة فى الوعى الذاتى، سواء أكانت فى نظرهم أقل أم ضخم سياسياً مثل الإمبراطورية الفارسية .وقد استخدمت بالتالى كافة هذه الكلمات الإنجليزية حسبما تتفق والمناسبات ، بينما فى الحالات الأقل تكراراً ، والتى يعنى فيها النص اليونانى بأن يستخدم كلمة (بوليس) بالمعنى الطبوغرافى والمادى،فهى تترجم دائماً بـ (البلدة) .

وفى الوقت الذى تتردد فيه كلمات (يكتب) و(كاتب) و(يقرأ) و(قارئ) فعلى القارئ الإنجليزى ألا ينسى أن ما يقوم مقامها عادة فى اليونانية كانت كلمات (سرد) و(مؤلف) و (يسمع) و(سامع) . لأن النقل الشفهى كان هو الوسيلة الطبيعية لإيصال محتويات العمل الأدبى فى مجتمع كانت فيه عملية إعادة نسخ المؤلفات أكثر بطئاً وأكثر تكلفة مما هى عليه الآن نسبياً فى الغرب منذ بداية الطباعة الحديثة . ومنذ أيام هيرودوت حتى سيموكاتا ، كانت التلاوة العلنية أمام مستمعين يختارهم المؤلف ذاته هى الأسلوب المألوف للنشر . ثم يأتى بعد ذلك لفظ (اللوجوس) — (الكلمة) فى أحد معانيها الكثيرة التى تشتمل عليها الكلمة المنطوقة. Logos ويمكن ترجمتها بـ (رواية)[1] أو (عمل) أو (كتابة) ، بحيث إن الحديث الذى تلقيه بعثة دبلوماسية يمكن أن يوصف بأنه (مذكرة شفهية) وأن « علم البيان» ـ وهو من له مكان قليل فى حياتنا ـ يمكن أن يقال عنه فى بعض المناسبات (الفن الصحفى) . وأخيراً سوف يلاحظ القارئ أن الأسماء اليونانية ، سواء فى ذلك أسماء الأشخاص أو الأماكن ، قد نقلناها فى النص الإنجليزى بشكلها اللاتينى المعروف[2]. وقد قمنا بهذا الهدف السلبى البحت لإعفاء القارئ من سلسلة

---

(١) وهى كلمة تتضمن فى ذاتها معنى النقل الشفهى فى الأصل اللاتينى .

(٢) إننى لم أتماد فى إخفاء الأرباب الهلينيين تحت أسماء الآلهة اللاتينية القديمة والتى كانت تطلق عليها ؛ وفى حالة بعض السير الشائعة أو المشهورة فيما بيننا ، استخدمت الاسم الذى نطلقه نحن الآن، (على سبيل المثال) الدردنيل — بدلا من(هيلليسبنت Hellespont).

متصلة من الصدمات البصرية الخفيفة التي من شأنها أن تصرف ذهنه بلا مبرر عن الفكر و اللغة. وذلك يجعل القارئ متيقظاً تماماً للهجاء فقط. وإن نظرة واحدة إلى قواعد الهجاء التى استخدمها « براونج » Balaustion's Adventures Browning أو ترجمته ل (ثلاثية أيسخولوس) Trilgy of Aeschylus ، من شأنها أن توضح الأثر البصرى الذى سعى المترجم الحالى إلى تجنبه. إن قواعد الهجاء اللاتينية مألوفة لأبصارنا لأننا نستخدمها فى نقل الكلمات المركبة المستعارة أو المأخوذة حديثاً عن اليونانية فى كلماتنا العلمية النامية باستمرار. وعلى هذا فإن كلمات بهذه الحروف لاتستقيم مع الصفحة وتعوق سياق الفقرة وتحرف أبصارنا وهى تنتقل بين السطور. وربما كان هذا تضحية بالدقة فى سبيل الابتعاد عن مادة ليست جوهرية، ولكن علينا أن نكتشف أكثر مما هو معروف بخصوص نطق اليونانية القديمة قبل أن نتمكن من صيانة قواعد الهجاء اليونانية بشكل جاد، وهى معاونة لها قيمتها إزاء إعادة بناء الكلمة المنطوقة، كما خرجت فى بداية الأمر من فم المؤلف لتقع على آذان معاصريه.

وأياً كان الأمر، فهذه أمور ليست بذات بال، ولا يتوقف عليها نجاح هذا الكتاب أو فشله. وسوف ينجح الكتاب أو يخفق بسبب وجهة النظر التاريخية التى يقوم عليها، وليس بسبب بعض الإيضاحات التى قدمت حالياً فى هذه المقدمة. والافتراض الرئيسى هو أنه فى المسار المتتالى أو الذى يحدث فى وقت واحد من جانب الحضارات المختلفة المعروفة — الحضارات المصرية والعراقية والمينوية والهندية والشرق الأقصى، والهلينية والسورية — الإيرانية، والبيزنطية والغربية والشرق الأوسط — تكشف لنا الرؤية التاريخية عن تكرار مستمر عميق وعن دلالة عميقة للخبرة الإنسانية على نطاق بطولى. وعندما نصوغ هذه المسألة فى كلمات، فإن هذا الافتراض قد يعبر عن ظهور مبدأ مهيب بعض الشيء، إلا أنه بلا ريب كان دائماً مبدأ كل عالم كلاسيكى. ولو لم نكن مقتنعين بأن الوعى الهلينى، حتى فى صور التعبيرات المتناثرة التى وصلتنا، ولو فى دخيلة نفوسنا، ملىء بالحيوية وزاخر

بالتجربة ، أو بعبارة أخرى على درجة من (العصرية) ،مثلنا تماماً،لو لم نكن مقتنعين بهذا، لما كان ينبغى أن ننجذب نحوه غير قادرين على المقاومة كما انجذبنا إليه ، وما كان لنا أن ندعه يصيب من عملنا العقلى هذا القدر الذى أوليناه ، والذى كان حتى ذلك الحين مستحيلاً ، وهو مشاركة معاصرينا الهلينيين فى الأفكار والمشاعر. وأيا كان الأمر، فإن قراء هذا الكتاب ، هم على الأرجح ، أناس يتكلمون الإنجليزية ، وتلقنوا دراسات أخرى غير كلاسيكية ، وعلى هذا فليس لديهم هذه الخبرة الشخصية النشطة ، التى تجعلهم يحددون ، منذ الطفولة ، ماذا تعنى الدراسات الكلاسيكية فى أصلها للعقل الغربى الحديث . إن الانطباع الذى يحدث عند مثل هؤلاء القراء سوف يكون تجربة أصدق من فشل الكتاب أو نجاحه ، ويعرف كل مؤرخ أن النجاح فى مسعاه الإنسانى السامى إنما تمنحه له معجزة فقط .

«وكانت علىَّ يد الرب فأخرجنى بروح الرب وأنزلنى فى وسط البقعة وهى ملآنة عظاماً . وأمرّنى عليها من حولها وإذا هى كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هى يابسة جداً.فقال لى يا ابن آدم أتحيا هذه العظام.(فقلت ياسيد الرب أنت تعلم.) فقال لى(:تنبأ على هذه العظام وقل لها . أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب.هكذا قال السيد الرب لهذه العظام . هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون وأضع عليكم عصبا وأبسكم لحماً وأبسط عليكم جلداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أنى أنا الرب . »

فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام كل عظمة إلى عظمة ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح . فقال لى:(تنبأ للروح تنبأ يابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم ياروح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا .)فتنبأت كما أمرنى فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً .»

أرنولد توينبي ـ لندن

مقدمة الطبعة الثانية

يعتبر التفكير بالنسبة للإنسان نشاطاً شاقاً وبعيداً عن النهج الطبيعي . وهو فى هذا كالسير على قدمين بالنسبة للقرود ، ونادراً ما نسرف فيه أكثر مما نحن فى حاجة إليه ؛ ويتعاظم عدم ميلنا إلى التفكير بصفة عامة فى الأوقات التى نحس فيها بأكبر قدر من الراحة . وإذا كان هذا الإعراض الإنسانى عن العمل الفكرى لا يظهر فى الحياة العامة أقل من ظهوره فى الشئون الخاصة ، فإن الجنس البشرى لا يؤدى الكثير من تفكيره التاريخى فى أزمنة يسيرة يسودها الرخاء . وفى مثل هذه الأوقات فإننا نقنع عادة بأن نعيش خلال التاريخ دون أن نتحقق من أننا نمضى فى تياره ، بل وعلى الرغم من أن فترات الرخاء فى شئون البشر غالباً ما كانت قصيرة فى الماضى ، فإن هذه الفترات كانت طويلة بما يكفى أن تدخل فى روع الناس أن التاريخ أمر لا يصادف هوى فى النفس ولا سبيل له إلى اللحاق بجيلهم ، على حين أنهم يعلمون تمام العلم أن أناساً آخرين فى أزمنة وأمكنة أخرى ، قد واجهوا فى بعض الأحيان نكبات تاريخية .

وعندما يحين الوقت ليأتى علينا التاريخ بدورنا ، وهو أمر لابد من حدوثه إن آجلاً أو عاجلاً ، فإن تجاربنا غير المرغوب فيها ، تحدو بنا إلى التفكير ثانية فى تاريخ الإنسان ومصيره ، وقد أخذت عقولنا فى مجتمعنا الغربى الحديث تعود إلى الوراء فى هذا الاتجاه منذ عام ١٩١٤ ، غير أن الإنسان الغربى ، ابن القرن العشرين ، يملك أكبر ناحية مريحة فى العصر الألفى السعيد من خلفه ، ليس معداً جيداً لمثل هذا العمل الفعلى الضرورى وإن كان شاقاً . ونحن فى تجربتنا الذاتية ، ليس وراءنا أكثر من ستة وثلاثين سنة من الخطيئة الصارخة والمعاناة تنير السبيل أمام مدار كنا . ونحن وإن استطعنا أن نشغل هذه الحقبة الضئيلة من الزمن بهذا الحشد الضخم من التجارب المشار إليها ، إلا أن الفترة مازالت قصيرة

إلى حد لايسمح لنا معه بأن نستعرض التاريخ الإنسانى فى ضوء ما كنا نفعل نحن أنفسنا ونعانى .

وهذا هو المجال الذى يمكن للفكر التاريخى عند الإغريق أن يساعدنا ، لأن فترة المحنة فى التاريخ الإغريقى والرومانى ، التى تماثل فترة محنتنا ، لم تدم ستة وثلاثين عاماً فقط ، وإنما دامت لأكثر من أحد عشر قرناً ، هذا إذا ما كان علينا أن نؤرخ لانهيار الحضارة الهلينية منذ أن شبت الحرب البلوبونيزية — الأثينية فى عام ٤٣١ ق . م ، وأن نرى تحللها النهائى فى الطور الأخير من تفتت الإمبراطورية الرومانية فى القرن السابع من العصر المسيحى . ومن بداية هذه الحقبة حتى نهايتها فيما لايقل عن أحد عشر قرناً ، كان مفكرو الإغريق يتأملون غموض الحياة الإنسانية فى ضوء خبرات الأنواع التى غدت مألوفة لدينا أخيراً . وقد ترجمنا فى هذا المجلد ، مقطوعات خالدة من الأدب الاغريقى تشمل هذا النقاش الطويل ، إيماناً منا بأن لها ، فى هذه الآونة ، أهمية للقراء الغربيين المعاصرين .

والخلاصة ، أن التجارب التاريخية التى اعتصرت هذه الأفكار من الروح الإغريقية ، إنما تماثل التجارب التى نجتازها نحن الآن . فهذه الأفكار الإغريقية المنقولة هنا إلى الإنجليزية ، إنما هى تنعكس فى العقول الإنسانية عن الحرب العالمية والحروب الطبقية ، والمنازعات الثقافية داخل أماكن مغلقة بين أناس من تراث اجتماعى متباين ، وفى نطاق النزال على البطولة ، وكافة النماذج الغامضة الأخرى ، نسجت كلها على نول من الخير والشر ، وذلك ينبه العقول البشرية إلى تصارع المتناقضات فى الطبيعة البشرية .

فلدينا فى عام ١٩٥٠ ، بشكل كبير ، ما نتعلمه من الفكر التاريخى عند الإغريق أكثر مما تعلمنا فى عام ١٩٢٤ .

ا . ت

الجزء الأول

مقـــدمات

هيرودوت الهاليكارناسى

(٤٩٥ — ٤٢٥ ق . م)

Herodotus of Halicarnassus

تاريخ الشرق والغرب

(نص أكسفورد ، تحقيق ك . هيود C. Hude : الكتاب الأول . الفصول ١ — ٥) .

فيما يلى ، يقدم هيرودوت الهاليكارناسى نتائج أبحاثه ، وله هدفان : أحدهما إنقاذ تاريخ الجنس البشرى من النسيان ثم إثبات أن الأعمال الرائعة التى اضطلع بها الهينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هى أهل له من شهرة — خاصة تلك التى أدت إلى صدام فيما بينهم .

ويلقى المؤرخون الفارسيون مسئولية هذا النزاع على عاتق الفينيقيين . واستناداً إلى هذا الرأى ، فإن الفينيقيين ، الذين عاشوا على سواحل البحر الأحمر قبل أن يهاجروا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، لم يكد يستقر بهم المقام فى موطنهم الحالى ، حتى قاموا برحلات بعيدة ، حملوا فيها سفنهم بالسلع المصرية والآشورية ، وكان من بين الأسواق التى زاروها (أرجوس) Argos — التى كانت فى ذلك الحين أعظم ولايات الإقليم الذى نطلق عليه الآن (هيلاس) . وعليه ، يزور الفينيقيون (أرجوس) (وهكذا تمضى الرواية) حتى يأتوا على بضائعهم ، وفى غضون خمسة أيام أو ستة من وصولهم ، كانوا قد باعوا كل مالديهم تقريباً ، إذ جاء بعض النسوة إلى الشاطىء ومعهن ابنة الملك[١] . فوقفن عند مؤخرة السفينة

---

(١) يرد اسمها فى كل من الروايتين الفارسية والهلينية على أنها (ليوبنت أتاخوس) . المؤلف .

وانهمكن فى الشراء ، خاصة شراء الطرف التى ألهبت خيالهن ، فهاج الفينيقيون وانقضوا عليهن . وكان أن أفلتت غالبيـة النساء وسبيت « إيو ه آ » وأخريات ، نقلهن الفينيقيون إلىظهر السفينةقسراً ، وأبحروا بهن إلى مصر . هذه هى الرواية الفارسية عن كيفية مجىء « إيو » إلى مصر (وهى تتعارض مع الرواية الهلينية) .

وينظر الفرس إلى هذا الحادث على أنه بداية الأعمال الاستفزازية بين الفريقين . فقد أعقب هذا الاستفزاز ، فىالرواية الفارسية ، غارة الهلينيين(١) على (صور) Tyre فى فينيقيا، حيث سبوا « يوروبا » Europa ابنة الملك . وقد نتج عن هذا وجود أحزاب يناصر كل حزب منها فريقاً بعينه . ثم ما لبث أن حدث استفزاز جديد من جانب الهلينيين وذلك بأن بعثوا بسفينة حربية إلى (أيا) Aia فى (كولخس) Colchis على نهر (فاسس) Phasis ، دون أن يكتفوا بالعمل الذى ذهبوا من أجله ، بل سبوا « ميديا » Medea ابنة ملك البلاد . وبعث ملك الـكولخيين برسول إلى (هيلاس) يترضى الهلينيين كى يردوا إليه ابنته . غير أن هؤلاء أجابوا بأنهم ليسوا علىاستعداد لأن يتقدموا بأية ترضية فى حالة كهذه ، لأن الشرقيين لم يقدموا أية ترضية عن حادث خطف الأميرة الأرجيفية اليونانية) .

وأيما كان الأمر ، فقد حدث بعد ذلك بجيلين أن أثارت هذه الحادثة نخوة الإسكندر ابن « بريام » Priam فعزم على أن يختطف زوجة له من (هيلاس) ، مطمئناً إلى أنه سوف لا يتقدم بأية ترضية ، ما دام الجانب الآخر قد رفض تقديم مثل هذه الترضية من قبل . وعلى هذا فقد خطف « هيلينا » Helen ، وقرر الهلينيون ، إذ ذاك أن يبادروا بإرســال مذكرة يطالبون فيها برد « هيلينا » وبترضية عن الاعتداء . غير أن الفريق الآخر رد عليهم بأن أثار فى وجوههم مسـألة خطف « ميديا » وأوضح أن الهلينيين ، الذين يطالبون بترضية من الآخرين ، هم بأنفسهم الذين رفضوا تقديم ترضية لمثل هذه الحالة ، ورفضوا أن يعيدوا « ميديا » حينما طلب إليهم ذلك . وإلىهنا توقفت اعتداءات الخطف بين الفريقين . إلا أن الهلينيين

---

(١) ليس لديهم سجل بأسمائهم ، ولعلهم كانوا من كريت — المؤلف .

قد جلبوا على أنفسهم بذلك مسئولية جسيمة حينما بدأوا بغزو آسيا . ولم يكن الشرقيون قد قاموا بغزو أوروبا بعد . ويعلق المؤرخون الفارسيون على هذا بقولهم ، إنه بينما يعتبر سبى النساء جريمة ، إلا أنه من الحماقة الإصرار على الانتقام من أجله ، وأن المسلك الحكيم يقضى بأن يغض النظر عن هذا العمل . إذ أنه من الواضح أن خطف النساء لم يكن ليتم ، لو لم تكن لدى النساء رغبة فى ذلك . ويستطردون قائلين ، إننا ، معشر الآسيويين ، لم نتأثر باختطاف النساء ، فى حين أن الهلينيين ، من أجل امرأة اسبرطية ، أعدوا أسطولا حربياً كبيراً ، وقاموا بغزو آسيا ، ودمروا دولة « بريام ».ويضيف المؤرخون الفرس . . . ومنذ ذلك الحين ونحن ننظر إلى العالم الهلينى على أنه عالم معاد لنا[١] .

وأخذاً بهذه الرواية عن تلك الوقائع فإن الفرس يردون خصومتهم الطويلة مع الهلينيين إلى سقوط (طروادة) Troy . والرواية الفارسية ، فيما يتعلق بحادث « إيو » تعارضها الرواية الفينيقية ، التى تؤكد أن « إيو » لم تسب حينما ذهبت معهم إلى مصر ، وإنما كانت قد أحبت قائد السفينة ، فى أرجوس ، وعندما اكتشفت أنها حامل ، لم يكن فى مقدورها أن تواجه والديها ، فأبحرت مع الفينيقيين بمحض اختيارها حتى تهرب من افتضاح أمرها . ويكفى هذا القدر من روايات الفرس والفينيقيين. أما من جهتى فسوف لا أزج بنفسى فى هذا الخلاف بالتأييد أو بالرفض ، وحسبى أن أبدأ بتناول الشخصية التاريخية الأولى ، التى كانت حسب معلوماتى ، مسئولة عن العدوان ضد الهلينيين . وخلال روايتى سوف أولى البلدان الصغيرة اهتماماً شأنها فى ذلك شأن البلدان الكبيرة ، لأن البلدان التى كانت كبيرة فيما مضى ، غالباً ما أصبحت صغيرة ، بينما تلك التى ازدهرت فى عصرى كانت صغيرة من قبل . ولما كنت أدرك أن حظ الإنسان لا يدوم على حال ، فسوف لا أفرق بين هذين النوعين من البلدان .

---

(١) ينظر الفرس إلى قارة آسيا والأمم التى تقطنها من أملاكهم ، ولكنهم يعتبرون العالم الهلينى غريباً عنهم — المؤلف .

(١) إنه كرويسس Croesus ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦ ق . م) .

ثوكوديديس الأثينى

Thucydides of Athens

(٤٦٠ — — ٣٩٥ ق . م)

تاريخ الحرب البلوبونيزية

(نص أكسفورد ، تحقيق ه . ستيوارت — جونز H. Stuart-Jones الكتاب الأول . الفصول ١ — ٢٣) .

كتب «ثوكوديديس» الأثينى تاريخ الحرب التى نشبت بين سكان البيلوبونيز والأثينيين. واستهل عمله هذا فور نشوب الحرب ، التى اعتقد أنها ستحجب فى الأهمية كل حرب سبقتها . وحمله على هذا الاعتقاد أن كلاً من الطرفين المتحاربين ، عندما بدأ بالعدوان ، كان قد أعد للحرب ما استطاع من قوة فى كل سلاح ، وأن الشعوب الهلينية قد اشتركت جميعها فى هذه الحرب ، فانحازت إلى هذا الطرف أو ذاك ، وسارع بعضها إلى هذا الانحياز ، وعقد البعض الآخر العزم على أن يحذو حذوهم . وكانت هـذه الحرب ، بالفعل ، أكبر انفجار أثر فى (هيلاس) وامتد أثره إلى العالم غير الهلينى (ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت على مجموعة كبيرة من الجنس البشرى) . حقيقة إن مضى الزمن قد جعل البحث الدقيق فى الحاضر مستحيلاً كما هو الحال فى بحث الماضى البعيد ، إلا أنه فى ضوء أقدم دليل أعتبره جديراً بالثقة ، فإننى لا أتصور أنه قد وجدت فى الماضى حروب أو أحداث أخرى بمثل هذه الدرجة من الأهمية .

ويبدو أن سكان المكان الذى نطلق عليه الآن (هيلاس) لم يستقروا حتى زمن قريب نسبياً . وأن (هيلاس) تعرضت فى الأزمنة الأولى لهجرات ، ترك فيها السكان مساكنهم بسهولة تحت ضغط بعض الدخلاء الذين يفوقونهم فى العدد . ولم تكن التجارة أو الاختلاط مضمونين بحراً وبراً . فعاش كل مجتمع

فى حدود إنتاجه المحلى الخاص ، دون أن يتجمع لديه رأسمال ،ودون أن يعمل على استثمار رأس المال هذا فى الأرض ، لأنه لم يكن فى وسع أحد أن يعرف تماماً متى يحرمه الغزاة من بلاده، تلك التى لم يتعلموا كيفية تحصينها بعد . وكان من المسلم به عندهم ، أنه من اليسير أن يحصلوا على قوت يومهم أينما حلوا . لهذه الأسباب كانوا على أهبة الترحال ،فلم يعملوا على تكوين قوة بشرية كبيرة أو عتاد حربى كبير . وقد تعرضت ، بوجه خاص، أغنى المناطق ، كتلك التى يطلق عليها الآن (تساليا) Thessaly و (بويوتيا) Boeotia ، ومعظم مناطق البيلوبونيز فيما عدا (أركاديا) Arcadia ، وأفضل الأجزاء الأخرى ، إلى تغيرات فى السكان . ونتج عن خصوبة التربة تزايد فى القوة ، التى أدت إلى اضطرابات أهلية مدمرة ، وجعلت من هذه البلدان ، فى الوقت نفسه ، هدفاً لأطماع الأجانب البالغة . أما (أتيكا) Attica ، فإنها على عكس ذلك ، لقد خلت من الاضطرابات الأهلية لفترة طويلة متصلة ، بسبب فقر تربتها .ولم يحدث أن افتقدت سكانها الأصليين أبداً. ومما يؤيد رأيى فى أن الهجرات قد عاقت التطور المماثل للبلدان الأخرى، هو أن أهم ضحايا الحرب والاضطرابات الأهلية فى بقية العالم الهلينى قد وجدوا فى أثينا كلاجئين ملاذاً لهم، وأخذوا سماتهم الطبيعية منذ أقدم العصور وما لبثوا أن زادوا من عدد السكان الذين تدفقوا فيما بعد من (أتيكا) ، وأقاموا لهم مستعمرات فى (أيونيا) Ionia .

•

وثمة دليل آخر يبدو لى إلى جانب ضآلة الآثار القديمة ؛ ألا وهو أنه قبل حرب طروادة ، لا يبدو أن هيلاس ، قد قامت بمجهود موحد . وأعتقد أن هذا الاسم فى حد ذاته لم يكن قد انتشر بعد ليشمل العالم الهلينى . وأن التسمية ، فى حقيقة الأمر، لم تكن معروفة على الأرجح قبل عصر «هيلين» Hellen بن «ديوكاليون» Deucalion ، وأن أسماء القوميات المختلفة انتشرت محلياً ، وكان أكثرها انتشاراً « البلاسجيين » Pelasgians ولم تكن هناك دولة فى (فثيوتس) Phthiotis حتى زمن « هيلين » وأبنائه الذين طلبت منهم الدول الأخرى أن

يتدخلوا لصالحها ، فاتجهوا خلال هذا التدخل إلى إطلاق اسم « الهلينيين » على دولة إثر دولة . ومهما يكن الأمر ، فقد انقضت على ما يبدو فترة طويلة ، قبل أن تتداول هذه التسمية . ويمكن الاستدلال على هذا بوجه خاص ، من « هومر » الذى وجد بعد مضى فترة طويلة جداً من الزمن على حرب طروادة ، فنجد أنه لم يطلق اسم « الهلينيين » على العنصر بأسره ، أو على أى عنصر آخر ، عدا أتباع «أخيليوس» Achilles من (فثيوتس)، وكانوا هم بالفعل الهلينيين الأول. ولم يتحدث « هومر » أيضاً ، عن غير الهلينيين ، للسبب الذى من أجله أعتقد أن «الهلينيين» لم يكونوا قد اتخذوا اسماً معيناً يمكن أن تتباين معه أى تسمية أخرى . وعلى أية حال ، فإن العناصر الأصلية للجنس الهليني (كما ساد هذا الاسم بشيوعه من دولة إلى دولة حتى غدا اسماً عالمياً) قد عاقها قلة التداخل وضعفه فى المشاركة فى أى مشروع ، لدرجة أن حملة طروادة لم تكتمل لها عناصر الحملة المشتركة إلا فى عرض البحر .

ويعتبر « مينوس » Minos أول رجل معروف فى الروايات القديمة قام ببناء أسطول سيطر به على الجزء الأكبر مما نطلق عليه الآن البحر الهليني ، وحكم (الأرخبيل) Archipelago ، وكان أول من استعمر معظم الجزر — وطارد « الكاريين » الأصليين ، ونصب أبناءه حكاماً . ومن المحتمل أنه طهر البحار من القراصنة على قدر استطاعته ، كى يوجه الدخل إلى خزائنه الخاصة . وقد مارس الهلينيون فى الأزمنة القديمة ، القرصنة ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الجزر والسواحل من غير الهلينيين . بعد أن اضطرد ازدياد مواصلاتهم البحرية . وتولى القيادة أناس ذوو مكانة من أجل مصالحهم الشخصية من ناحية ومساندة أتباعهم من ناحية أخرى . واعتادوا أن ينقضوا على المدن المكشوفة والقرى فينهبونها ، فكان ذلك مصدراً رئيسياً لأرزاقهم . ولم يكن ثمة عار لحق بعد بهذه المهنة ، بل كانت تمتاز عما عداها من المهن الأخرى ، والدليل على ذلك تلك الهالة التى تحبوا حتى يومنا هذا بموهبة القرصنة بين بعض شعوب البر [1] ، وكذلك الحوار الذى يزخر به

---

(١) مثل شعوب البلقان فى قلب شبه الجزيرة الهلينية (المحقق) .

الشعر[1] فى الأزمنة الباكرة . ومازالت شعوب البر يغير بعضها على البعض الآخر . وتوجد إلى الآن ، أجزاء كبيرة من (هيلاس) ، لاتزال الأساليب القديمة باقية بها — كما هو الحال بين « اللوكريين » Locrians الجنوبيين ، و « الأيتوليين » Aetolians وسكان أكارنيا Acharnians ، وسائر تلك المنطقة من القارة . ولا تزال عادة حمل الأسلحة منذ أيام القرصنة باقية بين شعوب اليابسة ، لأن العالم الهلينى بأسره خلال فترة ما ، كان يحمل الأسلحة . فقد عاش فى العراء ولم يكن الاختلاط مأمون الجانب ، فلم يتخل قط عن الأسلحة ، بصورة أكبر مما تفعل الشعوب غير الهلينية اليوم. ومثل هذه الرواسب ، فى هذه الأجزاء من هيلاس تدل على أن تلك العادات المماثلة قد انتشرت ذات يوم على نطاق واسع .

وكان الأثينيون من الأوائل الذين تخلوا عن السلاح ، وتحولوا إلى أسلوب حياة أكثر دعة وتهذيباً . وأخيراً ، تخلى المسنون من الطبقة المهذبة عن الكماليات ، كارتداء قمصان من الكتان وعقص شعورهم فى جمة تزينها مشابك ذهبية على هيئة الجندب. وقد استمرت هذه الحياة سائدة لفترة طويلة لدى الجيل القديم من بنى جلدة الأيونيين . فالرداء البسيط الذى نرتديه اليوم ، أوجده الإسبرطيون فى بادئ الأمر ، وقد تبسطوا فى المظهر بأسره حتى يكون فى متناول الفقير والغنى . وكانوا أول من تدربوا عراة ، وتجردوا من ثيابهم علناً ، ودهنوا لهذا الغرض أجسادهم بالزيت . ومع أن المتبارين قد اعتادوا فى الأصل أن يستروا عوراتهم بأردية حتى فى مباريات الألعاب الأوليمبية ، إلا أنه لم تمض سنوات كثيرة حتى أقلعوا عن هذه العادة . ونحن نجد فى أيامنا هذه بين بعض الشعوب غير الهلينية ، خاصة فى آسيا ، شعوباً ما زالت ترتدى الرهاط (مئزر) عندما يقيمون مباريات الملاكمة والمصارعة . ومن اليسير أن نجد أوجه شبه كثيرة بين الحياة الهلينية القديمة والحياة غير الهلينية الحديثة .

---

(١) يوجه إلى البحارة القادمين للشاطئ سؤال دون تمييز عما إذا كانوا قراصنة ، ولا تراودهم فكرة الخجل من هذه التجارة أو أن يكون فى هذا السؤال نوع من الإهانة (المؤلف) .

وكان لدى البلدان التي تأسست أخيراً جداً ،عقب قهر البحار ، فائض من رأس المال ، وأقيمت من أجل ذلك على الساحل أو عبر البرازخ وحصنت تحصيناً صناعياً في أكثر المواقع الاستراتيجية والتجارية الملائمة . وتحاشت المستعمرات الأولى جيرة البحر ، بسبب أعمال القرصنة الدائمة ، التي لم تحدث في الجزر فحسب بل وعلى البر أيضاً (لأن القراصنة كانوا يغيرون على سكان السواحل غير المشتغلين بالملاحة كما كان يغير بعضهم على بعض) ، وأبقوا حتى يومنا هذا على مواقعهم الأصلية داخل اليابسة . أما سكان الجزر الذين كانوا قراصنة نشطين على غرار الباقين ، فقد كانوا من « الكاريين » و « الفينيقيين » وقد قام هؤلاء باستعمار غالبية الجزر ، كما أثبت ذلك (ديلوس) Delos . وعندما أعاد الأثينيون تقديس جزيرة (ديلوس) إبان الحرب الأخيرة ، أزالوا كل ما وجد فيها من هياكل ثبت أن الكاريين قد أقاموا أكثر من نصفها . ومما يؤكد هذا نوع الأسلحة التي أدخلوها معهم وشكل المدافن الكارية الذي ما زال سائداً . وقد أصبحت وسائل النقل البحري أكثر أمناً [1] بعد بناء أسطول « مينوس » . فبدأ أهالي السواحل في تجميع رءوس أموالهم وإقامة حياة أكثر استقراراً ، واستخدموا ما زاد عن حاجتهم من المال في بناء التحصينات لوقاية أنفسهم . ورأى الضعفاء أن من الأسلم لهم أن يقبلوا سيادة الأقوياء سياسياً ؛ فاستخدم الأقوياء بدورهم الفائض لإخضاع الدول التي تقل عنهم شأناً . وقد وصلوا مرحلة التطور هذه تقريباً قبل أن يقوموا بحملتهم ضد طروادة .

وأعتقد أن « أجاممنون » Agamemnon استطاع أن يحشد أسطوله لأنه كان القوة المسيطرة بين معاصريه وليس لأن خطاب « هيلينا » كانوا مضطرين للسير وراءه بناء على قسمهم « لتنداريوس » Tyndareus . وفي الحقيقة تؤكد أصدق رواية عند البيلوبونيز بأن « بيلوبس » Pelops قد استولى في بداية الأمر على السلطة بفضل رءوس الأموال التي جلبها معه إلى هذا القطر الفقير من آسيا ، ونجح في فرض اسمه رغم كونه نازحا . وكان ينتظر أحفاده نجاح أعظم

(١) قام مينوس بتطهير الجزر من المجرمين ، وكانت هذه فرصة ليستعمر فيها معظم الجزر (المؤلف) .

فعندما قتل «بنو هرقل» «يوريثيوس» Eurystheus فى (أتيكا) ، فإن «أتريوس» Atreus خال «يوريثيوس» الذى طرد من بيت أبيه بسبب مقتل «خريسيبوس» Chrysippus ، وجد نفسه مسئولاً عن أهالى (موكناى) وأملاكهم ، التى عهد بها إليه «يوريثيوس» لصلة القرابة التى كانت بينهما. ولما لم يعد «يوريثيوس» اعتلى «أتريوس» العرش بمحض إرادة أهل موكناى، الذين كانوا يخشون الهرقليين [1] وهكذا تفوق أتباع «بيلوبس» على البرسيين Perseidae ، وأعتقد أن ذلك الميراث مصحوباً بالتفوق البحرى ، هو الذى مكن «أجا ممنون» من أن يحشد قواته ، التى كانت مسخرة أكثر منها متطوعة . ويبدو أنه أعد بنفسه أضخم حامية من السفن ، التى كان لديه الكثير منها واستطاع أن يوفر بعضها للأركاديين Arcadians ، واذا اعتمدنا على رواية «هومر» وأخذناها كدليل تاريخى، نجده يقول فى (تسلم الصولجان) إن «أجاممنون» (كان رب جزر كثيرة وبلاد اليونان بأسرها) . إلا أنه لولا هذا الأسطول ما كان فى مقدوره ، حتى ولو كانت لديه سلطة مطلقة على البر ، أن يسيطر على أى جزيرة فيما عدا تلك الجزر التى تجاور سواحله ، والتى لم تكن كثيرة العدد . وما نعرفه عن حملة طروادة يصلح أن يقوم دليلاً على طبيعة تلك الحملات التى سبقتها .

إن صغر حجم موكناى وعدم الأهمية الراهنة لهذه البلدة أو تلك ، ليست دليلا كافياً على تكذيب أقوال الشعراء والأقوال المتوارثة الخاصة بحجم الأسطول الحربى. ولنفرض ، على سبيل المثال ، أن مدينة (إسبرطة) Sparta أصبحت مهجورة ليس فيها شيء سوى المبانى العامة وأساس المنازل ، فإننى أعتقد أن الفترة الطويلة التى تعقب ذلك من شأنها أن توحى بالشك لدرجة كبيرة فى مدى تطابق السلطة الراهنة للإسبرطيين وما كان لهم من شهرة تاريخية . لقد سيطر الإسبرطيون بالفعل على خمسى جزر بيلوبونيزيا وكانت لهم الولاية على الجزر الباقية، كما كان لهم مثل هذا النفوذ على حلفاء كثيرين خلف حدود إسبرطة ، ومع ذلك فإن المدينة

(١) كان أتريوس مهيباً فعلا ، وقد استمال إلى جانبه الجماهير فى موكناى والدول الأخرى التى تدخل فى حيازة يوريثوس ، (المؤلف) .

تبعث انطباعاً بالدُّونية ، لأنها لم تـكن مدينة مركزة[1] ، ولم تـكن تزينها مبان عامة نخمة ، دينية كانت أم دنيوية ، اللهم إلا مجموعـة من مجتمعات القرى ذات النظام الهليني البدائي . ومن جهة أخرى ، فإن أثينا لو تعرضت للمصير ذاته ،فإن بقايا المدينة المادية من شأنها أن توحى بأن قوة الأثينيين كانت ضعف ماهى عليه فى الحقيقة . وعلى هذا فمن الخطأ أن نشك ، أو أن نحـكم على الدول من مظهرها الخارجى أكثر من الحـكم عليها من قوتها الباطنة ، ومن الأسلم أن نفترض أن الحملة الطروادية قد فاقت ماسبقها من حملات وإن لم تبلغ حدود الحملات الحديثة — هذا على افتراض أن دليل هومر يمـكن أن يؤخذ موضع ثقة . لأن هومر من المفروض ، أن يبالغ باعتباره شاعراً ، ومع هذه المبالغة فإن انطباع الدُّونية مازال باقياً ، حتى فى حدود الأرقام التى يقدمها ، وهى أنه كانت هناك ١٢٠٠ سفينة ، لها ١٢٠ بحاراً فى حامية (بويوتيا) و٥٠ بحاراً فى حاميـــة « فيلوكتيتس » Philoctetes ؛ وأميل إلى اعتبار هذه الأرقام الحد الأعلى والحد الأدنى لعـدد السفن — وعلى أية حال فإنه لايذكر عدد السفن وهو يستعرض الأسطول فى مواضع أخرى . ويبين بعد ذلك فى معرض وصفه لسفن « فيلوكتيتس » أنه لم يـكن ثمة فرق بين البحارة والمحاربين ، إذ أنه اعتبر من يقوم بالتجديف رامياً للسهام . وليس من المحتمل أن يـكونوا قد نقلوا ركاباً كثيرين فيما عدا الملك والضباط العظام — ولاسيا عند ما كان عليهم أن يبحروا هم أنفسهم ومعهم عتاد الحرب عبر البحر المـكشوف ، وكان هذا يتم على سفن دون سطح مـكشوف ومبنية على أسلوب القراصنة البدائى . وإذا ما أخذنا المتوسط بين أكبر رقم للسفن وأصغر رقم ، فإن الرقم الناتج لجملة القوات سوف لايبدو كبيراً ، مع العلم بأنه يمثل الحملة المشتركة من مجموع أجزاء هيلاس .

ولم يكن سبب هذا هو الضعف فى القوى البشرية بقدر ما كان الضعف فى القوى المالية . وقد أدت صعوبات أجهزة التموين إلى جعل عددهم بالقدر الذى يكفى

---

(١) وذلك عن طريق توحيد عدد من القرى المبعثرة فى مركز حضارى واحد ، وهذه العملية كانت بمثابة النشأة التاريخية لعاصمة الدولة الهلينية . (المحقق) .

لغزو البلد ، وحتى عندما فرضوا سيادتهم فى الميدان بعد أن رسوا على البر ، (وذلك ما كان يجب أن يفعلوه ، وإلا فإنه لم يكن فى مقدورهم تحصين معسكرهم) يبدو أنهم لم يستخدموا قواتهم بأسرها فى العمليات ، إلا أن هذه الصعوبات التموينية قد اضطرتهم إلى أن يعودوا لممارسة الزراعة (فى شبه الجزيرة[١]) وأن يعودوا إلى القرصنة . وقد ساعد هذا التشتيت فى قوتهم الطرواديين ، الذين كانوا نداً لقوة الهلينيين الحربية فى أية لحظة ، على أن يصمدوا أمامهم طيلة عشر سنوات بينما لو جلب الهلينيون الإمدادات معهم وأبقوا على قواتهم فى حالة عمل مستمر ، دون أن يشتتوها فى القرصنة والزراعة ، يضاف إلى ذلك تفوقهم فى الميدان ، لكان من اليسير عليهم أن يستولوا على طروادة . غير أن الذى حدث ، هو أنهم أبقوا على قواتهم مع وضع قسم منها فى الجبهة طالما كان هذا كافياً . وعلى ضوء الظروف الحديثة ، كان يتعين عليهم أن يقيموا حصاراً منظماً ويستولوا على طروادة فى فترة ومتاعب أقل . وأيما كان الأمر ، فإن نقص القوى المالية لم يكن نقطة ضعف الفترات السابقة فحسب بل نقطة ضعف الحرب الطروادية ذاتها ، والتى ثبت أنها أقل فى الحقيقة من شهرتها التى حظيت بها أكثر من أى حرب سابقة ، وقياساً إلى الشهرة التى حظيت بها فى الشعر . وبقى العالم الهلينى ، حتى بعد الحرب الطروادية معرضاً للهجرة وتكرار الاستيطان اللذين حالا دون التطور المستقر . وقد أدى تأخير عودة قوات الحملة إلى عدم استقرار كبير، واجتاحت الثورات معظم الولايات، وأقام اللاجئون ولايات جديدة . وبعد سقوط طروادة بستين عاماً طرد « التساليون » « البيوتيين » الحالين من (آرن) Arne واحتلوا مايعرف الآن ببيوتيا، وإن كان من المألوف أن يطلق عليهم « القدميس »[٢] Kadmeis . وبعدها بثمانين عاماً ، هزم الدوريون بقيادة خلفاء هرقل البيلوبونيزيين . وأخذت (هيلاس) تهدأ ولكن فى ألم وبطء شديدين إلى أن أصبحت مستقرة استقراراً تاماً وشرعت فى إقامة المستعمرات. وقد استعمر الأثينيون (أيونيا) ومعظم الجزر،

---

(١) شبه جزيرة جاليبولى Gallipoli (المحقق) .

(٢) استقر فرع منهم بالفعل هناك وأرسل حامية بيوتيا إلى طروادة (المؤلف) .

واستعمر البيلوبونيزيون (إيطاليا) وصقلية وأماكن قليلة خارجها . ويبدو أن جميع عمليات الاستعمار هذه كانت متأخرة عن الحرب الطروادية .

وما إن أصبح العالم الهليني أكثر قوة وثراء عما كان عليه ، حتى قامت[1] حكومات أرستقراطية مستبدة ، وتزايدت الدخول العامة ، وبنت هيلاس أساطيلها واتجهت نحو البحر بعزم أكبر . ويقال إن (الكورينثيين) Corinthians هم أول من استخدم وسائل البحرية الحديثة ، وإن السفن الحربية[2] قد تم بناؤها فى (كورينثا) Corinth قبل أن يتم بناؤها فى هيلاس . ويبدو أن الساميين Samians كان لديهم أربع سفن بناها لحسابهم صانع السفن الكورينثى « أمينوكليس Ameinocles ، الذى ذهب إلى (ساموس) Samos قبل انتهاء الحرب الأخيرة بحوالى ثلاثة قرون . ووقعت أقدم معركة بحرية معروفة بين الكورينثيين والكوركيريين Cörcyraeans حوالى عام ٢٦٠ قبل التاريخ المذكور. وكان لموقع كورينثا على البرازخ أكبر الأثر فى جعل التجارة بأيدى سكانها منذ أقدم العصور ، لأن اتصالات الهلينيين ببعضهم البعض داخل بيلوبونيزيا وخارجها كانت أصلاً على اليابسة أكثر منها فى البحر ، ومن ثم عبر إقليم كورينثا . وقد ملك الكورينثيون سلطان المال ، كما هو ثابت فى قصائد الشعراء الأول الذين يشيرون إلى كورينثا بكلمة (الثروة) ، وعندما أصبحت الملاحة أكثر انتشاراً بين الهلينيين، أصبح للكورينثيين أسطولهم ، وأصبحوا سادة القرصنة ، وأقاموا سوقاً لنتاج البحر تماما كتجارة البر، وبسطوا نفوذهم بفضل مواردهم ، ثم قام « الأيونيون » بتطوير أسطولهم فى عهد «سيروس الأول» Cyrus ملك فارس Persia وابنه «قمبيز» Cambyses. وفى حروبهم مع « سيروس » سيطروا على مياههم لفترة من الوقت . وفى حكم « قمبيز » أصبح « بوليكراتيس Polycrates سلطان ساموس صاحب سلطة بحرية فأخضع عدداً من الجزر — بما فيها (رهينيا) Rheneia التى

---

(١) كانت هناك من قبل ملكيات مستبدة ذات امتيازات ثابتة (المؤلف) .

(٢) سفن حربية ذات قوة مجاديف تبلغ ثلاثة أضعاف النوع القديم (المحقق) .

أهداها إلى « أبولو » فى (ديلوس) ، وهزم الفوكيون القرطاجيين فى البحر حينما كانوا يقيمون مستعمراتهم فى (مرسيليا) Merseilles . تلك كانت أقوى الأساطيل الموجودة وقت ذاك ، وحتى هذه الأساطيل ، برغم أن تاريخها يمتد إلى عدة أجيال بعد الحرب الطروادية ، فإنها على ما يبدو قد استخدمت سفناً حربية قليلة كانت لا تزال تتكون من خمسين مجدافاً ، وقوارب طويلة مثل أساطيل فترة الحرب الطروادية . وإن هى إلا فترة قصيرة قبيل الحرب الفارسية ووفاة « داراً Darius .. خليفة « قمبيز » حتى بنيت السفن الحربية فى عدد لا بأس به على أيدى الحكام المستبدين فى صقلية وعلى أيدى الكوركيريين ـ وهى آخر الأساطيل الهامة التى وجدت فى العالم الهليني قبيل حملة « كسركسيس » Xerxes . وقد كان لدى « الأيجنتيين » Aeignetans والآثينيين ، وآخرين سفن قليلة كانت فى الغالب من ذات الخمسين مجدافاً ، وفى إحدى فترات التاريخ المتأخرة نسبياً حث « ثيميستوكليس» Themistocles الأثينيين ، وقت أن كانو ا فى حرب مع « أيجنيا » Aegina ، على أن يبنوا السفن التى حاربوا بها فعلاً ـ وهى سفن ، كانت زيادة على ذلك ما تزال دون ظهر مكشوف ، وكان غزو الشرق على وشك أن يقع .

هذا هو تاريخ الأساطيل الهلينية فى أزمنة متقدمة ومتأخرة . وبذات الوقت، فإن الأمم التى زادت من الاضطرابات أحرزت سلطة لا بأس بها فى الدخل المالى والرقعة الخارجية . لقد غزوا الجزر وهزموها خاصة تلك المناطق التي لم يكن أهلها يعتمدون على أنفسهم . ومن جهة أخرى ، لم تحدث أية حرب نتيجة لتركز السلطة على البر ، كتلك الحروب التى حدثت بين سكان الحدود . ولم يقم بعد الهلينيون بحملات عسكرية بعيدة لغزو دائم ، لأن اكبر الولايات لم تكن قد أخضعت بقية الولايات ، بينما لم تقم الوحدات المستقلة بحملات مشتركة على قدم المساواة . ولم يكن هناك سوى حروب محلية بين الجماعات المتجاورة . أما الحرب المبكرة بين (خالكس) Chalcis و (إرتريا) Eretria فقد كانت أول بادرة مهدت للانقسام العام فى العالم الإغريقى إلى معسكرين ، واصطدم تطور الدول المختلفة بعدئذ بعقبات متباينة ، وأحرز الأيونيون تقدماً

ملحوظاً عندما هاجمهم «سيروس» والملكية الفارسية ، بعد هزيمة « كرويسوس» Croesus والبلدان الواقعة غربى نهر (هاليس)[1] Halys وانتقصوا من مساحة دولهم على اليابسة . وبعد ذلك أقام « دارا » من نفسه سيداً على الجزر ، بمساعدة الأسطول الفينيقى . وقد أسهم الطغاة المختلفون الذين نشأوا فى الدول الهلينية ، وكانت نظرتهم الأنانية محصورة فى تأمين راحتهم الشخصية وثروات عائلاتهم ، فى السلام بقدر ما استطاعوا فى سياستهم الخارجية . ولهذا لم تحدث أية عواقب هامة ، خلاف ما كان يقع باستمرار بين الجماعات فى قطاعهم المحلى . وقد نشأت أقوى الدول على أيدى جبابرة صقلية . وهكذا كان العالم الهليني خاضعاً لفترة طويلة للضغط من كل اتجاه ، مما حال دون أى عمل مشترك واضح ، وألقى بالدول المنعزلة فى سلبية مهينة .

وأيما كان الأمر ، فقد أطاح الإسبرطيون[2] بغالبية عتاة أثينا وبقية مدن هيلاس (حيث كانت الحكومات المطلقة سائدة لفترة من الزمن) — وعلى وجه الدقة أطاحوا بآخر هؤلاء الحكام ماعدا حكام صقلية — ولم تمض سنوات طويلة بعد الإطاحة بهم حتى نشبت معركة (ماراثون) Marathon بين الفرس والأثينيين. وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ سار « دارا » بجيشه العظيم للمرة الثانية نحو هيلاس كى يستولى عليها . وسيطر الإسبرطيون فى هذه الأزمات على حلفائهم باعتبارهم أقوى دولة هلينية ، بينما قابل الأثينيون الغزو الفارسى بالتخلى عن مدينتهم والجلاء عنها على السفن التى كانوا قد أعدوها فى البحر . ولم يتم وضع حد لدارا بالجهد المشترك . وما كاد الهلينيون يتحررون من فارس حتى انقسم حلفاء الأمس إلى معسكرين أحدهما تتزعمه إسبرطة والثانى أثينا ، أقوى دولتين ظهرتا فى ذلك

---

(١) كويزيل يرماك Qyzyl Ermaq (المحقق)

(٢) بعد تاسيس إسبرطة على أيدى سكانها الدوريين الحاليين ، تمزقت بفعل الاضطرابات الداخلية لعدة سنوات متقطعة ، ولكنها كانت أيضاً رائدة الإصلاح ولم تقع فى قبضة طاغية على الإطلاق. وعاش الإسبرطيون لمدة أربعة قرون تحسب منذ نهاية الحرب الأخيرة ، عاشوا فى ظل الدستور نفسه الذي منحهم سلطة التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى . (المؤلف)

الوقت — إحداهما فى البر والأخرى فى البحر . وبعد أن كان العمل مشتركاً بين الجيوش لفترة وجيزة ، تنازع الإسبرطيون والأثينيون وانطلقوا للقتال ، كل فريق بحلفائه ، وانحازت الدول الإغريقية الأخرى التى تنازعت منذ ذلك الحين ، إلى هذا الفريق أو ذاك . ومنذ الحرب الفارسية حتى الحرب الأخيرة ، تعاقبت المهادنات والحملات بشكل دائم (يتصارع فريق مع الفريق الآخر ، أو يحدث صراع مع المنشقين بين صفوف حلفاء كل فريق) ، مما أدى إلى إتقان تسلحهم وتحسين تكتيكهم الحربى بالتدرب على القتال المباشر . ولم يفرض الإسبرطيون على حلفائهم الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية أن يسهموا بالمال بل التزموا أمامهم بتأمين حكمهم لصالح إسبرطة حسب لائحة محددة . وسيطر الأثينيون تدريجياً على أساطيل الولايات الكونفدرالية فيما عدا (خيوس) Chios و (ليسبوس) Lesbos ، وفرضوا ضريبة سنوية محددة عليهم جميعاً ، مما أدى إلى أن تصبح الأسلحة المحلية التى كانت فى حوزتهم فى بداية الحرب الأخيرة ، تفوق أقوى أسلحة كانت فى أيدى الاتحاد عند بدايته .

هذه هى نتائج أبحاثى عن الماضى — وإن كان من العسير فى هذا المجال أن نعتمد كل دليل بصورته التى يرد بها إلينا . وإننا نقبل الروايات التاريخية ، بما فيها تلك التى تتعلق بالأحداث المحلية ، بنفس الافتقار إلى النقد الذى لا يتغير من عقل إلى آخر . وتتصور غالبية الشعب فى أثينا أن « هيبارخوس » Hipparchus كان طاغية حينما اغتاله « هارموديوس » Harmodius و « أرستوجيتون » Aristogeiton ، ولم تتأكد من أن « هيبياس » Hippias خلف والده « بزيستراتوس» Peisistratus بمقتضى حق الوراثة ، وأن « هيبارخوس » و « تسالوس » Thessalus مجرد إخوة له . وسبب هذا ، أنه يوم محاولة الاغتيال خشى « هارموديوس » و« أرستوجيتون » فى آخر لحظة ، أن تكون الخطة ، قد تسربت بواسطة زملائهم فى المؤامرة إلى «هيبياس» ، فلم ينفذوا قتل «هيبياس» على زعم أنه قد اكتشف الخطة . وبينما هما يتوقعان إلقاء القبض عليهما بين لحظة قررا ألا يضحيا بنفسيهما سدى ، فاغتالا « هيبارخوس » أثناء انشغاله بعمل

الترتيبات لموكب (البانأثيناى)* فى حرم (الليوكريوم) Leocureum . وقد تنطمس ذكريات الماضى بمضى الزمن ، إلا أن أنظمة كثيرة كانت قائمة قد أساء فهمها العالم الهليني بأسره . فمثلاً كان يشيع الظن ، بأن لكل ملك من ملوك إسبرطة صوتان انتخابيان بدلاً من صوت واحد ، وأنه كان هناك ما يسمى (كتيبة بيتان) Pitane Battalion — وهى وحدة لم توجد قط . وقد عانت أغلبية الشعب بعض الآلام فى البحث عن الحقيقة وهى على استعداد لقبول الرواية الأولى التى تفرض نفسها . ومازال من المضمون استخلاص النتائج التى استخلصتها أنا من الدليل الذى سردته بعكس ترهات الشعراء المبالغ فيها أو المسلية أكثر من المؤلفات الدقيقة التى يقوم بها علماء السلالات. ولا توجد فى الحقيقة، أية وسائل تؤكد موضوعاً له مثل هذا القدم ويمكن بواسطتها شق الطريق بين الروايات الغامضة . وربما يكفى هذا القدر فى مثل هذا المجال مادامت هناك سمات بارزة . . أما الحرب الأخيرة فهى مسألة مختلفة . وإننى أدرك أن الناس خلال الحروب يعتقدون دائماً أنهم غارقون فى أعظم حرب عرفها التاريخ ، ثم لا يلبثون أن يعودوا يتغنون بالمجد الغابر بعد إقرار السلام ، ولو أن حقائق الحرب الأخيرة تنطق بذاتها وتبين أنها قد فاقت سابقاتها .

وفيما يتعلق بالأحاديث المختلفة التى ألقيت قبل الاعتداءات أو بعدها ، فقد وجدت أنه من العسير المحافظة على دقة الرواية الشفاهية فى الحالات التى كنت أنا فيها الراوى ، أما الأشخاص الآخرون الذين أخذت عنهم تقاريرى فقد نقلوها بدورهم عن غيرهم ممن عاشوا التجربة ذاتها . وكان منهجى هو أن أعيد صياغة ما يصلنى باللغة التى تبدو لى أنها الأرجح والأكثر ملاءمة لكل مقام . بينما أحافظ بإخلاص وبقدر المستطاع على المعنى العام للحديث الذى ألقى فعلاً . أما فيما

---

* كان هناك فى بادئ الامر احتفال دينى يقام إجلالا للالهة (أثينا) حامية مدينة أثينا. ولما أصبحت البلاد كلها تحت حكومة واحدة صار الاحتفال بإلهة مدينة أثينا عيداً للدولة بأسرها وتغير الاسم القديم (أثينى)، إلى (بانأثينى). ويلاحظ أن المقطع الأول (Pan) معناه كل أو جميع (المترجم العربى).

يختص بوقائع الحرب المادية ، فإننى لم أكن راضياً عن اتباع المخبرين الرسميين أو تصورى الخاص . وفى المواضع التى لم أكن فيها شاهد عيان بنفسى ، تحريت بأكبر دقة بالغة ممكنة كافة التفصيلات التى وصلتنى عن طريق ناقلى الروايات ، وكان ذلك عملاً مضنياً لأن شهود الأحداث الخاصة ذاتها قد قدموا روايات اختلفت باختلاف مشاعرهم الذاتية أو أولياء نعمتهم . وقد يجد الجمهور فى روايتى جفافاً لا يستسيغونه ، إلا أنى سأكون راضياً ، إذا ما قوبل عملى بالرضا من جانب القراء الذين يضعون نصب أعينهم دقة المعلومات فى الوقائع التى لم تحدث فحسب، بل التى يمكن أن تحدث مرة أخرى فى أى احتمال بشرى . لقد حاولت دائماً أن أسهم فى المعرفة أكثر من أن أقوم بعمل من أعمال البطولة .

لقد كانت الحرب الفارسية أعظم حرب قبل الحرب الأخيرة ، وقد وقعت فور الاشتباك فى البحر والبر مرتين . إلا أن الحرب الأخيرة استغرقت فترة طويلة ورزأت هيلاس بكوارث ليس لها مثيل فى أية فترة تاريخية سابقة . ولم يحدث أن سقطت مدن أو دمرت بهذه الكيفية من قبل على أيدى غير الهلينيين والمحاربين الهلينيين أنفسهم(١)، ولم يحدث أن طرد الناس من بيوتهم أو ذبحوا بهذه الصورة سواء فى الحرب ذاتها أو فى الاضطرابات الأهلية . وفضلاً عن ذلك فإن أحداثاً مروعة وقعت على نطاق واسع وكان لها سوابق مماثلة وإن كانت قليلة . . كالهزات الأرضية التى حدثت بدرجة من المدى والعنف لا مثيل لها ، وتكرار حالات كسوف الشمس التى لم يحدث لها مثيل . وهناك أيضاً أحداث القمع المحلية القاسية والمجاعات المتكررة ، وأحد هذه الكوارث الفظيعة الطاعون ، الذى أدى إلى نقص عدد السكان . كل ذلك وكأن الحرب كانت بمثابة إشارة البدء لهجوم سائر قوى الطبيعة تلك .

وكان نشوب الحرب يعنى نقض السلام الذى دام ثلاثين عاماً والذى عقده الأثينيون والبلوبونيزيون بعد قهر (يوبويا)(٢) Euboea . وسوف أدلى برواية

---

(١) هناك حالات حدث فيها تغير فى السكان عقب سقوط المدن (المؤلف)

(٢) وقعت من جانب الأثينيين في عام ٤٤٦ ق م (المحقق) .

أولية عن المنازعات التى أدت إلى نقض السلام ، حتى لا يفوت القارئ ما يجب عليه إدراكه عن كيفية انزلاق الهلينيين إلى مثل هذا الصراع المروع . وفى رأيى ، أن ما دفعهم إلى امتشاق الحسام ، هو هذا الخوف الذى بثه الأثينيون فى قلوب الإسبرطيين نتيجة لحشودهم العسكرية ، وهو السبب الذى أعتبره صورة رئيسية فى الروايات الرسمية .

تاريخ الحرب البيلوبونيزية

(الجزء الثـــانى)

(نص أكسفورد ، تحقيق ستيوارت جونز Stuart—Jones الـكتاب الخامس . الفصول ٢٥ — ٢٦) .

بعد أن انتهت مفاوضات المعاهدة والتحالف بين (إسبرطة) و (أثينا) ؛ والتى انتهت بمقتضاها حرب السنوات العشر[١] ، ألقى الموقعون أنفسهم فى سلام[٢] . ولـكن (كورينثا) ودولاً أخرى من البيلوبونيز بدأت فى تقويض دعائم الاستقرار، على نحو جعل إسبرطة تغرق فى مشاكل جديدة مع حلفائها . وأصبح الإسبرطيون بمضى الزمن ، يرتابون بدورهم فى الأثينيين ، لأنهم أخفقوا فى تنفيذ نصوص معينة من شروط الاتفاقية. حقيقة أنهم أحجموا طيلة الست سنوات والنصف الأولى، عن غزو أى إقليم من الأقاليم الأخرى، إلا أنهم لم يفوتوا فرصة لإنزال الضرر أحدهما بالآخر فى ميادين أخرى . وظلت الهدنة مزعزعة ، حتى جاءت ظروف دفعت بهم فى النهاية إلى تعـكير صفو السلام الذى عقد بعد السنوات العشر الأولى وتحول إلى عداء مـكشوف .

---

(١) ٤٣١ — ٤٢١ ق م (المحقق) .

(٢) فى بليستولاس Pleistolas وهو عام مجلس الحـكم في إسبرطة و (السكايوس) في أثينا .

وقد كتب ثوكوديديس الأثيني ، تاريخ الطور الثاني من الحرب — في تعاقب زمني بين الشتاء والصيف ، إلى يوم أن أطاح الإسبرطيون وحلفاؤهم بالإمبراطورية الأثينية ، ثم احتلوا (الجدران الطويلة) Long Walls ، و(بيرايوس)[1] Peiraeus . وتبلغ فترة استمرار الحرب حتى هذا التاريخ سبعاً وعشرين سنة بما فيها فترة الهدنة التي يعتبر إسقاطها من الحساب خطأ . وإذا كان هناك قارئ لا يوافقني في هذا الرأي ، فما عليه إلا أن يفحص هذه الفترة في ضوء الحقائق حتى يتأكد من أن كلمة (السلام) لم تنطبق على فترة الهدنة . لأن كلا الفريقين لم يستعد أو يسترد كافة الأماكن المنصوص عليها في الاتفاقية ، ناهيك عن انتهاك السلم من جانب الفريقين في الحروب المانتينية Mantanean والأبيدورية Epidaurian وفي مناسبات أخرى ؛ ولم يكف حلفاء أثينا على ساحل تراقيا عن العدوان ؛ وعقد البيوتيون فقط هدنة على فترات متقطعة تبلغ كل فترة عشرة أيام في كل مرة . وإذا أدخلنا الحرب الأولى (التي دامت عشر سنوات) ، والهدنه المزعومة التي أعقبتها والحرب الثانية التي أنهت تلك الهدنة ، فإن مجموع السنوات ، إذا ما حسبت بالفصول ، تبلغ أقل من الرقم الذي ذكرته بأيام قليلة ، ومن الصدف فإن هذه الحادثة إنما تؤيد من يعتقد في الرجم بالغيب . إنني أذكر تماماً تكرار القول دائماً في دوائر عريضة ، منذ بداية الحرب إلى نهايتها ، بأن الحرب مقدر لها أن يطول أمدها إلى تسع سنين مضروبة في ثلاث . ولقد عشت خلالها جميعاً ، ولم أكن في سن من يدرك فحسب ، بل كنت أتجشم مشقة الوقوف على معلومات دقيقة . وقدر لي أن أنفى من بلدي لعشرين سنة بعد قيادتي في (أمفيبوليس) Amphipolis ، وفي هذا الموقف تمكنت من أن أرى شيئاً لدى كلا الجانبين — البيلوبونيزي والأثيني — وأن أعد دراسة حول الحرب في وقت فراغي . ويتعين علي الآن أن أسرد المنازعات التي أعقبت خاتمة حرب السنوات العشر الأولى ، ونقض المعاهدة ، وسير الحرب الثانية التي تلت ذلك .

---

(١) مات المؤلف ، لسوء الحظ ، قبل إتمام مشروعه (المحقق) .

بولوبيوس الميجالى

Polybius of Megalopolis

(٢٠١ — ١٢٠ ق . م)

تاريخ العــــالم

(نص توبنر Teubner تحقيق و . بتنر وبست W. Buttner—Wobst ؛ الكتاب الأول الفصول ١ — ٤) .

إذا ما كان المؤرخون السابقون قد أغفلوا تقريظ فنهم الخاص بهم ، فلقد كان من واجبى أن أنوه بإشارة عابرة عن الود الذى قوبل به هذا الفرع من الأدب . لأن معرفة الأحداث الماضية هى بمثابة المقوم الحقيقى للطبيعة البشرية. وأيما كان الأمر ، فإن هذا الواجب لا ينبغى أن يتم بشكل شاذ أو دون اكتراث . فهو من الناحية الفعلية الإشارة التى بدأ بها كافة المؤرخين تقريباً وأنهوا أعمالهم، حينما أطروا دروس التاريخ على اعتبار أنها أسلم تربية وتدريب للحياة السياسية ، وبدراسة تغير أحوال الآخرين باعتبارها أكثر المدارس فعالية ، أو أنها فى الحقيقة المدرسة الوحيدة التى تكتسب فيها الروح الحقة لتحمل تقلبات الحظ . وعلى هذا ، فمن الجلى ، أنه لا يلتمس العذر لأى مؤرخ يكرر ما يكون قد تردد أو قيل من قبل بشكل بارع ، وأقل هؤلاء طراً هو كاتب هذه السطور . فإن الأحداث التى اختارها مادة له هى بذاتها شاذة بما يكفى أن تثير وتوقظ انتباه أى قارئ صغر أو كبر . وأى عقل هذا الذى مهما بلغت تفاهته أو عدم اكتراثه لا يستشعر تطلعاً إلى تعلم تلك العملية التى كان من جرائها أن سقط العالم كله تقريباً تحت سطوة روما دون منازع خلال فترة أقل من ٥٣ عاماً ، أو لا يتطلع إلى أن يلم بالتنظيم السياسى الذى يعزى إليه هذا الانتصار — وهى ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجنس البشرى ؟ وأى عقل هذا الذى مهما خلبته مشاهد أو دراسات أخرى ، كان أمامه أن يجد مجالا للمعرفة أكثر فائدة من هذا المجال ؟

إن الطبيعة غير العادية والأهمية الفائقة للمشكلة التى يعنى بها عملنا هذا ، ربما اتضحت أكثر إذا عقدنا مقارنة نقدية بين سيادة روما وأكثر الإمبراطوريات شهرة فى التاريخ القديم والتى استحوذت على انتباه المؤرخين حتى الآن . وأصدق هذه الحالات هى : الفرس الذين امتد سلطانهم مدة من الزمن على إمبراطورية شاسعة ، ولكنهم منذ أن غامروا خلف حدود آسيا ، بدأوا يفقدون ، لا إمبراطوريتهم فحسب ، بل وجودهم أيضاً . والإسبرطيون الذين تولوا مركزاً قيادياً فى هيلاس بعد نزاع طويل الأمد ، وظلوا فى وضع لا نزاع فيه لعشرة أعوام فقط ، والمقدونيون Macedonians الذين أقاموا حكمهم فى أوروبا من الأدرياتيك Adriatic إلى الدانوب Danube (وهو قسم ليس بذى أهمية من تلك القارة كما يبدو لنا الآن) ، وضموا بعد ذلك رقعة آسيا بعد أن أطاحوا بالإمبراطورية الفارسية . كانت كل هذه إمبراطوريات شهيرة ومتسعة وقوية فى زمانها ، إلا أنها تركت بالفعل الجزء الأكبر من المعمورة خارج حدودها . ولم تسع أبداً إلى أن تنازع سيادة صقلية وسردينيا أو شمال أفريقيا ، وتجهل كذلك وجود معظم الشعوب التى تنزع إلى الحرب فى أوروبا وهى شعوب الغرب . ومن جهة أخرى فإن الرومان لم يخضعوا جزءاً من العالم فحسب ، ولكنهم أخضعوا العالم المعمور فعلاً ، وأقاموا دولة ذات شهرة لم تحظ بها الدول المعاصرة لها ، ولم يتيسر حتى للدول التى جاءت بعدها أن تطمع فى التفوق عليها . ومن أهدافنا هنا أن نلقى ضوءاً على هذه الظاهرة[١] وأن نبين الفوائد العديدة الهامة التى نقدمها إلى الدارسين الجادين لهذا الفرع العملى من التاريخ .

إن نقطة بداية هذا العمل من الناحية التقويمية هى الأوليمبياد[٢] Olympiad المائة والأربعون . وفيما يلى المعاملات الأولى المسجلة : فى هيلاس . هناك ما يطلقون عليه الحرب الفيدرالية ، التى بدأت بحلف عدائى ضد «الأيتوليين» Aetolians

---

(١) النص اليونانى لهذه الجملة متآكل (المحقق) .

(٢) استعمل بولوبيوس كلمة فنية خاصة للاشارة إلى مؤلفه .

(٣) كان الأوليمبياد يعقد دورياً كل أربعة أعوام ، يقاس بتكرار الألعاب الأوليمبية ، وبدأ الأوليمبياد المائة والأربعون فى الصيف الأخير من عام ٢٢٠ ق . م (المحقق) .

بين «الآخيين» Achaeans و«فيليب» Philip، ابن «ديمتريوس»Demetrius ووالد «برسيوس» Perseus ، وفى آسيا ، حرب جوف سوريا Hollow Syria بين« أنتيوخس »Antiochus و« بطليموس فيلو باتور » Ptolemy Philopator فى إيطاليا وشمال أفريقيا ، هناك الحرب بين الرومانيين القرطاجيين ، والتى تعرف عادة بالحرب الهانيبالية . وهذه المعاملات تلحق بآخر جزء مسجل فى مؤلف « أراتوس السيكونى » Aratus of Sicyon[1] . وفى الفترات السابقة وردت عمليات العالم المأهول فى أبواب مستقلة ، ووردت فيها المشروعات التى سعوا للقيام بها ، والنتائج التى أحرزوها والمراكز التى تشتمل عليها ، وردت فى شكل غير مترابط. إلا أنه منذ ذلك التاريخ فصاعداً والتاريخ يكتسب خاصية عضوية فإن العمليات الخاصة بإيطاليا وشمال أفريقيا ، أصبحت تدرج ضمن عمليات هيلاس وآسيا ، وأصبحت كافة التيارات تتجه إلى هدف واحد . وهذا ألزم الكاتب بأن يبدأ عمله فى التاريخ المذكور آنفاً . فالكاتب ينظر إلى هزيمة القرطاجيين على أيدى الرومان فى الحرب الهانيبالية على أنها الخطوة الحاسمة فى مسعى الرومان للسيطرة على العالم. وما إن تمت هذه الخطوة حتى تجاسروا ليمدوا أيديهم إلى بقية العالم ويخولوا لأنفسهم حق التدخل العسكرى فى هيلاس وآسيا .

وإذا ما كانت مجموعتا الدول اللتان تتنازعان سيادة العالم فى هذه الحرب مادة لمعرفة شائعة، فربما يكون من نافلة القول أن نزج بقسم تمهيدى نشرح فيه السياسة والموارد التى أوحت اليهم أن يباشروا مشروعات ضخمة كهذه .. وأيا كان الأمر فإن الموارد السابقة وتدابير الدول الرومانية والقرطاجية كانت بالفعل غير مألوفة لدى أغلبية الشعب الهلينى بحيث يبدو من الضرورى أن نقدم لهذا التاريخ بمجلدين تمهيديين[2] وهذا من شأنه أن يضمن ألا يجد أى قارئ نفسه فى بداية روايتى

---

(١) هو السياسى الهلينى البارز فى عصره ٢٧١ — ٢١٣ ق . م (المحقق)

(٢) إن المجلد ، وهو فى أصله ومعناه الحرفى عبارة عن لفة من ورق البردى أو الجلد ، كان وحدة أصغر بكثير من المجلد الغربى الحديث المطبوع (المحقق) .

الرئيسية دون إجابة على سؤاله : أية سياسة كانت فى أذهان الرومان ، وأية موارد عسكرية واقتصادية كانت فى متناول أيديهم ، عندما شرعوا فى هذا المشروعات التى أدت إلى أن أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط بأسره وساحله أيضاً ؟ وسيوضح هذان المجلدان أن الوسائل التى كانت تحت أيدى الرومان قد استخدمت لخلق الدولة العالمية والإمبراطورية العالمية بالصورة التى حققوها ، وذلك بشكل يدعو للإعجاب .

ويعتبر الاتفاق الذى ساق كافة تدابير العالم فى اتجاه واحد ووجهها نحو هدف واحد ، هو الخاصية الشاذة للعصر الراهن ، وتعتبر القسمة الخاصة للعمل الراهن نتيجة لهذا الاتفاق . وتفرض وحدة الأحداث على المؤرخ وحدة مماثلة من التأليف عندما يصور لقرائه عملية قوانين الحظ على مدى واسع ، وكان هذا هو الباعث الرئيسى المنبه لى فى العمل الذى أخذته على عاتق . وإلا لكان من شأن هذا المجال أن يثبت جاذبية أقل لطموحى. والذى حدث هو أن الحروب المحلية وبعض التدابير المرتبطة بها قد تناولها عدد من المؤرخين ، بينما لا يوجد مؤرخ واحد ، على ما أعلم ، حاول أن يفحص ، من وجهة النظر العامة ، العلاقات الداخلية لتتابع الأحداث وأصولها ونتائجها . وقد جعلنى يقينى هذا أشعر بالضرورة المطلقة لعدم إغفال أكثر إجراءات الحظ جدارة بالإعجاب والتى لها دلالة تثقيفية أو المرور دون تعليق واحد عليها . إن الحظ وهو ذلك الثورى الجبار ، الذى جعل من حياة البشر قطع شطرنج فى يديه ، لم ينجز من قبل عملاً بطولياً مثيراً للدهشة كهذا العمل الذى قام به لصالح جيلنا . إلا أن الموضوعات التى دبجها المؤرخون المتخصصون لا تقدم أى إشارة للصورة الكاملة ، وإذا ظن أى قارئ أن معاينة البلدان الرئيسية ، كل بمعزل عن الآخر ، أو بالأحرى ، أن تأمل تواريخها المحلية كل على حدة ، من شأنه أن يقدم له صورة سريعة للعالم فى ترتيبه ووضعه العام ، فإننى أرى من واجبى أن أسارع بفضح مغالطته هذه ، لأننى أعتقد أن الإصرار على القول بأن الدراية بالتاريخ المحلى تقدم نظرة متزنة عن الظاهرة بأسرها ، أمر خاطئ كخطأ الظن بأن تأمل عضو من أعضاء الجسم ، يعادل الملاحظة المباشرة للكائن نفسه بكل ما فى

الحياة من طاقة وجمال . وإننى لأتصور أن أى إنسان يتمسك بمثل هذا الوضع عليه أن يقبل تواً جسامة خطئه المضحك ، فى تصوره أن ساحراً ما بوسعه أن يكشف له سر الكائن ، بضربة واحدة ، فى مثل كمال شكله الأصيل وفيض حيويته . حقيقة أن الجزء قد ينبىء ويقدم لمسة عن الكل ، إلا أنه ليس من الممكن أن يقدم معرفة دقيقة ومؤكدة عنه ، يستدل من هذا أن الإخصائيين قد أسهموا بالنزر اليسير نحو فهم حقيقى لتاريخ العالم . فإن دراسة الاتصالات العامة والعلاقات والمماثلات العامة والاختلافات العامة هى الطريق الوحيد لفهم عام ، وبغيرها لا يمكن استخلاص فائدة أو متعة من البحث التاريخى .

تاريخ العالم

مقدمة المجلد التاسع

(نص توبنر تحقيق بتنر وبست الكتاب التاسع ، فصول ١ ـ ٢)

إننى ادرك أن هناك شيئاً ما لا يستساغ فى عملى ، على اعتبار أنه يوافق طبقة خاصة من القراء ، وأنه معرض للنقد بسبب رتابة أسلوبه . إن سائر الكتاب الآخرين تقريبـــاً ، أو غالبيتهم على أى تقدير ، يقدمون جميع فروع الكتابة التاريخية على اختلافها ، ولهذا فهم يجتذبون جمهوراً عريضاً يتصفح مؤلفاتهم . فمن يحب القصة يجذبه الجانب الخاص بالأنساب ، والعقول التواقة للاستطلاع والتمحيص تجذبها أبحاث أصول الدول، وقيام المستعمرات وموضوعات الأجناس البشرية كتلك التى نجدها عند « إيفورس Ephorus » ، فى حين تميل العقول ذات الاتجاه السياسى إلى ذلك الجانب الذى يعنى بأعمال الناس والدول والحكام . أما أنا فقد هيأت نفسى بوجه خاص إلى هذا الجانب الأخير ،وأنا إذ أجمع عملى كله حول هذا المركز الذى طاب لى ، أكون ، كما قلت ، قد جعلته يناسب طبقة

---

(١) ٤٠٥ — ٣٣٥ ق . م (المحقق) .

خاصة من القراء ، وذلك على حساب جعله مادة غير جذابة بالنسبة للغالبية . أما الأسباب التى حدت بى إلى نبذ الفروع الأخرى والتزام الجانب العملى ، فقد شرحتها بتفصيل واف فى مكان آخر . ويبدو أنه ليس هناك ما يحول دون إيجازها مرة أخرى حتى أؤكد الاتجاه وأفيد قرائى .

وحقيقة الأمر ، أن قصة علم الأجناس والأصول والأساطير والسلالات والاستعمار قد تعددت رواياتها من جانب كتاب كثيرين لدرجة أن أى مؤرخ يتناول القصة اليوم ، لا يجد مندوحة من أن يختار بين إعادة قول الغير على أنه قوله ، وهذا مسلك غير أمين بالمرة ، أو أن ينزع إلى تقرير حقيقة قائمة لاسبيل إلى إخفائها ، فيعترف صراحة بأن الموضوع الذى يبنى عليه أفكاره وبراعته الأدبية إنما قد تناوله من سبقوه بصورة وافيه . ولهذا السبب ولغيره من أسباب تخليت عن هذه الفروع من جهة واحتضنت الفروع الخاصة بالإجراءات العملية — فأولا ، لأن المادة الحديثة تتراكم دائماً وتتطلب تسجيلاً حديثاً (لأنه يستحيل منطقياً أن يخبرنا كتاب الماضى بمعاملات الفترات المتأخرة) ، وثانياً ، لأنه فرع تثقيفى أكثر من غيره . لقد كان هذا الأمر صحيحاً على الدوام ، إلا أنه لم يكن صحيحاً كما هو صحيح اليوم ، إذ أن تقدم المعرفة والتكتيك قد بلغ حداً أمكن معه تناول أى ظاهرة يكشف عنها تطور الأحداث تناولاً علمياً وبأيد خبيرة . ومن ثم لم أستهدف إمتاع القارئ العادى بقدر ما استهدفت تثقيف الدارس الجاد . وعلى هذا فقد آليت على نفسى أن أتمثل هذا الفرع وأن أهمل الفروع الأخرى . وسوف أجد أقوى دليل على إنصاف رأيى عند الدارس الواعى .

ديودورس الأجريومى

Diodorus of Agyrium

(٩٠ — ٢٠ ق. م)

مكتبة التاريخ العالمى

(نص تويبنر، تحقيق ف .فوجل F. Vogel الكتاب الأول الفصول ١ ــ ٥)

يستحق كتاب التاريخ العالمى شكر زملائهم ، واعترافهم بالفضل للروح التى يقدمون بها أعمالهم من أجل خير البشر. لقدا كتشفوا سر تقديم الثمار من التجربة دون عناء ، ولهذا لديهم معرفة ذات قيمة لا تقدر يقدمونها إلى قراء مؤلفاتهم . وإن المشاق والمخاطر لهى ضريبة الحكمة التجريبية التى تجلبها الحياة اليومية ، وإننا لنجد أن البطل الأسطورى الذى تعتبر خبراته ثمينة جداً ، عليه أن يتكبد المشاق المضنية من أجل ...

أن يرى مأوى أناس كثيرين
وأن يقرأ ما يجيش فى صدورهم

بينما نجد التاريخ قادراً على أن يقدم معلوماته دون آلام بتقديمه فكرة عن فشل الآخرين ونجاحهم . ونحن مدينون كذلك لهؤلاء المؤلفين لما بذلوا من جهد لتآلف سائر الجنس البشرى، الذى ينخرط أعضاؤه جميعاً فى نظام واحد عظيم ، رغم حواجز المكان والزمان . وهم فى مسعاهم هذا ،لم يعتبروا أنفسهم أكثر من خدام للعناية الإلهية . وقد ربط الله برعايته سير نجوم السماء وطبائع الناس فى نظام واحد ، وحفظها فى حركة دائمة إلى الأبد . وأعطى لكل واحد حظه المقسوم هذا، بينما يقوم مؤرخو العالم بتسجيل المعاملات العامة للعالم كما لو كان مجتمعاً قائماً بمفرده ،ويفضلون تدابير العناية الإلهية خلال القيام بعملية الفحص العظيم للتنظيم الداخلى .

وإنه لمن نعم الله علينا أن يعطينا الفرصة لتطوير أنفسنا بتحاشي أخطاء الآخرين، وفى كافة فرص هذه الحياة الزائلة وتغيراتها ، فإن المرء حر فى أن يكرر نجاح الماضى بدلاً من أن يكون مجبراً على تجربة مؤلمة فى الحاضر . وفى أمور الحياة العادية ، تعتبر أحكام الجيل الأكبر مقبولة دائماً من جانب الجيل الأصغر ، وذلك للخبرة التى حصل عليها ذلك الجيل على مر الزمن ، إلا أن المعرفة التى يقدمها التاريخ تفوق خبرة الأفراد فى قيمتها ، وذلك لتفوقها الواضح فى الدرجة والقيمة . وسوف تكون الفائدة الكبرى من هذه الدراسة موضع رضا عام بالنسبة لكل موقف معقول فى الحياة . ويفيد الصغار من هذه الدراسة عن طريق فهم الكبار ، وتتضاعف بفضلها تجربة الكبار إلى مائة ضعف ، وبفضلها يتحول عامة الناس إلى قادة ، والذين ولدوا ليتولوا مراكز قيادية يثيرهم خلود الشهرة التى تقدمها لهم هذه الدراسة فيقومون بمشروعات نبيلة ، وينبهر الجنود أيضاً بالمجد المرتقب مما يدفع بهم إلى المغامرة بحياتهم فى سبيل بلادهم . أما الآثمون فيقف فى وجوههم الخزى الأبدى الذى يتوعدهم به التاريخ جزاء دوافعهم الشريرة . وعلى العموم ،فإن فضائل التاريخ لقيت مجداً كبيراً ، حتى إن الأمل قد دفع بالبعض ليقوموا بتأسيس الدول ، وبالبعض الآخر كى يقدم قوانين تسهم فى أمن البشر ، وبالبعض الثالث كى يقوموا باكتشافات علمية وعملية أفاد منها الجنس البشرى كله . وتزايدت درجة السعادة الإنسانية نتيجة لكل هذه الجهود ، فينبغى والحال هكذا أن يعود المديح كله إلى التاريخ ، فهو السبب الرئيسى فى هذا كله . إذ يمكن القول بأن التاريخ وصى على الذين يريدون الاحتفاظ بالشهرة ،وهو الشاهد على الذين يفرطون فيها، وهو صاحب الفضل على الإنسانية بأسرها . حتى إن أسطورة الجحيم ،وهى خرافية تماماً، تعتبر أداة فعالة لتحويل قلوب الناس إلى البر ومخافة الله. وعلى هذا ،فبأى قدر من العظمة ، يجب علينا أن ندرك أننا القوة الفعالة عظيمة القدر بالنسبة للتاريخ ، نبى الحقيقة وينبوع الفلسفة ؟ وسر الطبيعة هى أن حياة الأفراد جزء ضئيل جداً من الأبدية إذا ماقورنت بالزمن الذى يجىء وهم غير موجودين فيه أما أولئك الذين لم ينجزوا مايستحق الذكر فى حياتهم ، فإن موت الجسد يعقبه انقراض

وجودهم تماماً ، أما أولئك الذين أكسبتهم قدراتهم المجد ، فإن الثناء الذى يقطر من شفاه التاريخ القدسية ليؤكد ذكرى خلود أعمالهم . والشخص الحكيم هو من يجد فى الشهرة الخالدة بالطبع تعويضاً مجزياً عن المتاعب الزائلة . ومن المعروف تماماً أن « هرقل » Heracles قد كرس وقته كله الذى قضاه فى هذا العالم فى تحمل ثورى للمتاعب والأخطار المضنية المستمرة . ومن أجل هـذا كان ينبغى أن يحظى بالخلود باعتباره صاحب فضل على الجنس البشرى . كذلك القديسون الذين حازوا شرفاً بطولياً أو إلهياً ، مدينون جميعاً بـكل ماحصلوا عليه من مجـد إلى الخلود الذى جعل التاريخ يتفرغ لـما حققوه . أما سائر الذكريات الأخرى فهى زائلة وعرضة للتلف تحت ظروف كثيرة ، إلا أن التاريخ ، الذى يمتد سلطانه على العالم ، وجد فى الزمن متلافاً كبيراً ، وحارساً فى الوقت ذاته لتراثه الدائم من أجل الأجيال القادمة .

والتاريخ معلم البلاغه ، وموهبة المواهب ، فالبلاغة تجعل الهلينى فى مرتبة أعلى من غير الهلينى ، والمتعلم فوق الجاهل ، وهى السلاح الوحيد الذى يمـكن رجلاً بمفرده من أن يتغلب على كثيرين . وعلى العموم ، فإن أية قضية تتوقف على مقدرة الرجل الذى يعرضها . إننا نطلق على الطيبين من الناس أنهم (جديرون بالذكر الطيب) بمعنى أنه الجزاء الذى استحقوه لقاء ما قاموا به . وفى الفروع العديدة التى تنقسم اليها البلاغة ، يقـدم الشعر المتعة أكثر من المنفعة ، والتشريع يتجه للعقوبة أكثر منه للتعليم . كذلك فإن الفروع الأخرى لاتسهم فى السعادة الإنسانية ولا تقدم محصولاً يجمع بين الحنطة والحشائش ، بل يخون بعضها الحقيقة . وليس فى التاريخ اتساق بين الحقائق ومعناها الحرفى فحسب ، بل هناك وحدة لـكل منفعة . انظر إلى ثماره وأنت تدرك أنه يهدف للصواب وينبذ الشر ويحبذ الخير ، وبعبارة موجزة ، يضيف إلى الذين يدرسونه الحكمة الإنسانية .

إن تأمل الإستحسان الذى قوبل به المؤرخون قد أثار فى حماساً مماثلاً للموضوع ، أولهمتنى دراسة من سبقونى فى هذا المضمار أقوى المشاعر للاتفاق معهم فى الهدف .

وأ كاد أشعر فى الوقت نفسه ، بأن إمكانيات المعرفة الزاخرة والكامنة قد تحققت فى أعمالهم . وتتوقف قيمة مثل هذه الأعمال بالنسبة للقارئ ، على درجة تمهيد أكبر عدد من الظروف وتباينها ، إلا أن معظم المؤرخين يقتصرون فى تسجيلاتهم على حروب متفرقة شنها أناس بعينهم أو دول بعينها ، بينما حاولت قلة منهم تسجيل أعمال الجنس البشرى منذ أقدم العصور حتى عصرهم . ومن هذه القلة أيضاً ، نفر اقتصروا على الأعمال التى قام بها العالم الهلينى . ورفض البعض أساطير الأقدمين على اعتبار أنها مادة صعبة . واختطف القدر البعض الآخر قبل أن ينجحوا فى إتمام برنامجهم الذى شرعوا فيه ، لدرجة أنه لا يوجد بين الذين وضعوا لأنفسهم برنامجاً محدداً بدؤا فيه فعلاً ، كاتب واحد واصل تأريخه إلى ما بعد عصر المقدونيين . وقد اختتم البعض تسجيلاته بأعمال فيليب . وتوقف آخرون عند « الإسكندر Alexander » وآخرون عند خلفاء الإسكندر فى الجيل الأول أو الثانى . ورغم أن الأعمال فيما بين التاريخ الأخير وجيلنا ، والتى تركت دون أن يقربها أحد ، عديدة وهامة ، فإن إتساع الموضوع قد منع أى مؤرخ من أن يحاول تناولها فى حدود عمل واحد . وترتب على هذا أن تبعثر تسجيل الأعمال التاريخية فى عدة مؤلفات كتبها مؤرخون متعددون وتناولوا فيها الفترات المتباينة. ولهذا كان من العسير أن تتحكم فى الموضوع كوحدة كاملة أو حتى تتذكره .

وبعد أن انتهيت من فحص مؤلفات مختلف الكتاب الذين سبقت الإشارة اليهم ، قررت أن أكرس جهدى فى موضوع تاريخى يجمع بين أكبر منفعة ممكنة مع أقل احتمالات إدخال الملل على القارئ . وقد وضح لى أن كل مؤرخ منهم بذل أقصى الجهد فى تعقب الأعمال التاريخية المسجلة عن العالم بأسره منذ أقدم العصور ، على أساس تناول الموضوع من ناحية واحدة . وبهذا ألقى على عاتقه عبئاً هائلاً ، إلا أن العمل الناجم عن مجهوداته فى الوقت نفسه ، كان من شأنه ، أن يؤتى ثماره لجمهور القراء ويعتبر مورداً غنياً يستطيع كل واحد أن ينهل منه ما يروى ظمأه دون مشقة . والقراء الذين يحاولون أن يتلمسوا طريقهم وسط تيه الأعمال التاريخية القائمة ، يواجهون فى المحل الأول ، صعوبة الحصول على مداخل للكتب اللازمة

ويجدون ، فى المحل الثانى ، أن سيادة الأحداث تتوه منهم فى أشتات المؤلفات المنشورة المتشعبة . ومن جهة ثالثة ، فإن تناول الموضوع كوحدة يسهل المهمة على القارئ وذلك بتزويده برواية مستفيضة ،يسهل التحكم فيها . ومجمل القول ، فإن تفوق هذا الفرع من التاريخ على بقية الفروع يقدر مثلما تقدر منفعة الكل الفائقة بالنسبة إلى الجزء ، وبمنفعة الدوام بالنسبة إلى عدم الاستمرار ، فضلاً عن فوائده فى إيجاد تقويم دقيق للروايات التى لا يكاد يظهر منها أكثر أدلة التاريخ غموضاً .

وانطبع فى نفسى أيضاً مدى الفائدة من عمل يحتذى النهج السابق ذكره رغم التضحية بالجهد والوقت اللازمين ، وعلى ذلك فقد كرست ثلاثين عاماً لهذه المهمة ، تعرضت خلالها لمتاعب ومخاطر لا بأس بها فى القيام برحلات طويلة فى آسيا وفى أوروبا أيضاً . وقد قررت أن أقف بنفسى على أكثر الأماكن ، على الأقل الهامة منها ، لأن الافتقار إلى معرفة خصائص الأماكن ضلل دائماً الكتاب الذين هم فوق المستوى العادى ، أو حتى بعض من ذاع صيته منهم . وكان رأسمالى الوحيد لتنفيذ مشروعى هو حماس للعمل — تلك الروح التى مكنت الطبيعة البشرية من فعل المستحيلات الواضحة — يلى ذلك ، مواد دراسة موضوعى التى تتوافر فى روما . إن تفوق روما وسلطانها الذى يمتد إلى أقاصى الأرض ، قد وفر لى خلال الفترة الطويلة التى أقمت فيها هناك مصادر لا تحصى وتسهيلات . أما موطنى (أجيريم) فى صقلية ، واتصالى بالمستوطنين الناطقين باللاتينية فى الجزيرة ، فقد جعلنى أجيد اللغة اللاتينية إجادة تامة ، ولهذا استطعت أن أستخلص معلومات دقيقة عن كافة المعاملات الرومانية من السجلات المحلية ، التى كانت محفوظة منذ تاريخ مبكر . واتخذت الأصول الأسطورية للعالمين الهلينى وغير الهلينى ، نقطة بداية لتاريخى ، حسب الروايات المتباينة التى لم أدخر وسعاً فى الإفادة منها .

والآن وقد تم برنامجى ، قبل أن أعرض نتائج جهودى على الملأ ،

---

(١) كانت اللغة السائدة فى صقلية حين ذاك (وحتى القرن الحادى عشر بعد المسيح) هى اللغة اليونانية (المحقق) .

ينبغى أن أمهد لها بجدول صغير يحتوى على العمل كوحدة قائمة بذاتها . فمجلداتى الستة الأولى تحتوى على أعمال وأساطير سابقة على الحرب الطروادية — المجلدات الثلاثة الأولى غير هلينية ، بينما تزخر غالبية المجلدات الباقية بتاريخ هيلاس القديم. وسجلت فى المجلدات الأحد عشر الأعمال العامة للعالم منذ الحرب الطروادية حتى موت الإسكندر ، بينما أتيح لى فى المجلدات الثلاثة والعشرين التالية أن أسجل سائر الأعمال بين ذلك التاريخ وبداية الحرب الكلتية ـ الرومانية Celto — Roman التى حطم فيها « جايوس يوليوس قيصر » Gaius Julius Caesar ، قائد القوات الرومانية التى أحرزت له شرفاً قدسياً ، مقاومة غالبية الشعب الكلتى (بما فيها معظم المحاربين) ، وبسط سيادة روما حتى الجزر البريطانية . وقد تمت العمليات الأولى لهذه الحرب فى السنوات الأولى للأولمبياد المائة والثمانين ، وفق السنة التى حكم فيها « هيرودس » Herodes فى أثينا .

كانت تلك هى الأبعاد الزمنية لعملى ، إلا أننى لم أسع إلى تقويم محدد لأحداث ماقبل الحرب الطروادية ، طالما لم تقع فى يدى أية قائمة تحتوى على تواريخ لهذه الفترة يمكن أن يوثق بها . وفيما بين الحرب الطروادية وعودة « بنى هرقل » حذوت حذو « أبولودورس » Apollodorus الأثينى فى افتراضه فترة ثمانين عاماً ، وأن الفترة بين التاريخ الأخير والأولمبياد الأول قدقدرت بثلاثمائةوثمانيةوعشرين عاماً ، قام فيها حكم ملوك إسبرطة Sparta ، فى حين أن الفترة بين الأولمبياد الأول وآخر تاريخ لعملى ، هو بداية الحرب الكلتية ، تقدر بسبعمائة وثلاثين عاماً ينبغى أن توضع فى الاعتبار . لذلك فإن الأربعين مجلداً التى تشتمل على عملى بأكمله تحتل فترة تقدر بـ ١١٣٨ سنة ، دون أن تدخل فيها الفترة التى حدثت فيها أحداث سابقة على الحرب الطروادية .

إن الهدف من هذه القائمة الدقيقة للمحتويات لم يقتصر على تقديم مفهوم لخطتى فحسب ، بل يمنع أيضاً تجار النشر عن ممارسة تشويه مؤلفات الغير . والجزاء الوحيد الذى أرجوه هو أن تجد الفقرات الناجحة فى مؤلفى قبولا كريماً وأن تجد

الأخطاء تصويباً من جانب قراء أكثر منى كفاية . فهذا يتمم برنامجى ، وما على الآن إلا أن أحاول إنجاز وعدى فأقدم العمل ذاته .

ديونوسيوس الهاليكارناسى

Dionysius of Halicarnasuss

(عرف فى النصف الأخير من القرن الأول ق . م)

تاريخ روما القديم

(نص تويبنر ، تحقيق ك . جاكوبى C . Gacoby الـكتاب الأول .
الفصول ١ — ٨)

أرانى ملزماً ، وهذا ا لا أرغب فيه كثيراً ، أن أقدم هذه الملاحظات الشخصية الأولية وهى سمة جد شائعة فى مقدمات الأعمال التاريخية . وأيما كان الأمر ، فإننى لا أنوى أن أسهب فى الحديث عن جدارتى ، لأننى أدرك تماماً أن الحديث فيها من شأنه أن يبعث السأم لدى قرائى ، كما لا أنوى الخوض فى النيل من زملائى الـكتاب ، على نحو ما فعل « أنا كسيمنيس » Anaximenes و « ثيوبومبوس » Theomopus فى مقدمات مؤلفاتهما التاريخية . أما الدافع عندى ، فهو ببساطة ، شرح الأسباب التى حدت بى شخصياً أن أباشر هذا العمل ، وأن أولى بعض الأهمية لمصادر معلوماتى . وأعتقد أن أى فرد يريد أن يترك للأجيال المقبلة بعض الذكريات تبقى بعد زوال وجوده المادى ، عليه أن يلتزم — بالدرجة الأولى ، ولاسيما كاتب المؤلفات التاريخية (ذلك الذى يقدس ما نعتقد أنه المبدأ الأول لـكل حـكمة وإدراك وهو الحق) — باختيار موضوع جيد ذى طبيعة سامية يفيد القارئ حقاً . ويلى ذلك فى الأهمية أن يولى هـــذا الـكاتب أقصى العناية والبذل لتزويد نفسه بالمصادر الصحيحة لمؤلفه الخاص . وهناك بالطبع مؤلفون دفعهم التعطش للشهرة إلى الضلال ، دون نظر إلى طبيعة هذه الشهرة أو المناسبات التى يعرضون فيها قدرتهم

الأدبية فى عمل من أعمال البطولة . وهناك من اتخذوا من أحداث شائنة أو سخيفة أساساً لعملهم . فمثل هؤلاء الكتاب لا يستحوذون على إعجاب الأجيال المقبلة بمعارفهم ولا يشتهرون بأعمالهم أو قدراتهم ، بل إنهم يتركون ، فى كل عقل يدرس مؤلفاتهم ، انطباعاً مؤداه أن أهدافهم الشخصية فى الحياة قد انعكست فيما ينشرون — إذ أن المؤلفات الأدبية ينظر إليها فى العادة وبشكل عام على أنها مرآة لشخصية مؤلفها . كذلك الكتاب الذين يختارون موضوعات طريفة إلا أنهم يكشفون فيها عن سوأتهم وعن اعتمادهم الصريح على الإشاعات ، لا ينالون أى ثقة فيما يختارونه ، لأن هذا الاتجاه يؤذى مشاعرنا ، حينما نرى تاريخ الأمم المعروفة ومشاهير الحكام يعالج بطريقة ارتجالية . كانت تلك إذن هى المبادئ التى أعتبرها ضرورية لكتاب التاريخ . وقد أوليت اهتماماً كبيراً لكل منها ، ولهذا لم أشأ أن أتركها دون تسجيل ، وما كنت لأجد مكاناً أكثر ملاءمة لها من مقدمة مؤلفى هذا .

وأنا على ثقة بأن الأمر لا يتطلب عبارات كثيرة لتوضيح جودة الموضوع الذى اخترته ، وسمو طبيعته أو اتساع نطاق الإفادة منه . هذا إذا ما افترضت سلفاً فى قرائى الإلمام بالمبادئ الأولية للتاريخ العام . وما على هؤلاء إلا أن يعودوا بذاكرتهم إلى إمبراطوريات الماضى (سواء التى أخذت شكل المدن الرئيسية أو شكل الأمم) والتى لها سجلات تحت أيدينا ، وأن يفحصوها أولاً منفردة ثم مقارنة ، بقصد تحديد أيها حاز سيطرة أوسع وقام بأكثر الأعمال لماعية فى السلم والحرب . وسيجدون أن الإمبراطورية الرومانية قد فاقت بشكل لا يمكن قياسه كافة الإمبراطوريات التاريخية التى سبقتها ، ليس فى اتساع رقعتها وروعة أعمالها فحسب ، (تلك الأعمال التى لم تقدر بعد حق قدرها فى الأدب) ، وإنما فى طول أمدها حتى عصرنا الراهن أيضاً . إن الإمبراطورية الآشورية Assyrian القديمة شبه الأسطورية لم تمتد رقعتها إلى أكثر من جزء فى آسيا ، والإمبراطورية الميدية Median التى أطاحت بالإمبراطورية الأشورية وأظهرت سلطانا أعظم ، فقد افتقرت إلى البقاء وسقطت فى الجيل الرابع . والفرس الذين قهروا الميديين

وامتد سلطانهم على سائر آسيا تقريباً ، لاقت محاولاتهم فى إلحاق الهزيمة بشعوب أوروبا نجاحاً محدوداً وظل ضعف سلطانهم أكثر من قرنين . كذلك السيطرة المقدونية التى أطاحت بفارس القوية وفاقت رقعتها كافة الإمبراطوريات السابقة ، تمتعت برخاء عابر وبدأت فى الاضمحلال عقب موت الإسكندر . وتفسخت الإمبراطورية ، فى الجيل الأول لخلفائه ، بين عدد من الحكام المتنافسين ، وظلت قوتها مدة جيلين أو ثلاثة فقط قبل أن تنهار بفعل التدهور الذاتى حيث اكتسحتها روما نهائياً . حتى الإمبراطورية المقدونية لم تبسط سيادتها الشاملة على البحر والبر ، ولم تحرز موطئاً لقدم فى شمال أفريقيا بعيداً عن الركن المجاور لمصر ، ولم يتيسر لها أن تخضع سائر أوروبا،ولم تتقدم شمالى القارة التى تقع فيها إلى أبعد من (تراقيا) شرقاً أو أبعد من الأدرياتيك غرباً .

تلك كانت أقصى حدود السلطان والرخاء التى بلغتها الإمبراطورية السابقة ، والتى يوجد بها قبل أن تسقط سجل تاريخى تحت أيدينا . كما أنه بالنسبة للدول الهلينية ، فإن امتداد إمبراطوريتها وفترة عظمتها كانت ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالإمبراطوريات السابق ذكرها دون أى وجه للمقارنة.واقتصرت الإمبراطوريات الأثينية التى ظلت ثمانية وستين عاماً ، على الساحل وعلى مجرد شريط ضيق بين البحر الأسود والبحر البامفيلى Pamphylian حتى فى أوج سلطان أثينا البحرى . إن الإسبرطيين ، الذين انتهت إمبراطوريتهم ، قبل أن يتمتعوا بها أكثر من ثلاثين عاماً كاملة ، على أيدى أهل طيبة ، نجحوا فقط فى بسط سلطانهم على جزر البيلوبونيز وبقية هيلاس كما فعلت مقدونيا وأصبح أمام روما أن تقيم إمبراطوريتها على كل ما يمكن الوصول إليه من ممتلكات على وجه الأرض حتى حدود العمران البشرى ، وكذلك البحر بأسره — لا البحر المتوسط فحسب ، بل كافة مياه الأطلنطى الصالحة لسير السفن . إن روما وحدها ، دون سائر الدول التى عرفها التاريخ منذ عصوره الأولى ، هى أولى من امتدت حدودها ، من مشرق

---

(١) خليج أضاليا Adalia (المحقق) .

الشمس إلى مغيبها ، وحافظت على سلطانها لا لفترة زمنية وجيزة فحسب بل لفترة ليس لها مثيل فى أية دولة أو مملكة أخرى . لقد أخذت تؤكد سلطانها عقب تأسيسها مباشرة على جيرانها المحاربين العديدين ، ولم يفلت أى منافس من الخضوع لها ، وانعقد لها لواء النصر هذا دون انقطاع لمدة سبعمائة وخمسة وأربعين عاماً ، حتى زمن قنصلية « كلوديوس نيرون » Claudius Nero [1] و « بيزو كالبورنيوس » Piso Calpurnius اللذين انتخبا فى الأولمبياد الثالث والتسعين بعد المئة . وما إن ركعت سائر أجزاء إيطاليا تحت أقدام روما ، حتى تطلعت فى جرأة إلى سيادة العالم . وحينما طردت (قرطاجنة) Carthage الدولة البحرية الأولى من البحار ، وقهرت مقدونيا ، التى كانت تعتبر الدولة البرية الأولى من قبل ، بقيت روما دون منافس فى العالم الهليني وغير الهليني على السواء . إن إمبراطورية روما العالمية ، التى قامت على هذه الصورة ، بلغت الآن الجيل السابع ، ولا تكاد توجد أمة تتحدى حتى سيطرتها على نفسها ، ناهيك عن سيادتها العالمية . ويقيناً فإننى فى حل من إيراد أى إيضاح أكثر يخرج بى عن الموضوع الأصلى . لأننى لم أختر موضوعاً تافهاً ولم أقرر أن أرى أعمالا سخيفة أو تافهة .

وأيا كان الأمر ، فينبغى أن أورد عبارات تمهيدية قليلة لأشرح أن تخصصى فى (تاريخ روما القديم) كان قراراً صادراً عن ترو وتعقل ، اتخذته وأنا فى وضع تسانده الحجج المقنعة . وإلا فثمة خطر فى أن أصبح محل إدانة أولئك النقاد الخصوم الذين لا يسرهم شيء ، والذين سوف يلومونني لأنى أعرضت عن كافة الموضوعات الشهيرة التى يتضمنها تاريخ روما وانصرافى إلى تاريخها القديم غير الواضح . سوف يقولون لى إن مجد روما المعاصر وليد أصول وضيعة غير مجيدة ولا تستحق التناول التاريخى . فشهرتها وعظمتها تعودان إلى إلحاق الهزيمة بالدول المقدونية وانتصارها وليد الحروب البونية[2] Punic war ، لعدة أجيال مضت نسبياً . وردى على

---

(١) كان توليه الحكم للمرة الثانية فى عام ٧ ق . م

(٢) البونية . الفينيقية . . مثل القرطاجيين (المحقق) .

الأجيال القادمة فى المحل الأول ، جزاء الطيبين الصادقين ، ومن حذا حذوهم . وهذا من شأنه أن ينسخ الطبيعة البشرية ويخلد أعمال الناس بعد موتهم. وفى المحل الثانى ستدفع هذه الشهرة الأحياء وخلفاء هؤلاء الأبطال الذين لم يولدوا بعد إلى تفضيل حياة الطموح النبيل على حياة المتعة والدعة ، وفى اعتقادهم أن أولئك الذين تلقوا هبة وراثية أولية خصبة ، كان ينبغى عليهم أن يضعوا أنفسهم فى مستوى أعلى ، وألا يبدوا أبداً غير جديرين بالانتساب إلى أسلافهم . إن جزائى الوحيد على انصرافى لهذا العمل ، دون التفكير فى القلق ، بل التفكير فى الحق والعدل (وهى الأهداف الحقيقية لكل تاريخ) ، يظهر أولا فى التعاطف مع كافة الذين ابتهجوا بشرف لدراسة الأحداث العظيمة الملهمة ، وثانياً ، فى إزجاء الشكر إلى روما . وهذا ما فى وسعى ، ذاكراً التربية والهبات الأخرى التى أسدتها لى روما أثناء إقامتى كغريب داخل أسوارها .

أما وقد قدمت الآن عرضاً لبرنامجى ، فلا يزال من واجبى أن أتعرض للمصادر التى رجعت إليها عنـــد كتابتى هذا التاريخ . إن القراء الذين يألفون فعلا «هيرونيموس» و «تيمايوس» و «بولوبيوس» أو أى كاتب آخر من الذين اتهمتهم آنفاً بالسطحية ، سوف يلاحظون أن الجزء الأكبر من مادتى غير موجود فى مؤلفات هؤلاء الكتاب . وقد يكون من المعقول أن يتهمونى بالارتجال ، أو أنهم غير راضين عن المصادر التى استقيت منها معلوماتى. وبوسعى أن أزيل مثل هذه الشكوك من أذهان قرائى بتقديم بعض الملاحظات الأولية عن الكتب والسجلات التى اتخذتها مرجعاً أساسياً لى . والحق أننى كنت فى إيطاليا وقت أن كانت الحرب الأهلية توشك على نهايتها على يدى « أغسطس قيصر » Augustus Caesar فى منتصف الأوليمبياد السابع والثمانين بعد المائة [1] . ومنذ ذلك التاريخ مر اثنان وعشرون عاماً ولم أغادر روما أبداً . فقد تعلمت اللغة اللاتينية ، وألممت بالأدب وشغلت نفسى بشكل مستمر بالدراسات المتعلقة بموضوعى الراهن . وقد حصلت

---

(١) مثلا ٣٠ ق م (المحقق) .

عن طريق الرواية الشفاهية على جزء من معلوماتى من أفواه الحكماء الرومان المشهورين الذين اتصلت بهم شخصياً . وطالعت جزءاً من الأعمال التاريخية التى تحظى بأكبر شهرة بين الرومان أنفسهم ، من أمثـال « بوركيوس كاتو » Porcius Cato و « فابيوس ماكسيموس » Fabius Maximus و« فاليريوس الأنتيومى» Valerius of Antium و« ليكينيوس ماكر » Licinius Macer وأيلى Aelii وجيلى Gelli وكالبورنى Calpurni وغيرهم من الكتاب الممتازين. وتعتبر هذه الأعمال (التى تمثل التواريخ الهلينية المحلية) من الأسس التى اعتمدت عليها فى مؤلفى . ولست فى حاجة للحديث عن نفسى أكثر ، وعلى أن أذكر الحدود الزمنية لعملى، ومحتوياته الرئيسية وخطته العامة .

وأبدأ قصتى بالأساطير الموغلة فى القدم والتى أغفلها المؤرخون الذين سبقونى، لأنها كانت تحتاج فى تحقيقها إلى بحث مضن . وأصل بروايتى إلى بداية الحرب البونية الأولى ، والتى يرجع تاريخها إلى السنة الثالثة من الأوليمبياد الثامن والعشرين بعد المائة [(١)] وقد سردت سائر حروب روما الخارجية التى وقعت فى تلك الفترة ، وكذلك الإضطرابات الأهلية التى مرت بها ، مع بيان الأسباب التى أدت اليها وإلى إنهائها وسبل ذلك . وأتناول كذلك دساتير روما المتعاقبة سواء قبل سقوط الملكية أو بعدها ، وأصف مجلداتها . وأصف كذلك أكثر أنظمتها إعجاباً وأكثر قوانينها شهرة . وبالاختصار أقدم صورة كاملة عن حياة روما فى الأزمنة الغابرة. وتختلف الخطة التى أبنى عليها مؤلفى عن تلك الخطة التى يسلكها المؤرخ الحربى أو الدستورى الخالص ، ولا يكاد يشبه العرض الموجز الذى يسوقه الإخصائى وينشره عن تاريخ أثينا المحلى ، فهناك رتابة كامنة فى سائر هذه النماذج التى سرعان ما تبعث الاستياء فى نفس القارئ .وحاولت فى مؤلفى أن أجمع بين الجوانب الثلاثة للأدب وهى الجوانب الجدلية والعلمية والترويحية ، على أمل أن يرضى ذلك كتاب الشئون الدولية ، الذين يكمن اهتمامهم فى التأمل الفلسفى ، وأى قارئ يبحث عن

---

(١) عام ٢٦٥ ق . م (المحقق) .

شكل هادئ من اللهو فى دراسة التاريخ . ولقـــد أوضحت الآن موضوع مؤلفى وخطته .

(التوقيع) ديونوسيوس ابن الإسكندر الهاليكارناسى (مؤلف تاريخ روما القديم) .

إنجيل القديس لوقا

[العهد الجديد فى الأصل اليونانى . تحقيق ب.ف.وستكوت B. F. Westcott و ف . ا . هورت F. J. A. Hort (لندن ١٨٩٥ الناشر ماكميلان) الإصحاح الأول. الآيات ١ ـ ٤ : مهداة إلى ثاوفيلس]

عزيزى

لقد سعى شهود كثيرون من قبلى الى أن يؤلفوا قصة فى الأمور التى تمت فى مجتمعنا ، وما إن وصلت الينا الكلمة من الذين كانوا منذ البدء معاينين لها وكرسوا أنفسهم لصيانتها ، رأيت أنا أيضا، إذ قد تتبعت كل شىء حتى أصوله الأولى ، أن أكتب إليك تباعاً لصالحك ، على أمل أن أمدك بكلام صحيح فى الرواية التى أحطت علماً بها شفاهة .

فلافيوس يوسيفوس الأورشليمى

Flaviuus Josephus of Jerusalme

(٣٧ — ١٠٠ م)

الحرب اليهودية

(نص توبنر، مجموعة الأعمال ، المجلد الخامس، تحقيق س . ا. نابر S. A. Naber الكتاب الأول الفصول ١ — ٦)

إن الحرب اليهودية الرومانية هى أعظم حرب فى أزمنتنا ، ولا نكون مغالين

إذا ما أضفنا أنها أعظم الحروب التى سجلت بين المدن العالمية أو الأمم على السواء. ومع ذلك فإن المؤلفين الذين لم يشتركوا فى الأحداث ذاتها ، كتبوا تاريخها بأسلوب أكاديمى ، إلا أنهم جمعوا ماتواتر من أقوال اعتباطية وتعليلات متباينة عن طريق الإشاعات بينما حاول شهود العيان الأول، بمحض إرادتهم ، أن يتملقوا الرومانيين أو أن يحرّفوا الوقائع بسبب كراهيتهم لليهود . وتحتوى مثل هذه الأعمال على قدح ومدح متبادلين ، دون أثر لأية دقة تاريخية ، مما دفعنى الى أن أقــدم لجمهور الإمبراطورية الرومانية ، فى ترجمة إلى اليونانية ، عملاً خاصاً بى ، تم تأليفه أصلا فى لغتى الوطنية [1] ونشر فى الشرق غير الهلينى [2] . واسمى « يوسيفوس » بن « ما تياس » Mathias ، وأنا عبرى بحكم المنشأ من أورشليم ، وكاهن بحكم المهنة حاربت ضد الرومانيين فى مستهل الحــرب ، واضطررت إلى أن أشهد مراحلها الأخيرة .

لقد كانت هذه الحرب ، كما أشرت ، انفجاراً على أعظم جانب من الأهمية ، وقع الرومان خلالها فريسة الاضطرابات الداخلية ، فى حين أن العنصر الثورى بين اليهود ، الذى كان فى أوج مجده فى رءوس الأموال والقوات على السواء ، حدد وقت تمرده بحيث يفيد من الاضطرابات المنتشرة . وكانت الهزات المتعاقبة عنيفة لدرجة أن مصير الشرق تعلق فى الميزان بين الطرفين المتحاربين ، وكان لدى كل طرف على حدة أمل وخوف من النتيجة النهائية . فاليهود كانوا يأملون فى أن ينضم إليهم فى هبتهم، مواطنوهم عن بكرة أبيهم فيما وراء نهر الفرات Euphrates، بينما أقضت مضاجع الرومان هجمات جيرانهم الألمان [3] ، والقلاقل بين رعاياهم السكلتيين Celtic ، والهزات الشاملة التى أعقبت موت « نيرون » ، إذ نتج عن

---

(١) اللغة الأرامية Aramic (المحقق) .

(٢) المعنى الحرفى (فيما بين غير الهلينين فى الداخل) فعلى سبيل المثال ، أن «الداخل» خلف الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية ، يتحدد من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى أواسط الأراضى المحيطة (المحقق) .

(٣) فى اليونانية جلاتيون Galatian (المحقق) .

الوضع السياسي. أن تطلع عدد من المتنافسين إلى العرش والسلطة العسكرية ، وألهبهم الأمل في الثروة والحماس للتغيير السياسي . وأحسست بأنه من التناقض أن تظل الحقيقة الخاصة بأحداث ذات أهمية كهذه ، غير معترف بها ، وأنه ينبغي أن أحيط «البارثيين» Barthians و«البابليين» Babylonians وسكان الجزيرة العربية الأول Arabia ، ومواطني ماوراء الفرات وسكان (أديابين)[1] Adiabene علماً ما وبشكل دقيق ، خلال جهودي أساساً ، بتقلبات الحرب ونتيجتها النهائية فيما لم يكن لدى الهانيين وسائر الرومان الذين لم يشتركوا في الحملة ، أفضل من الملق أو الروايات الكاذبة التي تحجب الحقيقة .

إن في الكتاب الذين أشرت إليهم وقاحة جعلتهم ينتحلون (تواريخ) لأعمال ليست مزيفة فحسب ، بل وفي رأيي، خبيثة المقصد تماماً . كان هدفهم أن يرفعوا من قدر الرومان وألا تفلت منهم فرصة لسحق اليهود وتحقيرهم ، رغم أنني لاأستطيع أن أدرك ، أية عظمة يمكن أن توجد في التغلب على خصم تافه . وأياً كان الأمر ، فإن هؤلاء السادة، لم يخجلوا سواء من طول أمد الحرب أو كثرة ضحايا الرومان أو قدرات قادة الرومان الفائقة — وهم في رأيي المتواضع ، قد حرموا مجد الجهود التي بذلوها في حصارهم المشدد على أورشليم بسبب الحط من قدر أعمالهم .

وأياً كان الأمر ، فإنني لا أقصد أبداً ، أن أدخل الحلبة ضد أبطال الرومان وأن أقرع طبول مواطني . وسوف ألتزم بالموضوعية الكاملة عند التحدث عن أعمال كلا الفريقين ، رغم أنني قد أجمل من تعليقي على الأحداث تعبيراً عن وجهة نظري الذاتية . وقد أسمح لمشاعري الشخصية أن تجد ثغرة للنواح على مصائب بلدي. إن بلادي قد سقطت كما يسقط البيت الذي ينقسم على نفسه ؛ واشتد ساعد الرومان بسبب طغيان قادة اليهود ، واندلعت النيران في المعبد المقدس بسبب أفعالهم . وقد

---

(١) المصطلحات الجغرافية الحديثة (الإيرانيون والعراقيون والسكان العرب الأول والمستعمرات اليهودية شرق الفرات وسكان وادي الموصل ، على سبيل المثال أهم سكان الشرق الأوسط فيما بين الهند من جانب والإمبراطورية الرومانية من جانب آخر ، وكان الآراميون هم صلة الوصل في التجارة والثقافة كما كان الإغريق في حدود الجانب الروماني . (المحقق) .

أقر بهذا « تيتس قيصر » Titus Caesar ، الذى قام بأعمال التدمير ، كما أنه تروى فى استخدام سلطة الثوريين إزاء السكان العزل خلال الحصار ، وأجل الهجوم على المدينة مرات كثيرة ، على أمل أن يصل هؤلاء المسئولون إلى حل معقول خلال فترة الحصار الطويلة . إن هجومى الشديد على الطغاة قطاع الطرق ، إنما هو بدافع الألم إزاء المصائب التى أغرقوا فيها بلدى . وإذا ما رغب أى قارئ أن يتخذ من هذا رصيده ضدى ، فبوسعى فقط أن أطالبه بالتخلى عن العرف التاريخى فيعطى فرصة لمشاعرى ، وأن يضع فى ذهنه أن (القدر) قد رفع مدينتنا إلى قمة من الرخاء أعلى من أية مدينة كانت فى حوزة روما ، ثم يلقى بها فى النهاية إلى الحضيض ، إلى أسفل مراتب الكوارث . وإن كافة كوارث الجنس البشرى التى عرفت منذ بداية التاريخ لتتضاءل ، فى رأيى ، إذا ما قورنت بالكوارث التى حلت باليهود ، ومسئولية هذه الأكاذيب لا تقع على عاتق أى شخص غريب . وفى مثل هذه الظروف لابد من جهد بشرى هائل يخمد مشاعرى . ولكن إذا قسا أحد قرائى فى حكمه دون أن تتسرب إلى قلبه الرحمة ، فإننى أتوسل إليه أن ينظر إلى الكتاب على أساس الرواية التاريخية للأحـــداث وليحاسبنى أنا شخصياً على النواح .

وينبغى فى الحقيقة أن يلتمس لى العذر فى التهجم على المؤرخين الهلينيين ولومى لهم على سلوكهم . لأنهم يؤثرون ، إزاء أحداث معاصرة بمثل هذه الأهمية ، تتضاءل أمامها الحروب القديمة ، يؤثرون أن يظلوا نقاداً ، ونقاداً متحيزين ، للكتاب الذين يغامرون باقتحام هذه الساحة (رغم أنهم يتضاءلون إلى جانبهم فى المفهوم بالدرجة التى يتفوقون بها عليهم فى العمل الأدبى) . إنهم يرضون لأنفسهم كتابة تاريخ آشور Assyria وميديا Media وكأنهم استطاعوا أن يدخلوا تحسيناً على ما قدمه المؤرخون القدامى ، فى حين أنهم فى الحقيقة أقل من الآخرين فى القدرة الأدبية والذهنية . لقد كرس جميع المؤرخين القدامى أنفسهم لكتابة تاريخ عصورهم حين ساعدتهم مشاركتهم الشخصية فى الأحداث على إيضاح عرضهم التاريخى . وكان من المؤكد أن يكشف الجمهور الذى يعرف هذه الأحداث أى تزييف يقع من

جانبهم . إن تسجيل أحداث لم ترو من قبل ، وإمكان وصول الأجيال القادمة إلى التاريخ المعاصر لهو نشاط جدير بأن تقف أمامه وتقدره .ولا يشتمل البحث التاريخى الأصيل على مجرد إعادة ترتيب المادة الخاصة بالآخرين ، وإنما يشتمل على إقامة بناء راسخ من المعرفة التاريخية التى تثبت شكلاً جديداً للحديث . فأنا الرجل الأجنبى ، لم أدخر جهداً أو مالا فى سبيل إهداء الهلينيين والرومان مذكرات عن أعمالهم ، بينما يفغر بنو وطنى أفواههم ، وتتدلى ألسنتهم حيث تنفق الأموال هناك فى (ألحان) ويجدون أنفسهم مكممى الأفواه ومكتوفى الأيدى حيث يكون هناك حق يجب أن يحفظ ومعلومات تجمع بالبحث المضنى فى كتابة التاريخ . إنهم يتركون هذه المهمة الأدبية إلى الإخوة الذين لا يلمون بأعمال الشخصيات البارزة . إن أقل ما يمكن أن نفعله نحن الشرقيين هو أن نولى الحق التاريخى بعض الأهمية ، الذى لا تضعه هيلاس فى حسابها حالياً .

تاريخ اليهود القديم — رد على أبيون (*) Apion

(مهدى إلى إيبأفروديتوس Epaphroditus)

(نص تويبنر ، مجموعة الأعمال ، المجلد السادس تحقيق س. ا. نابر الكتاب الأول الفصول ١ — ٥٩)

عزيزى

أدرك أننى قد بينت ، فى مؤلفى عن التاريخ القديم ، بشكل كافٍ لأى فرد على درجة متوافرة من حسن النية تؤهله ليصبح من عداد قرائى ، بينت التاريخ الموغل فى القدم لجنسنا اليهودى ، ونقاء مجموعته الأصلية والظروف التى استقر فيها فى البداية فى البلاد التى ما زالت موطناً لنا . وهذه القصة ، التى تمتد إلى فترة

---

* كان كاتباً قديراً وعالماً يونانياً عرف بعدائه الشديد لليهود ، وهو أحد المندوبين اليونانيين الثلاثة الذين قابلوا كابوس بعد فتنة الإسكندرية الشهيرة (المترجم) .

خمسة آلاف عام ، أخذتها من كتبنا المقدسة وأعيد كتابتها باللغة اليونانية . فى حين أننى ، أجد قسماً لا بأس به من الجمهور يتأثر بشكل كاف بالتحريفات المغرضة من جانب أعدائنا الحقيقيين ، وذلك حتى يرتابوا فى روايتى عن تاريخنا القديم ، ويجدوا دليلهم على أن جنسنا حديث الأصل ، فى أن أكثر المؤرخين الهلينيين شهرة قد جهلوا وجوده . وبناء على هذا أحسست بأننى ملزم بأن أسهم قليلا فى هذه المجادلة ، كى أفضح القصد الخبيث والإفك المبيت من جانب الذين يفترون علينا ، وحتى أصحح جهل محتاليهم ، وأنير السبيل أمام سائر الذين يهتمون أصلاً بمعرفة حقيقة أصولنا . وتدعيماً لآرائى ، سوف أسرد دليل الكتاب الذين ينظر الهلينيون إليهم على أنهم أكبر الثقاة فى مجال التاريخ القديم بأسره ، وذلك حينما أبين كيف أن الكتاب الذين افتروا علينا وحرّفوا أفكارنا ، يمكن إدانتهم من أفواههم . وسوف أحاول شرح الأسباب التى أدت بالهلينيين إلى ذكر عدد قليل نسبياً من جنسنا فى مؤلفاتهم التاريخية ، وسوف أبين فيما بعد الحالات التى لم يهمل فيها تاريخنا ، إلى أولئك القراء الذين لا يعرفونها أو هكذا يقولون .

إن الباعث الأول لى هو أن أعبر عن دهشتى إزاء أولئك الذين يعتبرون الهلينيين هم الثقاة الوحيدين الذين يمكن تعلم حقيقة التاريخ القديم منهم ، فى حين أنهم يعتبروننا والآخرين جميعاً غير جديرين بالتصديق . والأمر كما أراه أنا ، هو أن هذا قلب كامل للحقائق ، هذا إذا لم يكن علينا أن نسترشد بتأملات فارغة وإنما نترك الحقائق تنطق بنفسها . وفى الحقيقة ، سوف نجد أن الحضارة الهلينية بأسرها حديثة جداً إلى درجة يمكن وصفها بأنها نمت بالأمس أو أول أمس . إننى أشير إلى تأسيس الدول الهلينية ، وإلى ابتكاراتها المادية ، وصياغة مواد قانونها أما آخر نشاط عنوا به فى هيلاس فهو كتابة التاريخ . ومن ناحية أخرى ، فإن الهلينيين يسلمون (وهم لا يعارضوننى فى هذا) بأن مصر ، وكلدانيا ، وفينيقيا — ولنبعد اليهودية من القائمة الآن — لديها سجلات تاريخية دائمة وموغلة فى القدم . وكافة هذه الأمم تقطن مناطق تخلو بصفة خاصة من التأثيرات الجوية المخربة ، وقد عانت الأمرين حتى لا تترك أحد أعمالها دون تسجيل ، ويحفظونها على الدوام

لدى خبراء فى السجلات العمومية. وعلى عكس ذلك ، فإن المنطقة التى تقع فيها هيلاس قد تعرضت لتخريبات طبيعية لا تحصى طمست سجل الماضى؛ وقد كان سكان هيلاس مضطرين الى أن يبدءوا حياتهم من جديد على الدوام ، وفى كل ظرف من هذه الظروف اعتبروا فترتهم بداية الأشياء كلها ؛ وقد كان اكتسابهم لفن الكتابة عملية متأخرة ومضنية . وحتى أولئك الذين يزعمون بأنهم كان لديهم منذ البداية أكثر التواريخ قدماً ، فإنهم يتباهون بأنهم اكتسبوها من « الكادموس » Cadmus والفينيقيين . وبذات الوقت ، كان من المستحيل أن توجد وثيقة مكتوبة سواء من الوثائق الكهنوتية أو العامة ، والتى حفظت حتى من تلك الفترة ، تأخذ فى اعتبارها مقدار التأملات والمناقشة التى ثارت حول ما اذا كان فن الكتابة معروفاً للجيل الذى قام بالحملة على طروادة ، وهى حادثة ذات التاريخ المتأخر كثيراً . إن الرأى القائل بأن منهاج كتابتنا الراهن لم يكن معروفاً لهم ، هو أكثر الاحتمالات صواباً ، ومن المؤكد أنه ، لا يوجد فى العالم الهلينى نموذج للكتابة لا نزاع حوله أكثر قدماً من شعر هومر . ومن الواضح أيضاً ، أن « هومر » متأخر عن الحرب الطروادية ، وقيل أيضاً إنه وإن لم يترك شعراً مكتوباً ، إلا أن الناس تداولوه شفاهة ثم جمع بعد ذلك من أجزاء القصائد المختلفة ، الأمر الذى أدى إلى التناقضات العديدة التى يحتوى عليها شعر هومر . وفيما يتعلق برواد الكتابة الهلينية التاريخية ، وأعنى بهم « كادموس الميليتى » Cadmus of Meletus ، و« أكوزيلاوس الأرجوسى » Acusilaus of Argos وخلفاء « أكوزيلاوس » ممن حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، فإنهم كانوا سابقين للغزو الفارسى لهيلاس بفترة وجيزة . وفضلا عن ذلك ، فإن آباء التأمل الهلينى فى الفلك والدين ، مثل « فيريكودس السيروسى » Pherecydes of Syros و« فيثاغورس » Pythagoras و« طاليس » Thales قد سلموا جميعاً بأنهم تتلمذوا على أيدى المصريين والكلدانيين قبل أن يكتبوا مؤلفاتهم المتواضعة . إلا أن الهلينيين الذين يعتبرون هذه المؤلفات من أقدم سائر المؤلفات ، يتشككون فى نسبتها إلى مؤلفيها المشهورين .

وعلى ضوء هذا كله ، فمن غير المعقول بكل تأكيد أن يتباهى الهلينيون بأنهم

وحدهم خبراء التاريخ القديم وبأنهم وحدهم أصحاب الروايات الصحيحة والدقيقة . وإذا فحصنا مؤلفاتهم يتضح تماماً أنها لا تقوم على أية معرفة مؤكدة ، وإنما تقوم على الحدس والتخمين . وعلى أية حال ، فليس لما كتبوه أثر أكثر من كشف أحدهم للآخر . وهم لا يترددون على الإطلاق فى إنشاء القضايا المتناقضة حول نقاط متماثلة . ويكون تطفلاً من جانبى أن أحيط من هو أكثر منى علماً بالتناقضات التى نشأت بين « هيلانيكوس » Hellanicus و « أكوزيلاوس » Acusilaus حول مسائل الأنساب ، وحول تصويبات « هسيود » Hesiod التى قام بها « أكوزيلاوس » ، أو الطريقة التى يعرض بها « إيفوروس » Ephorus عدم دقة هيلانيكوس فى أغلب المسائل ، وعدم دقة « إيفوروس » التى أظهرها « تيمايوس » Timaeus ، أو أخطاء « تيمايوس » التى أظهرها خلفاؤه ، وأخطاء هيرودوت التى أظهرها كل إنسان . فإن « تيمايوس » لم يشعر ، حتى بشأن مسائل التاريخ الصقلى المحلى ، بأنه مطالب بأن يروى الحكاية بنفسها كما روتها مدرسة «أنتيوخس» Antiochus و « فيليستوس » Philistus أو « كالياس»Callias . كذلك الأمر فيما يتعلق بكتاب التاريخ الأثينى الذين لم يترسم واحد منهم خطى الآخر فى مسائل هذا التاريخ ، ولا خطى المؤرخين الأرجيفيين فيما يتعلق بالتاريخ الأرجيفى . وأيا كان الأمر ، فلسنا فى حاجة للحديث عن التاريخ المحلى والخاص بموضوع محدد ، عندما يختلف أكثر المؤرخين شهرة حول مايختص بأعمال الحملة الفارسية حتى ثوكوديديس الذى يعتبر من أكثر مؤرخى عصره دقة ، متهم بعدم توخى الدقة فى مسائل كثيرة من جانب نقاد معينين .

وقد يؤدى البحث إلى كشف عدد من أسباب هذا التناقض البالغ ، إلا أننى أعزو الأثر الأكبر إلى سببين سوف أشرع فى ذكرها . وسوف أبدأ بالسبب الذى أعتبره أكثر السببين أهمية . إن حقيقة عدم عناية الهلينيين منذ البداية بالاحتفاظ بسجلات عمومية للأحداث الجارية ، هى السبب الرئيسى بالتأكيد للخلط الذى وقع فيه الكتاب الذين حاولوا تباعاً تناول التاريخ القديم . وهو السبب الذى أدى إلى ارتكاب الأخطاء التى وقعوا فيها . إن تسجيل الأحداث لم يهمل فى هيلاس

كلها فحسب ، بل فى أثينا أيضاً ، تلك المدينة التى اشتهر أهلها بالثقافة والاحتفاء بها حيث لانجد أى أثر لهذه الظاهرة . وأكثر السجلات العامة قدماً فى أثينا ، يقال إنه التشريع الجنائى ل « دراكون » Dracon ، وهو فى تاريخ متقدم قليلا عن فترة حكم الطاغية « بيزستراتوس» Peisistratus . أما بالنسبة للأركاديين ، فإن زعمهم بقدم تاريخهم تنفيه الحقيقة التى تقضى بأنهم نجحوا بالكاد فى السيطرة على زمن الكتابة حتى فى تاريخ متأخر عن هذا .

إن عدم وجود أساس معد من قبل خاص بشكل السجلات العمومية ، التى تكون قد أفادت الذين رغبوا فى معرفة الحق ، وفقدت عدم الدقة ، يعتبر هو السبب الرئيسى فى التناقض بين كتاب التاريخ الهلينيين . والسبب الثانى هو أن الهلينيين الذين تطلعوا للتأليف لم يكن لديهم أى غيرة على الحق ، وعلى الرغم من أن الجزم بعكس ذلك كان على شفاههم دائما ، إلا أنهم كانوا يهتمون بإظهار قدرتهم الأدبية .

وعلى هذا ، واءموا أنفسهم مع أى منهج يقدم لهم صورة تبز منافسيهم حسناً فى هذا الشأن . وقد لجأ بعضهم إلى الرواية ، والبعض إلى تملق الدول والحكام عن قصد . وتخصص آخرون فى كيل الاتهامات للأعمال ومن قام بتسجيلها ، على اعتبار أن هذا مجال يمكن أن يلمعوا فيه . وباختصار فإنهم يثابرون على عادة تتنافى تماماً مع الروح التاريخية . إن العلامة المميزة للتاريخ الصحيح هى الاتفاق الإجماعى على مسائل بذاتها من جانب كلٌ من الدارسين والكتاب ، بينما اعتبر المؤرخون أن أفضل وسائل إرساء الدقة السامية ، هى أن يقفوا فى وصف الأحداث المماثلة إلى جانب الأقلية المعارضة . أما فيما يختص بالشكل الأدبى والرونق ، فيجب علينا نحن الشرقيين أن نسلم بانتصار المؤرخين الهلينيين ، ولكن ليس بسبب صحة تناول التاريخ القديم ولاسيما عندما يتعلق الأمر بتاريخنا المحلى .

وفى ذلك الوقت، كان تسجيل الأحداث فى مصر وبابل موكولا إلى مسئولية الإخصائيين — وهم الكهنة فى مصر والكلدانيون فى بابل — وقد أفاد

الفينيقيون ، دون سائر الشرقيين الذين احتكوا بالهلينيين ، أكبر فائدة من فن الكتابة من أجل تدبير شئونهم الخاصة ومن أجل تسجيل الأحداث العامة أيضا . وهذه الحقائق مسلم بها تماماً فلا أرى العودة إليها فيما بعد . وسوف أمضى الآن إلى أسلافنا وسأحاول أن أوضح ، على قدر مايمكننى من إيجاز ، انهم كانوا متخصصين ، شأنهم شأن جيرانهم (سوف لا أدخل فى موضوع ما إذا كانوا حالياً أكثر تخصصاً عما كانوا عليه من ذى قبل) فى حفظ السجلات ، حتى إنهم وكلوا هذه المهمة لكبار الكهنة والأنبياء، وبقيت ممارسة هذه المهمة ، حتى يومنا هذا (ويمكننى القول بأنها سوف تكون كذلك فيما بعد) بالغة الدقة .

وهم لا يضعون هذا القسم تحت إشراف صفوة الرجال الذين يلتزمون بخدمة الله ، من البداية فحسب ، بل إنهم يتخذون الإجراءات لصيانة عنصر الكهنة نقياً غير مختلط . ومن يتطلع إلى الكهانة يجب أن يكون مولوداً من أم يهودية . ولا تدخل الثروة والرتبة ضمن الشروط . وعلى طالب الكهانة أن يثبت نسبه من المحفوظات ويأتى بعدد من الشهود . وهذه الممارسة ليست مقصورة على اليهودية . فحيثما يوجد موطن لأمتنا يكون سجل الزواج الدقيق محفوظاً لدى الكهنة (١) ، يرسلون صوراً منه إلى أورشليم ، حيث يدون اسم والد الزوجة وأسلافها السابقين ، وكذلك أسماء الشهود . وفى حالة الحرب ، التى تكررت مرات كثيرة قبل الآن (٢) ؛ فإن أعضاء الكهانة ، الذين ما زالوا أحياء ، يعيدون قيد السجلات القديمة ويفحصون النساء اللاتى ما زلن أحياء . ولا يعاد قيد النساء اللاتى وقعن فى السبى (لهذا السبب) ، وذلك للشكوك التى تنشأ من الاختلاط الدائم ، فى مثل هذه الظروف بينهن وبين الذكور من غير اليهود . إن أبرز الدلائل على دقتنا هى أن الكهنة

---

(١) إننى أشير إلى الكهنة اليهود فى مصر وبابل وأى قسم آخر من العالم ينتشر فيه كهنة أمتنا (المؤلف) .

(٢) على سبيل المثال غزوات البلاد على أيدى أنتيوخس ابيفانيس ، وبومبيوس ماجنوس وكوينتيوس فاروس ، وعلى الأخص أحداث زماننا (المؤلف) .

فى مجتمعنا يمكن أن يبينوا تسلسلاً غير متقطع ، لألفين من السنين ، من الأب إلى الابن كادونت بالاسم فى السجلات ، بينما أى فرد لا يتوافر فيه أى شرط من الشروط السابق ذكرها يستبعد من الخدمة فى المذبح ولا يقوم بأى دور فى العبادة . وليس هذا الأمر طبيعياً فحسب بل لا مناص منه أيضاً ، إذا ما تذكرنا مرة أخرى أن حق القيد فى السجلات غير متروك لحرية تصرف أفراد مخصوصين وأنه ليس هناك تناقض بين القيودات ، فإن الامتيازات مقصورة على الأنبياء ، الذين يلمون بمعظم الماضى البعيد بوحى من الله ، والذين يسجلون الأحداث المعاصرة لهم بإحكام .

وليس فى أدبنا أسفار كثيرة تختلف مع بعضها وتتناقض إلى ما لا نهاية . بل لدينا فقط اثنان وعشرون سفراً تتضمن سجلا لكل العصور والتى نثق فيها بحق واطمئنان . وخمسة منها هى أعمال موسى ، تحتوى على النواميس وروايات خلق الإنسان حتى وفاة موسى . ومن وفاة موسى حتى حكم « أرتا كسر كسيس » Artaxerxes ، خليفة « كسر كسيس » على عرش فارس ، وهى سجل الأنبياء الذين خلفوا موسى وأحداث أزمنتهم فى ثلاثة عشر سفراً . وتحتوى الأسفار الأربعة الباقية على تسابيح الرب . والإرشادات المتعلقة بسلوك الحياة الإنسانية . ومن «أرتا كسر كسيس» حتى أزمنتنا يوجد سجل متصل ، إلا أنه لا ينظر إليه بمثل الاتكال الوطيد على الوثائق الأولى ، لأن توالى الأنبياء لم يحفظ بشكل دقيق . وتشرح الوقائع ذاتها بشكل وافٍ موقفنا تجاه سجلاتنا المحلية . فخلال الفترة الكبيرة التى انقضت منذ تأليفها ، لم يجازف أحد بأن يضيف إليها أو يحذف منها أو يغير ترتيبها . وينظر إليها كل يهودى منذ مولده بشكل غريزى على أنها ناموس الله ، التى يرعاها بإخلاص ويلاقى الموت فى سبيلها عن طيب خاطر ، إذا ما تطلب الأمر ذلك . واشتهر أسرى يهود كثيرون قبل الآن ، فى مناسبات عديدة ، بأنهم تحملوا التعذيب وصنوف الموت المروعة فى المسارح العامة ولم ينبسوا بكلمة واحدة ضد

الناموس أو الوصايا التى تتصل به . فهل يتحمل أى هليني مثل هذا فى شخصه ؟ إنه لا يعانى أى متاعب فى سبيل الحفاظ على أعمال الأدب الهليني . وينظر الهلينيون إلى مثل هذه الأعمال على أنها عبارات مرتجلة حسب أهواء الكتاب ؛ وهم معذورون بكل تأكيد فى اتخاذ هذا الموقف من أدبهم القديم لأنهم يرون بعض الكتاب الهلينيين المعاصرين يجازفون برواية تاريخ الأحداث التى لم يشاركوا فيها بأنفسهم. ونظراً إلى أنهم لم يبذلوا أى جهد ليتعلموا الحقيقة من أولئك الذين لديهم الوقائع . وفيما يتعلق بحربنا الحديثة ، فإن الكتب التى تندرج تحت قائمة (التواريخ) قد نشرها المؤلفون الذين لم يزوروا مسرح الأحداث ، أو لم يقربوه حينما وقعت هذه الأحداث ، ولكنهم جمعوا بعضاً من الروايات المتناقلة كعذر لهذا الدنس الثمل الذى شنت اسم التاريخ .

إن سجلى الخاص بالحرب فى مجموعها صحيح ، والتفاصيل الصغيرة كذلك صحيحة ، لأننى شهدت ، أولاً بأول ، كافة الأحداث . لقد كنت فى قيادة قواتنا من سكان الجليل بقدر ما طال أمد المقاومة ، بينما كنت بعد وقوعى فى الأسر سجين الرومان ، واضطرنى «فسبسيان»[1] Vespasian و «تيتس» لأن أظل تحت المراقبة ، وكنت فى بداية الأمر فى القيود ، ثم أطلق سراحى بعد ذلك ، وأرسلت من الإسكندرية ، فى خدمة تيتس ، أثناء حصاره أورشليم . ولم يحدث شىء خلال تلك الفترة إلا وكان تحت بصرى . وثابرت على تسجيل الأحداث فى المعسكر الرومانى أولا بأول ، بينما كنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يفهم تقارير الفارين من الجانب اليهودى . وعندما كانت كافة مواردى فى حالة إعداد سليمة ، أفدت من فرصة فراغى فى روما وأفدت من المساعدين لى باللغة اليونانية ، وهكذا أكتب روايتى . إن ايمانى بصواب ما أعرضه كان شديداً حتى إننى سجلت ما قام به « فسبسيان » و « تيتس » اللذان كانا قادة الحرب ، كما شهدت فى بادىء الأمر . وبعبارة أخرى ، كانا أول شخصين عرضت عليهما أعمالى ، وبعدئذ

---

(١) فسبسيان ، نودي به إمبراطوراً حينما كان يقوم بقمع العصاة اليهود وبعد أن قصد إلى روما وكل إلى ابنه تيتس أمر الحرب ضد اليهود (المترجم العربى)

بعثت منها نسخاً إلى الرومان الذين اشتركوا فى الحملة وإلى كثير من مواطنىّ ، ومن بين هؤلاء من نال قسطاً من التعليم الهلينى ، بما فيهم « يوليوس أرخيلاوس » Julius Archelaus وصاحب الفخامة «هيرودس» Herodes وصاحب الجلالة المعظم الملك «أغريباس»[1] Agrippa نفسه . وشهد هؤلاء الأشخاص المرموقون بأننى كنت بطلا موالياً جانب الحق ، ولم يترددوا بالتأكيد فى أن يقفوا عند نقطة ما إذا كان الجهل أو الملق قد أوقعانى فى بلبلة أو إغفال واقعة من الوقائع . وأيما كان الأمر ، فهناك أشخاص بعينهم غير جديرين بالاهتمام حاولوا أن يشككوا فى تاريخى وسلكوا مسلك التلاميذ حينما يعرض عليهم فى حلقة الدرس اتهام مشين ومتناقض . والحق أنه لا يجوز لأحد أن يسجل حقيقة لصالح آخرين دون أن يكون قد وقف بنفسه أولا بدقة على الوقائع ، سواء بتتبع الأحداث أو بالتأكد منها عن طريق الذين يعرفونها . وأيما كان الأمر ، فإننى أغبط نفسى لأننى قد وفيت شخصياً هذه المطالب فى كل من مؤلفاتى . فإن تاريخى القديم ، الذى كان كما ذكرت ترجمة من الأسفار المقدسة ، هو عمل كاهن بطبيعته تربى على فلسفة الكتاب المقدس . إن تاريخى عن الحرب هو تاريخ من أسهم فى كثير من الأحداث وشاهدها كلها تقريباً ، ويستطيع أن يقول إنه ما من شىء قيل أو وقع إلا وقد لاحظه . وإننى لا أستطيع القول كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص الذين حاولوا أن يجادلوا فى صياغتى للأحداث ، أن يكونوا بريئين من الوقاحة . فقد يعترفون بأنه كان لديهم صلة بمذكرات القادة ، إلا أنهم لم يكونوا بالطبع على صلة كذلك بأحداثنا التى كانت فى الجانب المعادى لهم .

وقد بدا لى أن الانحراف السابق لا يمكن تجنبه إذا ما قدر لى أن أدمغ

(١) كان هيرودس الكبير والياً على اليهودية من قبل قيصر عام ٤٧ ق.م وفى عام ٤٠ ق.م عينه مجلس الشيوخ حاكما على الجليل وملكاً على اليهودية . وأرخيلاوس هو ابنه من امرأة سامرية ، وعند موت أبيه عام ٤ ق.م ولى حكم أدومية والسامرة واليهودية وبعد وفاته سنة ٧ م أصبحت اليهودية يحكمها حاكم فرعى حتى جاء هيرودس أغريباس الأول سنة ٣٧م وفى عام ٣٩م أعطاه جايوس ولاية الجليل وبعد موت جايوس عينه كلوديوس ملكاً على فلسطين . (المترجم العربى)

تساهل كتاب التاريخ المعترف بهم ؛ وفى تصورى أننى قد أوضحت الآن بما فيه الكفاية أن ممارسة تسجيل أحداث الماضى بملاحظات أولية قليلة موجهة ضد النقاد الذين يحاولون أن يثبتوا حداثة وجودنا جميعاً على أساس أنه ليس هناك أى ذكر لنا (حسب وجهة نظرهم) عند المؤرخين الهلينيين . وسأسرد الآن الدليل على قدمنا فى آداب الشعوب الأخرى ، وسوف أبين أن الافتراءات التى نشرت ضد جنسنا لا أساس لها .

آريان النيقوميدى

Arrian of Nicomedia

(٩٠ — ١٧٠ م)

غزو الإسكندر لآسيا

(نص توينر تحقيق ا . ج . روس A. G. ROSS : الكتاب الأول الفصول ١ — ٣) .

أينما يقدم « بطلميوس بن لاجوس « Ptolemy of Lagos » و « أسطوبولوس بن أرسطوبولوس » رواية متماثلة فى مؤلفاتهما عن الإسكندر بن فليب ، فإننى أترسم خطاهما بثقة مطلقة فى دقتها . وحينما يختلفان فإننى أرجح الرواية التى تبدو لى أكثر ثقة ، وأكثر أهمية فى الوقت نفسه . ! إن لدى كل من مؤرخى الإسكندر روايته التى يسوقها ، وليست هناك شخصية تاريخية تعرض لها عدد كبير من المؤرخين أو اختلفوا حولها أكثر من هذه الشخصية . وأنا شخصياً أعتبر بطليموس وأرسطوبولوس جديرين بالثقة أكثر من غيرهما — لأن أرسطوبولوس كان مصاحباً للملك الإسكندر فى الجيش ، وبطليموس نفسه فضلاً عن أنه كان ملكاً فهو يحس بالخزى أكثر من الأناس العاديين إذا ما فشل فى ذكر الحقيقة ، وكان الإثنان بالمثل بعيدين عن الحاجة إلى تحريف الوقائع أو الباعث على تحريفها ، لأنهما كتبا مؤلفاتهما بعد وفاة الإسكندر . ولقد ضمنت عملى أيضاً معلومات مستمدة من

مؤلفات أخرى ، عندما بدت لى أنها هامة فى حد ذاتها وجديرة بالاهتمام ، وذلك تحت عنوان حكايات غير مؤكدة . فإذا ما مال أى قارئ إلى الدهشة فيما رغبنى فى الشروع فى هذا العمل فى أثر حشد مؤلفين هكذا ، فإننى أتوسل إليه أن يؤجل الحكم حتى يفحص سائر أعمالهم ويلم بنفسه بمؤلفى .

آبيان السكندرى

Appian of Alexandria

(٩٠ — ١٦٠ م)

دراسات فى التاريخ الرومانى

(نص تويبنر تحقيق ل . مندلسهون L. Mandelssohon : المجلد الأول المقدمة)

حينما شرعت فى كتابة تاريخ روما ، شعرت أنه من الضرورى أن أقدم عرضاً لسائر الأمم تحت الحكم الرومانى .

[ويأتى العرض بعد ذلك]

ورغم أن الرومان يحكمون الآن كل هذه الأمم القوية ، فقد ظلوا خمسمائة عام كاملة فى نضال شاق حتى يتموا إخضاع إيطاليا وحدها إخضاعاً تاماً . وعاشوا خلال النصف الأول من هذه الفترة فى ظل الملكية ، بينما ظلوا الفترة الباقية — بعد أن طردوا الملوك وأقسموا جادين ألا يدعوا الحكومات الملكية مرة ثانية فى نظام أرستوقراطى تحت رئاسة ضباط ينتخبون سنوياً . وقد شهد القرنان اللذان أعقبا الخمسة قرون الأولى عظمة إمبراطوريتهم . وتقع فى هذه الفترة السلطة التى اكتسبوها والتى لا حدود لها فى الخارج وكذلك هزيمة أغلبية القوميات التى تدخل ضمن رعاياهم . وبعدئذ فرض « جايوس قيصر » Gaius Caesar (الذى كان قد غطى على أكثر معاصريه سطوة ، وعزز سطوته وأقام ترتيبات فعالة للحفاظ عليها) أقام نفسه كملك أعظم ، بينما أبقى على الأسماء والأشكال الدستورية

القائمة . ومنذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ، استمرت الإمبراطورية الرومانية تحت ظل حكم الأفراد ، الذين لم يتخذوا ألقاب الملوك [١] وإنما اتخذوا ألقاب الأباطرة [٢] ، وهو لقب كان يرتبط فى الأصل بقادتهم العسكريين المؤقتين . وأياً كان الأمر ، فإنهم فى الحقيقة يتحلون بكافة سجايا الملكية . وقد تقلد هؤلاء الأباطرة السلطة لما يقرب من قرنين إضافيين حتى الوقت الراهن — وهى قرون وصلت فيها الدولة إلى قمة تنظيمها ، ووصل الدخل العام أعلى رقم له ، وقد كان من شأن فترة السلم الطويلة الدائمة أن رفعت العالم إلى مستوى مضمون من الرخاء .

وقد أضيف عدد قليل من الأمم التابعة على أيدى الأباطرة إلى تلك الأمم التى كانت فى زمام الرومان بالفعل . وقد أخضعت الأمم الأخرى التى شقت عصا الطاعة ، ولكن مادام الرومان كانوا يستحوذون بالفعل على أحسن أجزاء الكرة الأرضية من يابس وماء ، فقد كانوا حكماء بدرجة تكفل لهم أن يهدفوا إلى الإبقاء على ما فى أيديهم دون التوسع فى إمبراطوريتهم إلى مالا نهاية له على الأقاليم المدقعة فى الفقر وعدد من الأمم غير المتحضرة عديمة الفائدة . ولقد شهدت أنا بنفسى ممثلين لهذه الأمم ينتظرون فى روما فى بعثات دبلوماسية ويطلبون أن يكونوا من رعاياها،والإمبراطور يرفض قبول تبعية شعوب ليست بذات قيمة لحكومته. وهناك عديد من الأمم التى يحدد سلوكها الرومان أنفسهم ، ماداموا لا يشعرون بفائدة من ضمها إلى إمبراطوريتهم . وهناك بعض من الأمم التابعة قدمت لروما هبات من خزائنها ، وهى فخورة بألا ترفض روما هذه الهبات رغم أنها عبء مالى ثقيل . لقد حصنوا حدود إمبراطوريتهم بحلقة من الجيوش القوية وقاموا بحراسة هذه المساحة الواسعة من الأرض والبحر بسهولة كما لو كانت مزرعة متواضعة .

---

(١) إننى أتصور أن هذا إكرام لقسمهم اصيل (المؤلف) :

(٢) « الأوتوقراطيون » فى اليونانية ترادف رسمياً (الأباطرة) فى اللاتينية (المحقق) .

ولم تقم حتى الآن إمبراطورية بمثل هذه العظمة ، دام بقاؤها لمثل هذه الفترة فبقاء الإمبراطوريات الهلينية لم يمتد إلى أى عدد كبير من السنين ، حتى لو جمعت أرقام فترات السطوة المتعاقبة لأثينا وإسبرطة وطيبة ، فيما بين حملة « دارا » Darius ، وهى مناسبة يحق لهم فيها جداً أن يباهوا بأنفسهم ، وإقامة سيادة فيليب بن « أمينتاس » Amyntas على هيلاس. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن نضالهم لم يكن شاقاً لتكوين الإمبراطورية بمطاردة المتنافسين المتبادلين ، بينما حدثت أكثر أمجادهم فى الدفاع عن حريتهم ضد عدوان الدول الأجنبية ، وقد واجهت الكوارث من أبحر منهم إلى صقلية أملا فى السيطرة الخارجية ، وتراجع كل من عبر منهم إلى آسيا على الفور ، بعد أن أحرز قليلا فى هذا الجانب كما هو الحال فى الجانب الآخر . وعلى العموم ، فان إمبريالية الهلينيين ، على الرغم من أنهم ناضلوا دون هوادة من أجل سيادتهم ، فإنها لم تجد أبداً موطىء قدم ثابتا فيما وراء حدود هيلاس ذاتها . لقد كانوا ناجحين بدرجة مدهشة فى تأجيل يوم الهزيمة الأغبر ويوم الوقوع فى الأسر ، ولكن يبدو لى أنهم منذ زمن فيليب بن أمينتاس وزمن الإسكندر بن فيليب ، كان لهم تاريخ من الفشل لا يتفق وماضيهم .

أما بالنسبة للامبريالية الآسيويه ، فإن الأعمال والصفات التى ترتبط بها لاتقوى على المقارنة مع أقل الأعمال شهرة فى أوروبا ، وهذا بالنسبة لضعف الأمم الآسيوية وخشيتها. وسوف يتضح هذا كلما عرضت تاريخى ، لأنه لم يكلف الرومان إلا معارك قليلة لهزيمة سائر دول آسيا التى ستظل تحت حكمهم ، هذا على الرغم من أن المقدونيين كانوا يظهرون أسبابهم بمظهر البطولة . إنها حروبهم فى أفريقيا وأوروبا التى أودت بالرومان . والحال كذلك بالنسبة للآشوريين والميديين والفرس ، أعظم إمبراطوريات ثلاث قبل الإسكندر بن فيليب ، فإن مدة استمرارها فى مجموعها لا تصل إلى فترة القرون التسعة التى تتمتع بها روما حتى الآن ، بينما لا يمتد اتساع رقعتهم ، فى تصورى ، إلى نصف رقعة الإمبراطورية الرومانية . وأنا أقيم هذا الافتراض على حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية تمتد من غروب الشمس والمحيط الغربى حتى منطقة القوقاز ، ومن نهر الفرات وقلب أثيوبيا ، التى تمتد فى المنطقة

عبر مصر والجزيرة العربية إلى محيط الشرق . إن الحدود الرومانية هي المحيط الذى يشرق فيه الكوكب المقدس ويغرب ، والرومان هم أسياد البحر الأبيض المتوسط وسائر الجزر الأوقيانوسية فى بريطانيا . ولم يبسط « الميديون » و « الفرس » سلطانهم البحرى إلى ما وراء الخليج البامفيلي أو إلى جـــزر أبعد من قبرص Cyprus وجزيرة أو جزيرتين صغيرتين من أيونيا . أما بالنسبة للخليج الفارسى (الذى سيطروا عليه أيضاً) ، فما هو الامتداد الفعلى لمسطح مائه ؟

وإذا ما عدنا إلى دولة المقدونيين — فى فترة ما قبل «فيليب» بن «أمينتاس» ألفيناها ضئيلة تماماً وتحت سيطرة أجنبية بين الحين والحين ، بينما كان عمل فيليب على الرغم من أنه كان يدعو للإعجاب باعتباره مثالا للجهد الشاق ، كان محصوراً فى هيلاس والمناطق المتاخمة . وفى زمن الإسكندر ، أذهلت الإمبراطورية المقدونية العالم باتساع رقعتها ، وسرعة عملياتها ونجاح تدابيرها ، إلا أنها لم تدم أكثر من ومضة الضوء ، هذا ، على الرغم من أن المجد قد عم الأجزاء طويلا ، حتى بعد أن تحللت إلى عدد من الولايات (١) المنفصلة . وقد احتفظ سلاطيننا (٢) وحدهم بجيش يتكون من ٢٠٠٫٠٠٠ من المشاة و ٤٠٫٠٠٠ فارس و ٣٠٠ فيل قتال و ٢٠٠٠ عربة مسلحة و ٣٠٠٫٠٠٠ من العتاد الاحتياطى . وكانت هذه هى قواتهم البرية ، بينما كانت قواتهم البحرية تتكون من ٢٠٠ زورق و ١٥٠٠ مقاتل (مرتبين من درجة ونصف إلى خمس رتب) ، مع ضعف هذا الرقم من المعدات اللازمة ، و ٨٠٠ من القوارب الصغيرة التى طليت مقدماتها ومؤخراتها بماء الذهب ، وكان الملوك يتفقدون بأنفسهم الأسطول على هذه القوارب . وكان لديهم أخيراً رأس مال يقدر بـ ٧٤٠٫٠٠٠ وزنة مصرية فى خزائنهم . وهـــذه الأرقام هى التى أظهرتها السجلات الملكية

---

(١) (الحافظ) Satrap فى اليونانية هى المقابل الفارسى القديم لكلمة (باشا) العثمانية الحديثة (المحقق) .

(٢) مثلا .... أسرة البطالسة المقدونية التى حكمت مصر وسواحل وجزراً كثيرة والبلدان الشرقية على ساحـــل البحر الأبيض المتوسط فيما بين وفاة الإسكندر وغزو مصر على يد أغسطس (المحقق) .

لملك مصر الثانى بعد الإسكندر لما وصلت إليه أسلحته وقواته ، والتى تركها على هذا الأساس الثابت . ولم يبزه أى ملك سواء فى المقدره المالية ، أو فى البذل عن سعة أو فى نطاق أعماله العامة ؛ إلا أن كثيراً من الولايات الأخرى قد تهاوت بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة . وأيما كان الأمر ، فإنها قد تمزقت فى الجيل الثانى ، بفعل الإبادة المتبادلة — وقـــد أصبح الاضطراب الداخلى هو المرض الوحيد القتال للإمبراطوريات العظيمة .

وقد ساعد الزمن والحكمة الرومان على أن يبرعوا فى بسط إمبراطوريتهم وإنجاحها . لقد بزوا سائر الأمم الأخرى فى الشجاعة والاحتمال والمثابرة التى وفروها لتأسيس سيطرتهم . ولم يدعوا أنفسهم يغترون بالنجاح فأقاموا سيادتهم بشكل كامل ، ولم يتطرق اليأس إلى نفوسهم بفعل الكوارث ، على الرغم من أنه وقعت فى بعض الأحيان أحداث أهلكت فى يوم واحد ٢٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ بالفعل من رجالهم المقاتلين . ولقد تعرضت العاصمة ذاتها للخطر ، وعانوا هجمات مستمرة من الطاعون ، والاضطرابات الداخلية فى وقت واحد دون أن يحيدوا عن طموحهم ، فشيدوا إمبراطوريتهم بوضعها الراهن خلال سبعة قرون من المتاعب والأخطار المضنية ، وجنوا فى النهاية هذا الرخاء وهو جزاء أرباب السياسة .

إن هذه القصة ، التى تملأ رقعة أوسع من تاريخ الإمبراطورية المقدونية (أعظم الإمبراطوريات قبل روما) كتبها بالفعل مؤرخون هلينيون ورومان كثيرون . وعلى أية حال ، فعندما بدأت دراستها كى أحصل على صورة كاملة لأعمال روما فى حالة كل أمة من الأمم التى اشتملت عليها ، وجدت نفسى دائماً أنتقل بمسئولياتى من قرطاجنة إلى أسبانيا ، ومن أسبانيا إلى صقلية أو مقدونيا ، أو إلى البعثات الدبلوماسية أو المحالفات التى اشتملت على الأمم الأخرى ، ومرة أخرى ، أعود إلى حلقة مفرغة ، إلى قرطاجة أو صقلية ، وذلك حتى نزول مرة واحدة فقط من على هذه المسارح قبل أن يسدل الستار . وأخيراً ،

فقد جمعت لمنفعتى الخاصة ، الأجزاء المتفرقة — على سبيل المثال ، جميع الحملات ، والبعثات الدبلوماسية والإجراءات الأخرى من جانب الرومان فى صقلية حتى التاريخ الذى أقاموا فيه النظام الراهن فى الجزيرة ، وكذلك ، سائر حروبهم ومعاهداتهم مع قرطاجنة ، وكافة البعثات الدبلوماسية المتبادلة بين الدولتين ، وكافة الضربات المتبادلة التى وجهوها أو تلقوها ، حتى التاريخ الذى صرع فيه الرومان قرطاجنة ، وضموا أمة البربر ، واستعمروا بالتالى القرطاجنيين أنفسهم وأسسوا النظام القائم فى شمالى غرب أفريقيا . [واتبعت الإجراء ذاته فى حالة كل أمة ، بقصد إثبات أن أعمال الرومان المعينة فى هذه الناحية — هى تحمل المغلوب أوضعفه ، وشجاعة الغالبين وحسن طالعهم ، وكافة الأزمات والأحداث الطارئة]. اعتقاداً بأن الآخرين قد يفضلون مثلى أن يدرسوا تاريخ روما على هذه الصورة ، وأنا أكتبه الآن أمة أمة ، مفضلاً حذف كافة أعمال أية أمة أخرى تشوش الرواية وأنقلها إلى قسم خاص بتلك الأمة . ورأيت ألا ضرورة لتاريخ كل حادثة ، إلا أننى سوف أشير إلى تاريخ الأحداث البارزة فى جمل اعتراضية . وفيما يختص بوضع الأسماء ، فإن الرومان يتسمون فى الأصل باسم منفرد لكل فرد ، شأنهم شأن سائر الأمم . ثم زاد عدد الأسماء بعد ذلك إلى اسمين ، ولم يمض وقت طويل حتى كان لهم اسم ثالث ، مشتق من العيب أو الكفاية الشخصية ، بدأ يضاف كعلامة مميزة فى حالات معينة ، تماماً مثلما اعتاد بعض الهلينيين أن يحملوا ألقاباً بالإضافة إلى أسمائهم. وغالباً ما سأورد الاسم كاملا ، خاصة فى حالة مشاهير الرجال ، حتى أحدد شخصيتهم ، إلا أنه فى الحالات العادية سوف أشير إلى شخصياتى بالأسماء التى إعتاد الرومان أن يعتبروها أكثر تميزاً ، سواء كانت تلك الشخصيات شهيرة أو غير شهيرة .

وسوف نجد فى المجلدات الثلاثة الأولى حكاية الرومان بأسرها فى إيطاليا ، ويمكن اعتبار هذه المجلدات الثلاثة كلها خاصة بايطاليا ، على الرغم من أن ضخامة مادة الموضوع قد اضطرتنى إلى أن أضع تقسيماً فيما بينها . فيصف المجلد الأول أعمال الملوك السبعة فى ترتيب زمنى ، وأعطيت له عنوان [دراسات رومانية — كتاب

الملوك] ويتناول المجلد التالى ، بقية ايطاليا فيما عدا القسم الساحلى للخليج الأيونى[١] وهو يسمى [دراسات رومانية — كتاب إيطاليا] وذلك حتى أميزه عن المجلد الأول . وكانت الأمة الإيطالية آخر ما كان على الرومان أن يتعاملوا معها ، كانت أعظم وأفظع اتحاد للسامنيت Samnites فى الجزء الساحلى للخليج الأيونى ودام الصراع ثمانين عاماً ، حتى نجح الرومان فى إخضاع السامنيين أيضا ، وكذلك الأمم المجاورة التى كانت متحالفة معهم والمستعمرات الهلينية على طول سواحل إطاليا الجنوبية . ويتميز هذا المجلد بعنوان [دراسات رومانية — كتاب الكات وصقلية وأسبانيا وهانيبال وقرطاجنة ومقدونيا] ... وهكذا ... فإن ترتيبها ترتيباً تاريخياً يتعلق ببداية كل حرب ، حتى على الرغم من أن النهاية الخاصة لتلك الأمة قد تقع فى تاريخ متأخر عن أمم كثيرة أخرى بدأت قصتها بعدها . إن الاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية فى روما نفسها ، والتى عانت منها بفظاعة أكثر من أى مضاعفات خارجية ، تقسم إلى مجلدات حسب قادة كل مرحلة — «ماريوس» Marius و « سولا » Sulla و « بومبى » Pompeius و « قيصر » Caesar و « أنطونيوس » Antonius والقيصر الآخر الملقب « أغسطس » Augustus ، ومن بين هؤلاء اشترك الاثنان الأخيران فى حرب أهلية ضد قتلة قيصر الأول وبعدئذ حارب الواحد منها ضد الآخر . وفى هذه الحرب الأخيرة من سلسلة الحروب ، خضعت مصر تحت سيادة روما وأصبحت روما نفسها ملكية .

هذه هى المجلدات التى قسمتها على أساس الأمم المختلفة ، والقادة الذين جمعت تحت أسمائهم الحرب الأهلية . وسوف يتعرض المجلد الأخير لكل القوى العسكرية التى يحتفظ بها الرومان ، وسائر الدخل الذى يستخرجونه من كل أمة ، أو زيادة المصروفات الداخلية على التحصينات والمحطات البحرية وإصلاحات أخرى من هذا القبيل . إن المؤلف الذى يتطلع إلى أن يصف عظمة روما عليه أن يبدأ

---

(١) هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط الذى يحوطه خليج الأدرياتيك فى الشمال وشريط ضيق يلاصق الحدود الصقلية فى أقصى الجنوب وبلوبونيزيا فى الجنوب (المحقق) .

بوصف أصله هو . إن شخصية كاتب هذه السطور معروفة لقراء كثيرين وقد أوضحها هو بنفسه ، ولكن من أجل التحديد ، عليه أن يذكر أنه « آبيان » من الإسكندرية وقد تولى منصباً قيادياً فى بلده ، وترافع فى محكمة الاستئناف فى روما ، وكان يحوز شرف منصب فى الخدمة الإمبراطورية . إن أى قارئ يتوق إلى أن يعلم تفاصيل أكثر سوف يجدها فى تاريخ حياة المؤلف لنفسه .

ديو كاسيوس كوكيانوس النقاوى

Dio Cassius Cocceianus of Nicaea

(١٥٥ — ٢٣٥ م)

تاريخ روما

(نص تاوخنتز Tauchnitz ، نسخة طبق الأصل ، المجلد الخامس ، الكتاب الثانى والسبعون . الفصل ٢٣) .

إن السبب الذى دفعنى إلى كتابة تاريخ الحروب العنيفة والاضطرابات الأهلية التى أعقبت وفاة « كومودوس » Commodus كان كما يلى : كنت قد كتبت من قبل ونشرت كتاباً عن الأحلام والتفاؤل التى ألهمت « سيفروس » Severus أمل الوصول إلى كرسى الحكم . وقد قرأ هذا الكتاب الإمبراطور بنفسه فى نسخة أهديتها إليه ، وقد كان عطوفاً بما فيه الكفاية فكافأنى بخطاب رقيق طويل . وقد وصلنى هذا الخطاب متأخراً فى المساء قبل أن أذهب إلى النوم مباشرة ، وقد كان موضوع تأليف عمل تاريخى يلح علىّ فى نومى بقوة خارقة للطبيعة . وهكذا أخذت فى كتابة تاريخ الفترة التى وصلت إليها الآن . ولما كان هذا المقال قد قوبل بشكل مرض للغاية من جانب « سيفيروس » نفسه كما حدث من جانب الجمهور ، عند هذا دفعتنى رغبتى إلى كتابة تاريخ كامل لروما . وعليه قررت ألا أترك المقال الأول كجزء منفصل ، بل أضمنه فى هذا الكتاب الأوسع ، كى أتمكن من كتابة القصة كلها من البداية حتى النقطة التى يسمح بها (الحظ) ، وهى بمثابة

وضيعة للخلف . ولقد آزرني (سيدنا الحظ) في عملي ، مكافأة على الروح الوقورة الحبيبة التي تناولت بها العمل . ففي تعبي وكدي كان الحظ يواسيني بأحلامه . لقد قدم لي آمالاً مشرقة للمستقبل وأكد لي أنني سوف أعيش حتى أتم عملي وأنه سوف لا يلوثني بعار . لقد خصص لي ، كما بدا لي ، الملاك الحارس في هذه الحياة ، وأنا بالمثل عايد له . إن مجموعة مواد عملي التي تشمل تاريخ روما بأسره من البداية حتى زوال « سيفيروس » استغرقت مني عشرة أعوام ، واستغرقت كتابة روايتي اثني عشر عاماً زيادة على ذلك . وسوف أكتب ما يجد بالسرعة التي تتطلبها الأحداث .

هيروديان السوري

Herodian The Syrian

(عرف في النصف الأول من القرن الثالث بعد المسيح)

تاريخ الإمبراطورية الرومانيـــة بعـــــد وفاة ماركوس أوريليوس(*) Marcus Aurelius .

(نص توبينر ا . بيكر J.I Bekker . الكتاب الأول . الفصل الأول) .

إن معظم الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بالكتابة التاريخية وعنوا بإحياء ذكرى الأحداث القديمة ، التمسوا شهرة ثقافية خالدة . وخشوا إذا ما فشلوا في أن يعبروا عن أنفسهم ، أن يطويهم الغموض الكبير المتضاعف ، إلا أنهم في رواياتهم التاريخية انتبهوا قليلاً إلى الحقيقة وكرسوا انتباههم الرئيسي للمحسنات البديعية ، متأكدين تماماً ، أنهم إذا أخطأوا في مجال الأسطورة ، فسوف يكافأون على سحر أسلوبهم ، وأن صياغتهم للحقيقة سوف لا تخضع لتمحيص دقيق . وقد اندفع البعض فأسبغ على الأحداث الطفيفة أو التافهة خطورة مبالغاً فيها بفضل تألق فنهم الأدبي وذلك بسبب عدائهم أو كراهيتهم للحكام المستبدين ، أو بسبب نظرتهم ،

---

* ١٦٩ م . . (المترجم)

سواء كانوا بدافع الاهتمام أو الأصالة ، إلى الملوك والبلدان أو الأفراد . أما بالنسبة لدورى فإننى لم أكن مقتنعاً بأن أتناول بعد الآخرين موضوعاً تاريخياً غامضاً لا يمكن أن يتحكم فيه ، إلا أننى جمعت مواد عملى بدقة متناهية فى وقت كانت فيه ذكرى الأحداث التى تسجلها ما تزال حديثة فى عقول أولئك الذين ينبغى عليهم أن يمعنوا فيها النظر . وإننى آمل أيضاً أن أدرس الأحداث الكبيرة التى تجمعت فى فترة لا طرافة فيها لأجيال المستقبل . إن مقارنة هذه الفترة بكل الزمن الذى انقضى منذ أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملكية فى عصر «أغسطس» سوف تكشف عن أنه تقريباً خلال القرنين اللذين يفصلان تلك الحقبة عن عصر ماركوس أوريليوس ، لم تكن هناك سلسلة سريعة من التغيرات على العرش مثل هذه السلسلة . كما أنه لم توجد تقلبات عنيفة فى الحرب الخارجية والأهلية ، أو انفجارات فى الأمم أو نهب المدن سواء فى عالمنا أو فى بلدان كثيرة غير متحضرة ، وكذلك لم تشهد مثل هذه الهزات الأرضية أو حالات الجو الوبائية ولا مثل هذا السلوك الشاذ للطغاة والأباطرة (وهو سلوك لا نجد مثيلاً له إلا قليلاً فى سجلات الماضى) وقد أبقى بعض هؤلاء الحكام على سلطانهم لمدة طويلة من الزمن ، وبعضهم إلى مدة أقل ، بينما لا يكاد الآخرون يتمتعون باللقب وشرف البقاء بعض يوم قبل أن يهلكوا . لأن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت خلال الستين عاماً إلى عدد أعظم من الحكام أكثر من الزمن اللازم ، مع عواقب غريبة وعنيفة . وكان من المفروض على مثل أولئك الحكام ، وقد طعنوا فى السن ، أن تمكنهم خبرتهم من صيانة مصالحهم الخاصة ومصالح رعاياهم ، إلا أن الآخرين الذين كانوا فى مقتبل العمر كانوا غير طبيعيين فى حياتهم الخاصة وثوريين فى إدارتهم . وهذه الاختلافات فى العمر والمسئولية تبعتها بالضرورة اختلافات فى السلوك ، وسوف أسارع الآن بربط تاريخ هذه الأحداث فى تفصيل ، وسأتناول الحكام المتباعدين فى الترتيب الزمنى .

يونابيوس السرديسى

Eunapius of Sardis

(٣٥٠ — ٤٠٥ م)

متابعة تاريخ دكسيبوس Dexippus الطبعة الثانية [1]

(نص توينر Historici Graeci Minores تحقيق ل. دندورف Dindorf المجلد الأول ص ٢٠٧)

إن تاريخ « دكسيبوس الأثينى » مرتب حسب سنوات الحكام السنويين لأثينا منذ هبتهم الأولى ، مع التنويه بمن يماثلهم من القناصل الرومان ، برغم أن الروايةذاتها تبدأ قبل أن يسمع عن أى من القناصل أو الضباط . إن السمة المميزة لعمل دكسيبوس هى أنه يغفل الفترة الباكرة التى تدخل فى نطاق الشعر ، فهو يتركها لأقلام أكثر كفاية من قلمه فى تأثيره على نفس القارئ ، بينما يقوم بجمع أكثر الأدلة جوهرية،والذى يبرز بمضى الزمن ، ويركزه فى شكل من الدقة التاريخية والنقد الأصيل أكثر قابلية للتأثير . إنه يسوق روايته فى قالب زمنى بتركيزها فى الأولمبياد وسنوات الحكومة الأثينية التى يقع كل أولمبياد فيها . إن المداخل التى يصدّر بها كتابه مفعمة بالجمال ، وهو يظهر خلال عرضه مدخلا رائعاً بابعاده المحسنات الخرافية والقديمة (التى يرددها إلى الصيادلة الذين وصفوها فى بداية الأمر ، لأنها من طرار قديم فقد شعبيته) . إنه يسمح لهذه المحسنات الخرافية والقديمة بالظهور ، عندما يكون بصدد عرض الحقبة المصرية ، وبصدد التركيز على سنوات الحكم الباكرة فى كل بلد، وبصدد ملاحظة مؤسسى التاريخ

---

(١) وهى الطبعة التى استبعد منها المؤلف لحد ما الهجمات التى شنها ضد المسيحية فى الطبعة الأولى . دكسيبوس، والذى كان يونابيوس امتداداً له ، كان مؤرخاً أثينيا شهيراً وكان رجلا منفذاً فى القرن الثالث بعد المسيح (المحقق) .

وآبائه ،فإنه يحاول توضيح ـ إذالم يؤكدرسمياًفى عبارات كثيرة ـ أن أسلافه ينتظرونه دائماً فى مقدمة عناصر غير تاريخية . وتشبه روايته المحكمة المركزة مخزن عطارة عام ، فيه تنسيق بديع ومناسب لبضائع تاريخية مستوردة فوراً بعد عملها على أيدى تشكيلة كبيرة من صناعها . ونجد كافة الأحداث ذات الأهمية التاريخية من وجهة النظر العامة أو الأحداث ذات الصلة بحياة أفراد مبرزين معينين ، نجدها معروضة بلا ملل ومنتظمة فى عمل « دكسيبوس » الذى يختمه بالإمبراطور « كلوديوس الثانى »[1] Claudius II . ويدخل « دكسيبوس » فى حسابه عدداً من الأولمبياد مع القناصل وموظفى أثينا المختصين ، متخذاً ألف عام كاملة أساساً لمشروعه . ويبدو أنه يخيم عليه الخوف من فشله فى أن يمد قراءه بعدد كبير كاف من السنين .

أما وقد اتخذت هذا العمل موضع دراسة لى فقد تمكنت من أن أتعلم من مثال « دكسيبوس » نفسه وأن أقدر قيمة الأخطار الحقيقية التى تشتمل عليها كتابة التاريخ فى شكل حوليات ، ولا سيما عندما يعترف المؤلف نفسه لقرائه بأن تقويمه ليس دقيقاً إنما هو موضوع تختلف حوله الآراء ، وعندما يكاد المؤرخ يتهم نفسه تقريباً ، كما فعل دكسيبوس ، بأنه قد أوجد رواية مضطربة مكتظة بالمتناقضات (بمثابة اجتماع دون رئيس) خلال التزامه بسلوك المنهج التقويمى . ويتردد فى أذنى دائماً ، المثل البيوتى الذى يقول (إنها ليست موسيقى) ، وقد ذكرت نفسى بأن الهدف المثالى وهدف التاريخ هو تسجيل الأحداث فى ضوء الحقيقة مع تقليل عنصر الذاتية ، أما هذه الحسابات التقويمية الصارمة ، التى تندفع كمتفرج لم توجه إليه دعوة ، فلا قيمة لها فى هذا الصدد . فماذا يمكن أن يسهم به التاريخ الزمنى فى حكمة « سقراط » Socrates أو فى عبقرية « ثيمستوكليس » Themistocles ؟ وهل الصيف هو الذى جعل العظماء عظماء ؟ أو هل لوحظ أبداً

(١) ٢٦٨ — ٢٧٠ (المحقق) .

هذا فى العام الأول من حكمه والذى بدأ فيه ذلك الحكم وانتهى — كان كلوديوس قد حكم الإمبراطورية لعام واحد فقط ، على الرغم من أن بعض الثقات يعتبرون أن حكمه قد امتد عاما آخر (المؤلف) .

أنهم ينمون أو يظللون صفاتهم الخلقية طبقاً لفصول السنة كما يفعل الشجر ؟ [أو هل لنا أن نقرر أن صفاتهم الفطرية والغريزية كانت فى كل حالة تمت ممارستها وحفظها فى نشاطها بدون توقف أو انقطاع ؟] وإذا ما كان الأمر كذلك فأى مغزى فى الهدف الحقيقى للتاريخ يمكن أن نجنيه من وراء معرفة أن الهامينيين قد كسبوا معركة عند ظهور كوكب الشعرى ؟ أو كيف تتحسن التربية التاريخية عند القارئ عندما يعرف أن فلانا قد ولد فى هـــذا اليوم أو ذاك ، هذا الذى أصبح فيما بعد شاعراً أو عازفاً شهيراً ؟ وإذا ما كان المعيار النهائى للقيم التاريخية هو القوة فى عرض قدر لاحدود له من الأحداث فى فترة زمنية قصيرة وفى مقرر سريع للقراءة ، أو أن نتوقع حكمة العصر فى أيام شبابنا بمعرفة المــاضى الذى يتلائم مع معرفة الخير والشر ؛ عندئذ فأنا مقتنع بأن هدف التاريخ قد أفسد مسعاه الـكتاب الذين يدمرون الغذاء الصحى الذى يقدمه التاريخ لهم فى ثوب غريب من القصص الاستطرادية التى لا لزوم لها ، والذين يلوثون مياه قصتهم الحلوة بالأسلوب الآسف. وأيا كان الأمر ، فقد يكون من نافلة القول الإفراط فى الحديث عن معرفة لا لزوم لها ، كما لاحظ « دكسيبوس » نفسه أن التقاويم غالباً ما تـكون متناقضة ، بينما لا يوجد اختلاف فى الرويات المحلية الموغلة فى القدم . وأية شخصية تطاول « ليـكورجوس الأسبرطى » Lycurgus شهرة فى جمهورية الآداب ؟ إن كل واحد يألف شهادة السماء التى صار بموجبها « ليكورجوس » كاهناً بشكل واضح بسبب نشاطه التشريعى ، إلا أنه ليس هناك كاتب يبحث فى هذه الأسطورة يتفق مع أى كاتب آخر فيما يتعلق بالتاريخ الذى سُنَّ فيه التشريع . إنهم يشبهون بملاحظى مبنى أو عمود أو نصب تذكارى هندسى ، يتفقون جميعاً حول حقيقة وجوده ، إلا أنهم يملأون المجلدات بمناقشات منمقة حول تاريخ بنائه . إن « ثوكوديدس » وهو نموذج للدقة يسجل فملاأن الحرب العظيمة والشهيرة والتى يؤرخ لها لمس فيها نفسه النـكسة ، وهى الأصل والمناسبة التى اختلفت حولها الأطراف حول تاريخ الاستيلاء على مدن معينة ، فالمؤرخ نفسهُ غير قادر على أن يحسم الموقف بدقة وبالتالى أن يبرز الحجج المختلفة لـكل منها . وما إن يصل إلى مشـكلة الأيام حتى يكشف

مضطراً بطلان الدراسات والأبحاث التقويمية وعدم جدواها .

وبعد جدل داخلي لا بأس به ، وبعد التأمل فى الخطوط المبينة آنفاً، وصلت إلى نتيجة (أوصى بها بالتالى كل المتحمسين للتقويم) أن الملاحظة الدقيقة للأيام والفصول هى من عمل الذين يعملون فى الأرض والحاسبين وبالطبع الذين يحملقون فى النجوم والذين ينهمكون صراحة فى الدراسات الرياضية أيضاً . وعلى هذا ينبغى أن أحذر قرائى فى الوقت المناسب من أننى بينما شرعت فى مهمة تسجيل الأحداث الماضية والمعاصرة وأنا أثق تماماً بقدراتى الخاصة ، فإننى أستبعد اضطرارى إلى تاريخ السنة أو اليوم على اعتبار أنه ينافى روح التايخ ، طالما ينظر إلى حكم الأباطرة ، على أنه وحدات زمنية علمية . وسوف يجدنى قرائى أسجل هذه الحادثة أو تلك التى وقعت إبان حكم هـذا أو ذاك ، وأننى تركت للآخرين أن يقفزوا فى الهواء الكاذب لتحديد عام أو يوم . وعندما أعبر عن الثقة فى قدراتى ، فإننى أعنى اتباع الثقاة الذين كانوا لأمد طويل هم المستنيرين فى عصرنا، والذين بدأوا مثالاً يحتذى لإنقاذ أحداث عصرنا من النسيان ومن الفترة التى تفصله عن النقطة التى ينتهى عندها تاريخ « دكسيبوس » — وهى فترة لم يسبق أن أولاها مؤرخ مرموق عنايته . وفى التكفل بهذا الأمر ، وهو شائع لدىّ ولدى من سبقونى ، أخذت حكم الإمبراطور « جوليان » Julian كموضوعى الرئيسى فهو يكتنف حياتى أنا .

لقد كان الجنس البشرى بأسره يبجل هذا الإمبراطور باعتبار أنه له .

(وعند هذا الحد يصبح المخطوط غير صالح . . . المحقق)

متابعة تاريخ ديكسيبوس — الجزء الثانى

(نص تويبنر Historici Graeci Minores ، تحقيق ل. دندورف . المجلد الأول صفحه ٢١٥) .

فى الفصول السابقة ، تم وصف الأحداث التى شغلت الفـــترة فيما بين النقطة التى انتهى عندها مؤلف ديكسيبوس وأزمنة جوليان ، تم وصفها بشكل مناسب فى تناول موجز بقدر الإمكان . وتتناول قصتى هنا البطل الذى كان

هدفاً لى منذ البداية ، ويدفعنى إلى أن أنغمس فى عمله بكل عواطف الود التى أكنها له . هذا فى حين أننى لم أره أو أستمتع بميزة الاتصال الشخصى به . فعندما كان جوليان على العرش كان كاتب هذه السطور مجرد طفل . إلا أن عواطف الجنس البشرى العامة ووحدة الآراء فى الضريبة التى تدفع لذكراه لها تأثير غريب لا يقاوم ويلهب الولاء له . وكيف يتسنى لى أن أصمت إزاء موضوع لا يمكن لأى إنسان آخر أن يلتزم الصمت إزائه ؟ كيف يمتنع المرء عن حكاية تستحسنها حتى شفاه غير المتعلم والجاهل ، اكتنزت عصر بطلى الذهبى باعتباره موضوعاً لحلاوة لا يفوقها شىء ؟ إن الرجل العادى لا يشعر بأنه ملزم بأن يعبر عن عواطفه الشاملة فى شكل أدبى ؛ ولـكن فى الحالة التى أنا بصددها فإن أكثر الأشخاص شهرة وتميزاً فى العالم الأدبى أبوا إعفائى من مهمة أعفى أنا نفسى منها بسرور . لقد أظهروا لى التشجيع وعروض المعونة ، ولقـــد عبر الصديق الحميم للامبراطور « جوليان » «أوريباسيوس البرجاموسى » Oribassius of Pergamum الذى جعله تدريبه فى العلم الطبيعى مستشاراً طبياً عظيما ، وما يزال يمارس الطب بشكل عظيم ، بيّن فى لغة سهلة أنه من الجرم من جانبى إذا لم أباشر المهمة . وقد شرع « أوريباسيوس» لإرشادى ، فى تأليف مذكرات تفصيلية عن أعمال الإمبراطور ، وكل ما يعرفه بمعلومات كاملة من جانب أول من شاهدها ؛ وعلى ذلك وجدت نفسى لا عذر لى للتملص من العمل حتى إذا ما رغبت فى ذلك .

ماركوس الشماس

Mercus The Deacon

(٣٧٥ — ٢٤٥ م)

حياة بورفيريوس : أسقف غزة

(نص تويبنر تحقيق أعضاء مجمع الفيلولوجيا فى بون : الفصول ١ — ٣) .

إن نضال الرجال القدسين واشتياقهم الإلهى وغيرتهم هى بمثابة المنظر الذى يثبت عيون المتفرج . إن النظر إلى هذا النضال يوحى بالإعجاب . وبذات الوقت فإننا

قد نحصل على معلومات لا بأس بها من القصة إذا ما أعيدت روايتها ، عندما تلقنها لأرواح القراء عقول تلم بالحقائق إلماماً دقيقاً . وعلى الرغم من أن النضال في صورته الأولى أكثر قابلية للتصديق من صورته الثانية ، إلا أن الأخير يحمل فى طياته الإقناع إذا ما استمد من مصادر موثوق بها . وإذا ما بقيت سجلات الأحداث الزاخرة بالمعرفة دون عبث ولم يتسرب الزيف إلى الحق لبدت كتابة مؤلفات فى هذا الموضوع لا لزوم لها . إن إشاعة الحق بين قلوب كل جيل عن طريق التراث الشفاهى من شأنه أن يكون فى هذه الحالة كافياً لأغراض التثقيف . وكذلك ، لما كان الزمن قد أفسد السجلات ، سواء بتقادم العهد على المذكرات ، أو العبث عمداً فى الرواية، فقد اضطرنى هذا إلى أن أتكفل بالمؤلف الحالى . وهدفى هو إنقاذ مذكرات رجـــل قديس مثل القديس « بورفوريوس » من أن يطمسه مرور الزمن . فإن تسجيل ما قام به ليعتبر وقاية حقيقية لأولئك الذين يقرءون له ، ومن الأوضاع المتناقضة أن الكتاب المسرحيين والمؤلفين الآخرين يبذلون طاقاتهم الأدبية فى الطرف وحكايات السيدات المسنات ، بينما تترك ذكرى القديسين للنسيان ، دون أى جهد لإنقاذها من المصير الأخير الذى ينتظرها . إننى أرتجف عندما أفكر فى الجريمة التى أرتكبها إذا ما أنا فشلت فى إعلاء شأن مصير رجل كهذا — محبوب من الله — فى شكل أدبى دائم مصير غيور على المدينة السماوية التى نستمد منها إدراك الحياة .

وسوف لا أنص على حروبه ومنازعاته ضد قادة عبدة الأوثان وأبطالهم فحسب بل ضد سكان بأكملهم يستحوذ عليهم الجنون فى كافة أشكاله أيضاً . لقد تذكر القديس كلمات الحوارى المبارك ، التى يقول فيها : « اتكل على الله . حتى تكون قادراً على أن تقاوم فى اليوم المخيف ، وأن تقف إذ أكملت كافية الأشياء» . وهذا هو السلاح الذى تمنطق به التلميذ السالف الذكر عندما دخل فى منازعاته ، وإن « بورفيريوس » الذى ووجه بنضال فى مثل قسوة النضال الذى واجه الحوارى ، ضد خصوم متماثلين فى العدد والفظاعة ، قد توج بنصر مجيد مثلما توج به الحوارى أيضاً . وقد شيد تذكار هذا النصر فى قلب بلاد العدو ، فى شكل كنيسة المسيح

المقدسة التى أسسها القديس فى غزة . ولم تكن طبيعته الإنسانية هى القوة التى أحرزتها ، ولكنها الحكمة التى جلبت النعمة السماوية على هذا العاطفى المحب للكنيسة ، والذى أعد ليقوم بكل الأمور ويقاسى فى قضيته من أجلها . وكم من هجمة مريرة من أيدى الأعداء لم يصمد لها هذا الشخص العجيب وكم خدعة واستهزاء لم يصبر عليها ؟ وستطول رواية القصة الكاملة لهذا الرجل العظيم ، وقسمات كثيرة فيها ينظر إليها على أنها مشكوك فى حقيقتها . ولهذا سوف أحصر نفسى فى رواية حقائق قليلة أتذكرها أنا شخصياً من الفترة الطويلة لإقامتى معه ، عندما كان لى حظ الاستمتاع بهذه الروح المباركة والموهبة التى كان صحبها الحقيقون هم الملائكة . هذا القديس الذى وهب كل صفات الكمال جدير بثناء الجنس البشرى كله ، وبينما أنا حريص على أن تلك الصفات لمثل هذه الشخصية فوق التعبير عنها بكلمات،فإن صلواتهالقدسية تشجعنى حتى أشعر أن هذه المحاولة يجب أن تتم . وسوف لاتكون هناك عجرفة فى اللغة التى سوف أسرد بها قصتهالجميلة. والكتابات لا يمكنها أن تضيف إلى زينة حياة رجال بمثل هذه الشخصية زينة. بل على العكس ، فإن كمال سلوكهم يشرف الكلمات التى تسجله . وعلى هذا فإننى متشجع ، فى حالتى ، بصلوات القديس آنف الذكر ، لتناول هذه المهمة الأدبية . وخلال شفاعة هذه الصلوات ، فإننى أصلى من أجل نعمة ربنا يسوع المسيح ومساعدته ليمكننى بكافة الوسائل،أن أصف كمال ذلك الرجل القدوس والتمس من قراء هذا العمل ألا يرتابوا بمحتوياته . لقد كنت شاهد عيان لكمال « بورفيريوس » باعتبارى زميلاً له فى المعيشة والترحال والوقوع ضحية الاضطهاد حتى آخر يوم من حياته هنا على الأرض .

بروكوبيوس القيصرى

Procopius of Caesarea

(٥٠٠ — ٥٦٥ م)

تاريخ حروب جستنيان Justinian

(نص تويبنر.. مجموعة الأعمال . المجلد الأول تحقيق ج . هارى الكتاب الأول . الفصل الأول) .

كتب بروكوبيوس القيصرى تاريخ شتى الحروب التى شنها « جستنيان » إمبراطور الرومان ، ضد غير الرومانيين فى الشرق والغرب . وهدفه من ذلك إنقاذ أعمال على درجة كبرى من الأهمية من أن تتعرض ، إذا لم تسجل ، لاكتساح الزمن المنتصر اللانهائى ، الذى يهدد بإلقائها فى خضم النسيان . حيث يندثر ذكرها تماماً . ويعتقد المؤلف ، أن صيانة هذا التسجيل سوف تكون لها آثار هامة ومفيدة للأجيال الحاضرة والمقبلة ، فى حالة إذا ما وقع [الجنس البشرى] مرة أخرى خلال التاريخ تحت ضغط موقف مماثل . وإن الأطراف التى تحفزها إرادة الحرب أو تدفعها لتشرع فى تجربة القوة ، هذه الأطراف لها دروس قيمة تتعلمها من النتائج التى تقدمها أبحاث من هذا القبيل ، وهذه النتائج قادرة فى حالة عرض نضال مماثل فى الماضى على أن تلقى ضوءاً على مشكلة الحاضر محتملة الوقوع (على افتراض أن الموقف يعالج بحكمة) . ويشعر المؤلف نفسه أنه أهل بصفة خاصة لكتابة هذا العمل لسبب واحد وكاف ، هو أنه لما كان الناصح الأمين للجنرال « بليزاريوس » Belisarius ، فقد كان من حقه أن يسهم شخصياً فى سائر الأحداث تقريباً موضع البحث. وهو يعتقد بأن زينة الصحافة الحقيقية، هى التألق وزينة الشعر هى العواطف وأما زينة التاريخ فهى الحقيقة ولهذا السبب، فإن المؤلف لم يدار الجانب المظلم عند مناقشة حتى أقرب الأصدقاء إليه ، إلا أنه وصف

بإسهاب سلوك كافة هذه الشخصيات (سواء كان موثوقاً به لديهم أو العكس) بدقة واعية .

وسوف يكون من الواضح ، بالنسبة إلى عقل غير متحيز ، أن أحداث هذه الحروب كانت على الأقل بارزة ومهيبة مثل أى حادثة أخرى . لقد كانت هذه الأحداث مسئولة عن وجود شخصية أكثر شذوذاً ، أكثر من غيرها ، من الأحداث الباقية المسجلة ، فيما عدا (على وجه الاحتمال) من وجهة نظر القارئ الذى يصر على إعطاء الأولوية للقديم ويرفض أن يتأثر بأى شىء فى العالم المعاصر . والمثال الأول الذى يتطرق إلى ذهنى هو تكاف الإشارة إلى الفضائل العصرية مثل « رماة النبال » والاحتفاظ ببعض الألقاب (مقاتل يد فى يد) أو (رجال تحت السلاح) للمقاتلين القدامى ، متوهمين بشكل وثيق أن هذه الصفات العسكرية منقرضة فى عصرنا . ومثل هذه الافتراضات إنما تكشف عن سطحية غادرة ونقص مطلق فى خبرة الذين يفترضونها . ولم يخطر ببالهم أن رماة النبال فى شعر « هومر » هم من شهر فى وجوههم السلاح دلالة على اللقب المشين ، لم يكن لديهم لحم خيول فى ركبهم ولا رماح فى أيديهم ولا سترة حديدية تغطيهم . لقد ذهبوا للقتال على الأقدام ، وأجبروا على أن يتستروا خلف درع واق لأحد رفاقهم أو الاحتماء فى ضريح — أجبروا على أن يأخذوا وضعاً حال بينهم وبين انتشال أنفسهم من الهزيمة ومن مطاردة عدو يتقهقر ، وفوق هذا كله ، من القتال فى العراء . ومن ثم فإن شهرتهم جاءت من قيامهم بدور مستور فى لعبة الحرب ، بينما تحملوا قليلاً مع فنهم بمعزل عن ذلك كله ، الذى يقضى بأن يشدوا فى قذيفتهم خيط القوس إلى الصدر ، وينتج عن ذلك بطبيعة الحال أن تنتهى القذيفة ، ويبطل تأثيرها بفعل الفترة التى تصل فيها إلى الهدف . وقد كان هذا بلاشك هو المستوى الذى وقفت عنده النبال فى أزمنة باكرة . وعلى النقيض فإن النبال العصرية تستخدم مجهزة بدرع وركب جلدية وجعبة سهام على الجانب الأيمن والسيف على الجانب الآخر ، بينما بعض الفصائل لديها رماح معلقة فوق أكتافهم وترس صغير

بلا مقابض [١] على شكل قطر دائرة يغطى الوجه والرقبة . أما وقد أصبحوا فرساناً مرموقين ، فقد تدربوا على أن يثنوا قوسهم دون جهد على الجناح عند اتخاذ وثبة كاملة ، وأن يضربوا عدواً يطاردهم فى مؤخرته كما يضرب العدو الذى يتقهقر فى مقدمته . إنهم يشدون حبل القوس إلى الوجه ، فى مستوى الأذن اليمنى تقريباً ، الذى يجعل للقذيفة قوة كهذه بحيث يكون اصطدامها قاتلاً حقيقة ولا يستطيع الترس أو الدرع أن يقاوم زخمته (قوته المتحركة). وأياً كان الأمر ، فبعض الناس يؤثر تجاهل وجود هذه الفضائل ويثابر على تملق مكشوف للقديم ويرفض أن يسلم بتفوق المخترعات العصرية . إن سوء فهم على هذه الشاكلة ، لا قيمة له بالطبع ، فى سلب الحروب الصغيرة أهميتها الفائقة .

تاريخ لم ينشر

(نص توبيتر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، تحقيق ج . هارى : تاريخ لم ينشر ، الكتاب الأول ، مقدمة .)

فى كتابى (التاريخ الحربى للشعب الرومانى) حتى التاريخ الراهن ، قد رتبت وصفى للأحداث تحت عناوين زمنية وجغرافية بأقصى ما فى وسعى . وفى بقية عملى سوف أتبنى مبدأ مغايراً فى التأليف ، فسوف أسجل كل شىء حدث فعلا فى كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية . وسبب تغير هذا المنهج هو أنه كان من المستحيل أن نسجل هذه الأحداث بطريقة صحيحة ، طالما بقى أصحابها على قيد الحياة . كان من المستحيل بالدرجة الأولى ، أن نفلت من جيش الجواسيس أو أن نهرب من دمار الموت المرعب ، إذا ما اكتشف أمرنا ، بينما لا يمكن أن تكون هناك ثقة فى ولاء حتى فى أقرب

(١) (على وجه التخمين) يعلق على الكوع ولا يمسك به بقبضة اليد . انظر لوجه الفارس البارز للملك خسرو الثانى ملك فارس (حكم ٥٩١ — ٦٢٨ م) فى تاك ـ ى ـ بوستان ، الذى أعاد عرضه فى Am Tor von Asien E. Herzfeld (برلين ١٩٢٠ ريمر) . المحقق .

المقربين . وعلى هذا كنت مجبراً أن أحجب أسباب كثير من الحقائق المذكورة فى مجلداتى السابقة ، ومهمتى فى العمل الراهن من شأنها أن تفسر حقائق مرت حتى الآن فى صمت ، وبالمثل أسباب حقائق غير واضحة حدثت بالفعل .

وعند الشروع فى هذه المحاولة الثانية العسيرة التى لا تقاوم ، وهى محاولة كتابة تاريخ حياة « جستنيان » و« ثيودورا » Theodora فإننى أجد ملكاتى وقد شلت عندما أفكر أن محتويات العمل الراهن تبدو أنها ليست جديرة بالثقة أو التصديق من جانب أجيال المستقبل ، ولا سيما عندما أضع فى اعتبارى كيف أن مجرى الزمن الدائم يستنزف العمر الضعيف فى كل رواية . إننى أخشى أصلا اكتساب شهرة الروائى وأخشى أن أوضع فى مصاف المؤلفين المسرحيين أكثر من مصاف المؤرخين . وأيما كان الأمر ، فلدىّ سبب واحد للثقة يمنعنى من الإحجام عن تحمل عبء عملى ، وهذا السبب هو وجود شهود عيان على صواب روايتى . فإن الجيل الراهن هو شاهد يلم جيداً بالأحداث محل البحث ، وإننى قد أتركها لأيدى أمينة كى تنقل لقرائى فى المستقبل اعتقادهم الخاص بصدق .

وأيما كان الأمر ، فهناك اعتبار آخر ، طالما عاقنى حينما استحوذ علىّ حماس هذه المهمة الأدبية . وتشككت فى أن يكون إتمامها ضاراً بالأجيال المقبلة . إن أكثر الجرائم فظاعة هى على وجه التحديد تلك التى يرغب فى إخفائها عن الخلف ، حينما يتطلع الحكام المستبدون إلى عدم تكرارها كما يفعلون ذلك ولا شك إذا ما وصلت معارفهم . إن حكام اليوم هم فى العادة غير واهمين . إذ أنهم يجدون من الأوفق أن يروا الجانب السيىء من أسلافهم وقد ظهر فى محاكاتهم ، وأن خطأهم فى المقاومة الأقل يعيد بشكل غير مغاير أخطاء الماضى . وأيما كان الأمر ، فقد دفعت هنا بالتالى إلى تسجيل تاريخ الأحداث مرتبطاً بالتأمل الذى يقضى بأن طغاة المستقبل سوف يتلقون منها دروساً معينة مفيدة — أولها أن الجزاء على رذائلهم ليس من المحتمل أن يصيبهم ، كما أصاب أشخاص روايتى ، بينما فى المحل الثانى سوف يسجل سلوكهم وشخصيتهم إلى الأبد ، وهو اعتبار قد أوقف الباعث عندهم على الخطأ . إن عمل

« سميراميس » Semiramis الداعر وجنون «سردانابالوس» Serdanapalus و « نيرون » بعد هذا كله لم تكن ليعرفها فرد واحد فى الأجيال المقبلة إذا لم تكن السجلات قد تركت لهم من المؤرخين المعاصرين ، والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الرواية قد تبدو كلها مفيدة لضحايا طغاة المستقبل فى ظروف مماثلة . إن الكادحين يستمدون السلوى عادة من إدراكهم أنهم ليسوا وحدهم فى المصائب . ولهذا سوف أبدأ بروايتى ، وسوف أصف فيها من البداية سلوك « بليزاريوس » السيء . والسلوك المشين لجستنيان وثيودورا بعد ذلك .

أجاثياس الميرهينى

Agathias of Myrrhina

(٥٣٦/٥٣٧ — ٥٨٢) م

(تاريخ عصره)

(نص تويبنر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف — المجلد ٢ صفحة ١٣٢ . الكتاب الأول ، مقدمة)

ثم بريق نجاح يحيط بانتصارات الحرب وأكاليلها ، ودمار الدول وعظمتها ، وكافة زينات الأحداث الكبرى . وجوائز كهذه تجلب المجد والمتعة للمحظوظين الفائزين بها ، إلا أنه ، عندما يترك هؤلاء الفائزون هذه الحياة الدنيا ويمضون إلى العالم الآخر ، لا يجدون من اليسير أن يحملوا أعمالهم معهم . فيتسلل النسيان إليها ويلفها ، حتى تفسد المسار الحقيقى للأحداث ، وحتى حينما يرحل شهود العيان عن هذه الدنيا بدورهم ، فإن معرفة الوقائع تنطفىء معهم وتتشتت إلى لا شىء . إن مجرد الذكرى بمثابة وهم لا طائل تحته فليس له صفة الدوام أو قوة البقاء جنباً إلى جنب مع الزمن فى امتداده الدائم . وفى اعتقادى ، أن الأبطال الذين جازفوا عامدين بحياتهم فى سبيل بلادهم أو تحملوا عبء الآخرين فوق أكتافهم ، هؤلاء ما كانوا يفعلون ما فعلوا لو كانوا متأكدين أنهم حينما يصلون إلى قمة العمل الإنسانى ،

سوف تفنى شهرتهم معهم وتتحلل إلى لا شىء خلال فترة حياتهم القصيرة ، فيما عدا ما يمكن أن يعتبر بمثابة العناية الإلهية التى قوت ضعف الطبيعة البشرية بتقديم نعم وآمال دافقة من فن التاريخ . وإننى أتصور أن الزيتون وأطراف البقدونس لم توح إلى الظافرين بالأوليمب أن يظهروا عراة فى الحلبة ، وكذلك فإن الرغبة فى المنفعة المباشرة من الجائزة المالية ليست هى التى دفعت بخيرة الجنود إلى أن يتحملوا مشاق الحرب المفروضة والتى لا يمكن الخطأ فيها . إن الجائزة التى كدح فى سبيلها الفريقان هى المجد البراق غير القابل للتلف ، وهذا ما يمكن الحصول عليه فقط بالخلود المقصور على التاريخ ، الذى لا يحمل منهاجه أى مشابهة لطقوس « زامولكسيس » Zamolxis وحماقات العقيدة الجيتية (١) Getic ، ولكنها وسائل إلهية حقيقية وخالدة وهى الوسائل الوحيدة التى يمكن بمقتضاها للكائنات الحية أن تعيش إلى الأبد . وإنه لمن الأمور غير اليسيرة أن تقدم قائمة مضنية للنعم التى يملأ بها التاريخ حياة (الإنسان) ، إلا أننى لا أستطيع أن أنعتها فى عبارة بأن أعبر عن الرأى الذى لا يعطى الأولوية تماماً إلى الفلسفة السياسية وقد تكون صاحبة الفضل الأكبر من الاثنين . إن الفلسفة السياسية مربية عنيدة لا يمكن المساس بها ، توزع أوامرها وتضع أنظمتها إزاء الأهداف السليمة التى يبحثون عنها أو يتحاشونها . إن إقناعها لا يخلو أبداً من عناصر الإكراه ، بينما يعتمد التاريخ إلى أقصى حد ممكن على الجاذبية ، فيحيط دروسه بتنوع خصب من الإيضاحات ، ويقدم فى شكل أدبى ، الأمثلة التى حصل بها الرجال على الثقة من وراء ممارسة الحكمة والاستقامة وتلك الأمثلة الأخرى التى انقاد فيها الرجال إلى خطوة زائفة بسبب قرار أو فرصة مشئومة وذلك حتى يغرسوا فى النفوس برقة وبشكل غير محسوس الصفات التى يزدانون بها لحد كبير ، والتى توضح أكثر الجذور عمقاً ودواماً حتى تصبح متجانسة فى الطبع ويتقبلونها طواعية .

ونتيجة لتبصر طويل وتأمل فى امتيازات التاريخ ، شعرت بأنه من المحتم أن

---

(١) كان زامولكسيس النبى المبهم للجيتيين أو الداقيين وهى قبيلة هاجرت (فى القرن السابع ق . م على وجه الاحتمال) من أقاليم استبس أوراسيا إلى وادى الدانوب بين البلقان والكاربين وقد جلبت معها عقيدة متقلبة عن الخلود فتن بها الهلينيون (المحقق) .

أدفع له فريضة الإعجاب وأن أثنى على فضائل الإنسانية التى أنجزت بالفعل نتاج المؤلفات التاريخية، إلا أننى لم أشعر بأى إلزام فى أن أضع يدى فى هذه المهمة بنفسى حتى ولا مجرد أن أحاول ذلك . لقد كان حبى الأول ، منذ صباى، للشعر البطولى ، وإننى لمسرور فى خيلاء هى بمثابة التوابل للفن الشعرى . وأنا فى الواقع مؤلف قصـــائد قصيرة ذات تفصيلات ستة وبعنوان (Daphniaca) موشاة برومانسية عاشقة ومفعمة بجاذبيات أخرى من النوع ذاته . وبدا لى أيضا ، ذات مرة أنه عمل جدير بالثناء والشكر، أن أنقل مجموعة كاملة على قدر ما يمكن بقصيدة موسمية حديثة لم تـكن حتى ذلك الحين ذات صفة عامة ، ولـكنها كانت تتردد على شفاه قليلة دون اهتمام كبير بصحتها ، وأن أعد نسخة منقحة ومرتبة ترتيباً سليماً . ولقد كنت موفقاً فى تنفيذ هذا المشروع إلى جانب عـدد آخر من المشروعات الأدبية ، التى يمكن أن تستحوذ على جاذبية معينة وسحر خاص بها ، على الرغم من أنه يـكاد يمكن القول بأن لها هدفاً عملياً . وبالإضافة إلى هـذا ، فإن الشعر شيء قدسى وخارق للطبيعة . فهو يلهب النفوس غيرة (كما يعبر الفيلسوف ابن أرستون (١) Ariston) ويتولد عنه نتاج من الجمـال الفائق ، إذا ما كان ملهماً فى الأصل واستحوذ عليه الهوس الإلهى . وعلى هذا كان قصدى أن أكرس وقتى للشعر وألا أترك باختيارى هذه الحرفة الرقيقة والمبهجة ، سوى أن أتبع تعاليم دلفى وأن « أعرف شئونى الخاصة بى (٢) »

وأيا كان الأمر ، فقد قدر لى أن أولد فى جيل نشبت فيه حروب كبيرة غير متوقعة فى أجزاء كثيرة من العالم، وهاجرت بعض الشعوب غير المتحضرة إلى أوطان جديدة . وزخرت حياة الجنس البشرى كله بسلسلة من الأحداث الغامضة ولا يمـكن تصديقها لأنها اتسمت بنهايات شاذة ، وبذبذبات الحظ العنيفة ، وإبادة الأجناس واسترقاق الشعوب وإحلال شعوب أخرى محلها (٣) . وقد أوحت إلىّ رؤية هذه الأحداث المشئومة وغيرها ببعض الشكوك المعينة كتلك التى ينبغى علىّ

---

(١) هو أفلاطون (المحقق) .

(٢) كان النقش المشهور فى دلفى هو (اعرف نفسك) المحقق .

(٣) تنويه منمق بفقرة فى مقدمة ثوكوديدس (المحقق) .

ألا أكون مخطئاً فى حق (النور) إذ أتركها دون تسجيل أو دون ذكر ، وقد كنت معنياً لأقصى حد بأحداث كهذه ذات أهمية فائقة يجب أن تكون لها قيمة موضوعية للرخاء . ولقد وصلت إلى الخاتمة التى ينبغى ألا تكون بعيدة عن عنايتى لعمل بعض تجارب فى كتابة التاريخ، حتى يمكن أن تنقضى حياتى كلها حول رومانسية الأدب وغرائبه ، ولكن يجب أن تحمل بعض الثمار العملية على خير وجه . وقد زاد الباعث عندى قوة وإثارة إلحاح كثير من أصدقائى وتشجيعهم ، وعلى الأخص من جانب الصديق الصغير «يوثيخيانوس» Euthychianus بينما المبادرة قد تمت من جانب رسمى فى الخدمة المدنية ، جعلت منه شخصيته السامية وذهنه المتوقد وكمال تعليمه زينة متألقة لبيت (فلورى) Florii . فهذا السيد الذى وضع مصالحى فى قلبه وأولى تقدمى انتباهاً كبيراً سواء فى الشهرة الأدبية أو الشهرة العلمانية ، ثابر على أن يحفزنى ويتمنى لى النجاح . ولم يدع لى أن أعتبر المشروع صعباً أو فى غير طاقتى ، ولا أن تثبط همتى بجدة التجربة كما يفعل رجل البر فى رحلته البحرية لأول مرة . لقد أوصانى بأسلم وجهة نظر وهى أن التاريخ ليس بعيد المنال من الشعر ، وأن الفنين شقيقان فى أسرة واحدة وليس بينهما ما لا يمكن إدراكه ، فيما عدا نظم الشعر الذى يفرق الواحد عن الآخر . وكان لى أن أعتبر نفسى فى بيتى فى كل من المعسكرات وأن أتحرك وأبدأ العمل بثقة وطاقة متماثلتين . لقد وصلت تعاويذ أصدقائى إلى آذان صاغية فتنومنى تنويماً مغناطيسياً ، وهكذا تكفلت بالمؤلف الراهن . وإننى أثق بأن النتيجة قد تكون جديرة بغيرتى ، وقد تتطابق تقريباً فى أهمية الأحداث المسجلة .

وعلىّ بادئ ذى بدء أن أقتفى أثر التجربة المعتادة لكتاب التاريخ وأن أوضح هويتى . إن اسمى الخاص هو أجاثياس ، ومسقط رأسى هو « ميرهينا » وأبى هو « ميمنونيوس » Memnonius ومهنتى هى القانون والمحاماة . و (ميرهينا) التى أشرت إليها ليست عاصمة البلاد فى تراقيا ، كذلك فليس هناك مكان آخر فى أوروبا أو أفريقيا يحمل هذا الاسم ، فيما عدا مستعمرة (أيوليان) Aeolian فى آسيا ، التى تقع عند مصب نهر (بيثيكوس) Pythicus،

الذى ينبع من بلاد ليديا ، Lydia ، ويصب فى الخلاء الداخلى لخليج الإلياتيك Eleatic . وآمل أن أرد إلى مسقط رأسى جزاء تربيتى الكاملة لى ، وأن أنشر تاريخاً مفصلاً جديداً لكافة أعمالها التاريخية الشهيرة من جيل إلى جيل . وأما فيما يتعلق بالوقت الراهن ، فألتمس منها أن تقبل ثنائى راضياً وفى نغم حماسى أقدم وأمضى به إلى الأحداث الكبيرة ذات الأهمية العظمى .

وسوف لا يتمثل كتابى فى طبيعته بعض ما سلكه المؤرخون المعاصرون . فهناك بالطبع ، آخرون فى الوقت الراهن شرعوا بالفعل فى المهمة ذاتها ، إلا أنهم أولوا اهتماماً ضئيلا فى معظم الأجزاء للحقيقة أو رواية الأحداث كما تشكلت فعلا من جانب الحظ ، وآثروا بدلا من ذلك أن يتملقوا ويجاملوا عـــدداً من ذوى المناصب العالية بطريقة لا يمكن لأحد أن يصدقها ، حتى إذا ما تصادف أن قالوا الحقيقة . وأيا كان الأمر ، فقد أعلن الخبراء أن المبالغة فى جدارة الفرد هى من وظيفة الصحافة ، والصحافة وحدها ، بينما التاريخ ، على الرغم من أنه لا يرفض من ناحية المبدأ ، الإشادة بالأعمال الناجحة ، ونعى الانهيارات ، وأظن ، أننى أقبل هذا كهدف للتاريخ وخاصية له ، إذ أن سياء الأحداث تفترض المدح أو الذم ، فالتاريخ ليس مطلق اليد فى أن يصفى الأحداث أو يوشيها . إلا أن هؤلاء المؤلفين الذين يدللون على أنهم يكتبون التاريخ ويسمحون بأن يكون هذا الأمر واضحاً فى اعترافات الصفحات الأولى ، قد اقتنعوا نتيجة لفحص ممارسة سريعة ومنسابة ، اقتنعوا بالاسم الذى ينتحلونه لمؤلفاتهم . وهم ، فى تناول الأحياء (سواء حدث هذا بالنسبة للحكام أو لرجال آخرين مرموقين) لا يثنون عليهم فى رواية أعمالهم فحسب (التى قد تكون خطأ يغتفر إلى حدما) ، ولكنهم يعملون أيضا على إيضاحها لكل قارئ بحيث أن اهتمامهم الوحيد قد زاد عن الحد الضرورى لمدح أبطالهم وتمجيدهم . ومن ناحية أخرى ، فعند تناول الأموات ، أياً كانت شخصيتهم الحقيقية ، فإنهم إما أن يقدموهم باعتبارهم مجرمين ومن مصائب المجتمع ، وإما يسلكون مسلكا معتدلا فيتجاهلونهم وينكرون كل ذكر لوجودهم . وهذا هو تصورهم لمعالجة المصالح المؤقتة وتأمين المنافع الشخصية بالخنوع للسلطات القائمة . وهم لا يدركون أنه حتى أولئك الذين يكيلون لهم الثناء

لا يرضون أنفسهم بهذا الاهتمام ، واضعين فى الاعتبار كيف أن هذا الخيط الدقيق من الملق يمكن أن يعزى إلى شهرتهم . ويجب على هؤلاء المؤلفين أن يكتبوا كما يشير عليهم الاتجاه والتعود ، إلا أننى فى حالتى ، أصمم على أن أضع الحق فى اعتبارى الأول ، أياً كانت الظروف .

وسوف أسجل عمليات ذات أهمية عامة عند الرومان والجزء الأكبر من العالم غير الرومانى حتى تاريخنا الراهن (دون إهمال أى شىء هام) ، وسوف لا أقصر روايتى على أعمال الأشخاص الذين ما زالوا أحياء ، ولكن سوف أفسح حيزاً أكبر لأى شىء أو شخص رحل الآن ، وعلى هذا فعلى الرغم من أننى أتعرض لتاريخ الفترة التى تلت وفاة جستنيان ، حينما مانجح « جستن » justin الأصغر فى التربع على المنصب الإمبراطورى ، إلا أننى سوف أرجع إلى الفترة السابقة وجل همى أن أبحث عن أية أحداث لم يسبقنى إليها مؤرخ آخر . إن الجزء الأكبر من أحداث عصر « جستنيان » قد سجل بالفعل وبتفصيل على يد « بروكوبيوس القيصرى » (١) وبالتالى سوف أتركها ، مطمئناً إلى أنها لقيت تناولاً دقيقاً على يديه . ومهمتى الوحيدة أن أتناول القصة حيث تركها بروكوبيوس ، إلى أقصى حد من قدرتى ...

[يلى بعد ذلك جدول بمحتويات تاريخ بروكوبيوس]

إن الأحداث المشار إليها فى الجدول السابق تصل بالرواية حتى العام السادس والعشرين من حكم « جستنيان » (٢) ، وهذه (إن لم أكن مخطئاً) هى المسألة التى ختم عندها « بروكوبيوس » مؤلفه وأنهاه عندها . وعلى هذا سوف أنتقل الآن إلى الجزء التالى وهو ما كان هدفاً لى منذ البداية .

---

(١) المحامى (المؤلف) .

(٢) ٥٥٢ م (المحقق) .

تاريخ عصره : مقدمة المجلد الثالث

(نص تويبنر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف . المجلد الثانى صفحة ٢٣٦ الـكتاب الثالث . الفصل الأول)

ناقشت فى المجلد السابق أنظمة فارس ، وثوراتها السياسية المعقدة ، والمسائل الأساسية (كما أراها) والتى تتعلق بـ «خسرو» Chosroes وأسرته . وعلى الرغم من الحيز الذى لا بأس به والذى خصصته لتناول هذا الانحراف ، والارتباطات الطفيفة المقارنة معرما سبقها ، فإننى على ثقة بأن أحداً سوف لا يشعر بأنها من نافلة القول أو لا طائل تحتها ، إلا أن قرائى سوف يتفقون معى فى أن فيها ارتباطاً سعيداً من البهجة والمعرفة. ومقصدى، كما هو مفطور عندى ، ومسعاى الجاد هو أن (أمزج بين ربات النعيم Graces وإلاهات الفنون الجميلة Mu ses)، إلا أن هموم هذا العالم كانت تشدنى الى اتجاه آخر دائماً ، وتضطرنى الحاجة إلى أن أسير ضد كافة ميولى . إن مؤلفى التاريخى يعتبر أكثر الأعمال أهمية ورفعة يمكن أن يحوزه إنسان، إنه أرفع من أى عمل دنيوى آخر ؛ إلا أنه (مصداقاً لمنشدى بيوتيا العذاب) قد وضع قسراً فى المرتبة الثانية من حجة الحياة ، وقد منعت أن أحيا الحياة كاملة فى عالم رغبتى . وينبغى أن أعد دراسة تكميلية لأدب الماضى حتى أتخذها نموذجاً لى ، كما ينبغى أن أتأمل وأفحص فى تفضيل التجمعات المختلفة للمادة التاريخية ، وأن أطلق ذهنى يتفرغ ويركز مجهوده لهذا النشاطات. وبدلاً من هذا قبعت فى الغرفة من الصباح حتى المساء الذى أكتب موجزات لاحصر لها وأوراق لاعدد لها. وإننى حانق على الموكلين الذين يزعجوننى ، كما أننى أحس بالدهشة عندما لا يزعجوننى بدرجة كافية ، لأننى لست قادراً على أن أكسب قوت يومى دون متاعب وعناء . وأيما كان الأمر ، فمهما كانت المعركة شاقة فسوف لا أكف عن العناء الذهنى طالما كان انفعالى يعضدنى ، أيا كان من المستغرب أن تهدف للارتفاع جداً (أو أن تسعى لتجد مكاناً فى وعاء الفخار) . وقد يـكتب النقاد عن عملى أنه جنين عقل كاذب وغير ممـكن إدراكه وحائر بفعل شتات مصالح كبيرة ، إلا أننى آمل على الأقل

فى أن أكون واحداً من المنشدين غير الموسيقيين الذين يقدمون متعة مركزة لأنفسهم. أيا كان الأمر ، فقد حان الوقت أن أرجع الى روايتى ، لأنه اذا ما انغمست فى انحراف أبعد فقد أتهم فى إرتكاب ذنب لا يطاق .

ميناندر الديدبان *

Menander the Guardsman

(عرف فى النصف الأخير من القرن السادس بعد المسيح)

تاريخ عصره

(نص تويبنر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف المجلد ٢ صفحة ١)

لم يتمتع أبى ، « يوفراتيس » Euphrates ، كان مواطناً بيزنطياً ، بميزة التعليم العالى، أما أخى « هيرودوت » فقد اضطر ، عندما تذوّق التعليم القانونى فى البداية، إلى الثورة ضد المستقبل القانونى . ولم يسمح لى وعيى الذاتى أن أهجر القانون حتى أتممت دراستى ، وعلى هذا فقد أتممتها على أفضل ما أستطيع ، إلا أننى لم أمارس العمل القانونى أبداً . ولم أجد العمل فى المحاكم من نوع واحد ، وما زال فى الاتجاه المنتظم فى القاعات والمجهود الذى من شأنه أن يوجد تأثيراً صالحاً على المتقاضين بالتألق الذهنى أقل مرتبة. وعلى هذا أهملت مستقبلى بسبب مواصلة الاستهتار والتبذير بشكل كبير غير مرغوب فيه . لقد كان قلبى ينتظم فى الفرق الملونة (١) ، واضطرابات السباق ومنظر الباليه . وقد دخلت الحلبة أيضاً ، وقمت بحماقتى بصعوبة على الصخور حتى إننى نزعت عنى معطفى ، ومعه ذوق العام وآداب الحياة .

---

* يعرف فى التاريخ المسيحى بميناندر العراف ، إذ قال إنه (المخلص) وإن الملائكة خالقة العالم (المترجم) .

(١) هما الفريقان (الأزرق والأخضر) اللذان يؤيدان الخيول المختلفة فى السباق ، وكانا منظمين بإتقان حتى إنهما أصبحا ، فى القرن السادس بعد المسيح قوة سياسية فى القسطنطينية (المحقق) .

وقد استمر هذا حتى تقلد « موريس » Maurice التاج الإمبراطورى ، الذى لم يظهر قلقاً ورائيا فحسب إزاء رعاياه ، ولكنه كان أيضا محباً للأدب ، وقارئاً غيوراً للشعر والتاريخ لدرجة أنه اعتاد أن يقضى الجزء الأكبر من المساء فى متابعة هذه المتعة ، وبالتالى يشجع الأذهان المتراخية ويثيرها برغبات مالية . وفى ذلك الوقت اضطرتنى ضيق المؤلم للوسائل غير الكافية ، والتى كانت عقوبة لانجرافى فى الخيال ، اضطرتنى إلى أن أضع فى اعتبارى أيضاً تبذيرى الذى لا طائل تحته . وعلى هذا قررت أن أضع هدفا ما لحياتى بتحويل طاقاتى الى العمل الراهن الذى اتخذت فيه وفاة سلفى « أجاثياس » استهلالاً لتاريخى . .

وقد أقمت آمالى فى النجاح على أهمية موضوعى أكثر من امتياز أسلوبى ، لأنه لا يمكننى أن أبلغ ، بشكل معقول ، ذلك المستوى من الثقافة الذى يبرر تعرضى للتأليف الأدبى ، واضعاً فى اعتبارى الحياة التى لا أهميـة لها والمضطربة التى عشتها حتى الآن .

ثيو فيلاكتوس سيموكاتا[1] المصرى

Theophylactus Simocatta The Egyptian

(٥٦٠ — ٦٣٠ م)

التاريخ الكونى : حوار بين الفلسفة والتاريخ

(نص تويبنر تحقيق ك . دى بور C. de Boor)

الفلسفة : ما هذا يا بنى ؟ هلا حللت لى هذه المشكلة التى أتطلع لمعرفة سرها ، بخيط ذهبى من ضوء الحقيقة يرشدنى خلال البعد عن المتاهة الخرافية . إننى لأجد تناول التأملات بالغ الصعوبة فى تداوله .

---

(١) معناه (القط أفطس الأنف) — المحقق .

التاريخ : أيتها الفلسفة ، يا مليكة الكون ، إذا ما كان يصح حقيقة أن أكون معلماً لك ، وتكونين تلميذة لى ، لأجبت بقدر ما يسمح به ذكائى . إننى أتفق مع فيلسوف برقة [١] Cyrene فى رغبتى ألا أجهل شيئاً تجدر معرفته .

الفلسفة : أود أن أسألك يا بنى ، ما هى الوسائل بالتحديد التى جلبت بها الحياة للأمس وأول من أمس ، إلا أن عباراتى تتعثر مرة أخرى ، وكما لو كان العنان يلزمنى الصمت ، معتقدة بأن الرغبات يغمرها الحياء . هل ضللتنى خدعة مشموذة ؟ يا طفلى ، لقد مت لأمد طويل – منذ أن تم غزو البلاط الإمبراطورى على يدى الطاغية الكاليدونى [٢] Calydonian المكتسى بالفولاذ ، وشبيه الغول المتوحش الكوكلوبس* Cyclops والكنتور Centaur الذى لوث جلال رداء الإمبراطور وحط من شأن التاج الإمبراطورى لقاء جائزة من الدعارة . وأنا لا أستطيع أن أذكر جرائمه الأخرى إذا ما أنا راعيت وقار القارئ وكرامته . وبهذا الصدد نفسه ، فقد كنت أيضاً قد أقصيت عن النطاق الإمبراطورى ولم أجد مأوى فى أتيكا ، حيث كان سيدى سقراط قد أعدمه « أنيتوس التراقى » The Thracian Anytus . وفى الوقت المناسب جاء « بنو هرقل » [٣] بالخلاص ، وأعادوا الدستور وطهروا القصر من الدنس ، وأعادونى مرة أخرى فى النهاية إلى الأراضى الإمبراطورية . وتردد صدى صوتى فى الأماكن الإمبراطورية كما لو كنت ألحن اللحن الأتيكى القديم . كما هو الحال الآن ، ولكن ، يا بنى ، كيف تم إنقاذك ، وعلى أيدى من ؟ .

التاريخ : أيتها الملكة ، ألا تعرفين الكاهن الأعلى العظيم وسيد المعمورة بأسرها [٤] ؟

---

١) ربما كان أرستوبس أو كاليماخوس — المحقق .

(٢) هو الإمبراطور فوكاس الذى حكم من ٦٠٢ — ٦١٠ م (المحقق)

* (أصحاب العين المستديرة) عمالقة متوحشون يأكلون لحوم البشر (المترجم)

(٣) المقصود هرقل وأسرته التى أطاحت بفوكاس وذريته (المحقق) .

(٤) بطريرك القسطنطينية (سرجيوس) المحقق .

الفلسفة : لماذا يا بنى ، إنه من أقدم أصدقائى وذخرى الخاص .

التاريخ: إذن أيتها الملكة،قد وجدت بنفسك الرد على تساؤلك. إنه هو الذى رفعنى من مقبرة الجهالة ونفخ فى أنفاس الحياة. لقد كنت كالملكة الكستيس Alcestis وأعادنى هو بكل حماية هرقل . وبكرم الأمراء أخذنى إلى منزله وألبسنى ملابس زاهية وزيننى بعقد من ذهب . وهذه النسريحة التى ترينها قد رشق عليها جندياً ذهبياً[١] ، قد ألبسنى إياه المحسن العجيب ، والذى جعلنى أشع بوهج عقلى الراهن، وقدم لى منبر خطابة شيد عن طيب خاطر لاستعمالى الخاص ،وأطلق لى حرية قول الحق دون خوف من الأخطار .

الفلسفة : يابنى .. إننى أجل الرئيس النبيل لشهامته التى أبداها . ماأصعب مرتقى الأعمال الذى تسلقه ، حتى احتل مكانه على قمة اللاهوت الشاهقة وأقام مأواه على سمت الفضائل . إلا أنه لم يحتقر النجاحات الضئيلة . وقد كرس حياته إلى أسمى النشاطات الذهنية ، لأنه لا يمكن أن يتحمل أن يبقى هذا العالم الأرضى فى فوضى . فهل يولينى كل أحبائى ثقتهم كما يفعل هو . بكل تأكيد ، فإن الفكر إذا لم يكن قد تفلسف على الأرض فى شكل غير هيولى ، لأصبح متجسداً وعاش شبيهاً بالإنسان بين الناس .

التاريخ : يا مليكتى ، ما أجمل نسج إكليل ثنائك ، ولكن إذا ما تفضلت ، هلا جلست قليلاً تحت جذع هذه الشجرة الفارعة ؟ إذ أن فروعها تنتشر بشكل جذاب ، وارتفاع شجرة الصفصاف وظلالها هذه لجديرة بالإعجاب أيضاً[٢] .

الفلسفة : فلتبدأ الطريق يابنى ، وقدم للقارئ الحالى مقدمة كنقطة بدء للرواية . وسوف أمنحك فكرى كأى ملك من (إتاكا) Ithaka وسوف لا أصم أذنى، وإنما سوف أصغى لصوتك الفاتن وأنت تحكى قصتك .

---

(١) إشارة لا معنى لها إلى عبارة فى مقدمة توكوتيدس (المحقق) .
(٢) تنويه ساذج بمحاورات أفلاطون (المحقق) .

التاريخ : أيتها الملكة ، سوف أطيعك وسوف أهز قيثارة التاريخ . ولتتنازلى فتصبحين قوساً لى ـ أكثر الأقواس الموسيقية فى أى قيثارة . إنك محيط معرفة ومنهل فصاحة . فيك تكمن كل نغمة (كجزيرة محاطة ببحر لا نهائى) .

التاريخ الكونى مقدمة

(نص تويبنر تحقيق ك. دى بور . الكتاب الأول)

كان من اللائق أن يتحلى الإنسان باكتشافاته تماماً كما يتحلى بهبات الطبيعة لأن بقاءها معه هو المبدأ الإلهى العجيب للعقل . إذ أنه تعلم من العقل أن يبجل الله ويعبده ويتأمل التأملات المرئية من الطبيعة التى حوله ، وقد نزع جهالته عن تركيبه البدنى . وبالعقل يتعايش الإنسان مع الآخر ، وينفذ من السطح الخارجى إلى العقل الداخلى ، ويكشف أسرار وجودهم . وقد أمطر العقل نعماً لا حصر لها على الناس وهو مساعد عظيم إلى جانب الطبيعة . فإن ما لم تفعله الطبيعة ، أكمله العقل حتى تمامه — فيجعل الأشياء بهجة للناظرين ، ويجعل الشىء حلو المذاق ، ويرقق ملمسه أو يخشنه ، ويجعل أموراً أخرى متجانسة للأذن ، ويخلب النفس ويجذب انتباهها بسحر النغم . أليس هو العقل أيضاً الذى له حق الإدعاء بأنه خالق الفنون ؟ فمن الصوف نسج أقمشة الملابس ، ومن الخشب صنع النجار مقبض الفأس ، ومجداف البحار وترس الجندى والدرقة وهى خير معين له فى الحرب . وأكثر أهمية من هذا ، فقد نظم العقل التباين الذى لا حدود له فى التاريخ حتى يبهج القارىء ويثقف النفس . وكى تسبر غور النفوس ، ليس هناك أكثر جاذبية من التاريخ ، كما هو واضح بما فيه الكفاية بالرواية الواردة فى أوراق هومر .

لقد استمتع ابن «لائرتيس» Laertes بالضيافة فى بلاط الملك «انكينوس» Alcinous بعد أن ألقت به أمواج البحر أخيراً على الشاطىء ، وقد غمر «أوديسيوس»

* يقصد أوديسيوس (المترجم) .

بالشفقة . لقد قدم لضحية السفينة المحطمة الصارى Odysseus ملابس مشرفة ليضعها على خصره ، وكان ضيف الشرف على المائدة الملكية ، وقد وهب الغريب حرية الحديث وحرية إنهاء روايته . وابتهج الفيا كيون * من دراسة التاريخ حتى إنهم طردوا الذين كانوا يهتفون ، وغيروا شكل المأدبة فى المسرح ، وتفتحت آذانهم وحملقوا فاغرين أفواههم للراوى دون أن يملوا طول الرواية — هذا على الرغم من أن غالبية الحوادث كانت تجعلهم يغضون بأبصارهم ، إذ أن المجموعة قد اهتزت للمغامرات الخطرة حتى عاشوها مرة أخرى .

والعقل البشرى نهم لا يشبع عندما يولع إلى حكايات شاذة ، وهذا يوضح لماذا كان الشعراء أول من أحرز هيبة كقوة تربوية . فقد وجد الشعراء نفوس الرجال فضولية وتواقة إلى أن تتعلم متعطشة دائماً إلى القصص الغريبة ، واخترعوا الرواية لصالحهم ، وكسوا مادتهم بالأسلوب ، وغطوا أكاذيبهم بالقافية ، وانطلقوا فى شعوذتهم بالبحر السحرى . وكانت هذه هى قوتهم فى سحرهم حتى إن الناس اعتبروهم لاهوتيين .

وكان من المعتقد أن الآلهة تزورهم ، وأنها تفضح أسرار قلوبهم عن طريق شفاه الشعراء التى تروى الكوارث التى وقعت فى حياتهم . ولهذا سوف نجد التاريخ هو المعلم العالمى للجنس البشرى ، يطرح أمامنا ما ينبغى أن نفعل وما ينبغى أن نتجنب طالما كان من غير المحتمل أن ينجح . ومن الواضح أن استشارات التاريخ تعطى الجنود التمرس فى فنهم ، طالما يعرفون كيف يظهرون قواهم وكيف يراوغون العدو (بحيل الحرب) وتجعلهم يتوقعون مقدماً كوارث الآخرين وذلك بمعرفة أخطاء أسلافهم ، بينما تزيد من فلاحهم فى حالة النجاح وإقامة قمم شاهقة لأعمال عظيمة من بدايات صغيرة .

---

* الفيا كيون شعب بحارة ، كان ملكهم يسمى الكينوس . وله ابنة تسمى (ناوسيكا) وجدت أوديسيوس عريانا ، وطلبت منه أن يتبعها حتى أبواب المدينة ، وأخذ أوديسيوس يقص على مسامع الملك مغامراته إبان رحلته ثم يعود إلى جزيرة إيثاكا (المترجم)

وهو بالنسبة للمسنين ممرض ومزمار سليم ، وللشباب معلم فائق الذكاء يدير رءوسهم بخبرة المشيب . وهكذا يسهم بالمعرفة التدريجية التى تأتى مع الزمن . ولقد قررت أن ألقى بنفسى فى أحضانه ، حتى ولو كان المشروع فوق طاقتى بسبب خشونة أسلوبى ، وسخافة أفكارى ، وارتباك تعبيرى وعدم مهارة تأليفى . وإذا ما وجد أى قارئ هنا وهناك لمسة من غبطة فى روايتى ، فينبغى أن يرجع هذا للصدفة ، لأنها بكل تأكيد لا تعزى إلى كفاية الكاتب .

الجزء الثاني

فلسفة التاريخ

القسم الأول — التقاب

أوراق ورجال

(هوميروس : نص أكسفورد : الإلياذة، الكتاب السادس الأبيات ١٤٦ـ١٤٩)

انظروا إلى ورق الشجر ، فالناس هكذا ،
والأوراق عندما تذروها الرياح في دوامة التراب
سرعان ما تفرخ الغابة الخضراء ملايين جديدة ،
ثم انظروا ، جمال الربيع على العالم
يجيء ويمضي . وهكذا سائر بني الإنسان

جلبرت موري

الفنــاء

(هيرودوت : الكتاب السابع : الفصول ٤٤ — ٤٦)

حينما وصلوا إلى (أبيدوس)[1] Abydos ، رغب « كسركسيس » Xerxes في أن يستعرض جيشه . وقد شيدت منصة للمراقبة من المرمر مقدماً على ربوة في المكان المجاور[2] ، ومن هذه النقطة التي أشرفت على منظر الشاطيء ، استعرض « كسركسيس » القوات البرية والأسطول . وبينما هو يستعرضها ، راودته الرغبة في مشاهدة مناورات بحرية ، وحين أجريت هذه المناورات وانتصر الفينيقيون من (صيدا) Sidon ، ابتهج بالمناورات وبالحملة بأسرها . وحين رأى أن سطح الدردنيل Dardanelles يغطيه الأسطول ، وأن سائر رءوس الأراضي

---

(١) هي المدينة التي تسيطر على مضايق الدردنيل على الجانب الآسيوي (المحقق)

(٢) شيدها شعب أبيدوس بناء على أمر سابق من الملك (المؤلف) .

الناتئة فى البحر والأغوار فى منطقة أبيدوس تموج بالقوات، أسرع « كسر كسيس » بتهنئة نفسه ، ولكنه بكى بعدها . ولاحظ خاله « أرتابانوس » Artabanus دموعه ، وكان خاله قد عبر عن رأيه أصلا بشكل صريح فى غير صالح الحملة ضد هيلاس .

أما وقد رأى أن « كسر كسيس » ينخرط فى البكاء فقد حسب « ارتابانوس » أن فرصته قد واتته فقال : « مولاى ، ثمة تناقض شاذ فى سلوكك الآن ومنذ لحظة خلت ، لقد هنأت نفسك فى بداية الأمر وبعدئذ تبكى . » فأجاب كسر كسيس ، « لقد أذهلتنى الشفقة إزاء فكرة قصر الحياة الإنسانية بأسرها ، وعند ما تحققت من ذلك ، فمن بين هذه الجموع كلها ، ليس هناك فرد واحد سيظل على قيد الحياة من بعد مائة سنة منذ الآن . »

وأجاب أرتابانوس « لدينا فى الحياة خبرات أخرى تدعو للرثاء أكثر من ذلك . إذ أن مدة حياتنا قصيرة حقاً كما تقول ، ومع هذا فليس هناك فرد واحد ، سواء فى هذا الجيش أو فى العالم ، يكون سعيداً بصورة طبيعية حتى إنه فى فترة قصيرة كهذه ، لا يجد نفسه راغباً ، لامرة واحدة بل عدة مرات أكثر ، فى أن يموت ولا يحيا . إن ضربات المصائب ، وتخريب المرض جعلت الحياة القصيرة تبدو طويلة ، وعلى هذا يأتى الموت إكراماً مباركا للإنسان من الوجود الشرير ، بينما يعتبر الرب أنه إله غيور فى معاملته للإنسان عن طريق تذوق حلاوة الحياة التى يضن بها عليه » .

الكارثة الأثينية فى صقلية

(٤١٦ — ٤١٣ ق . م)

(ثوكوديدس : الكتاب السادس : الفصول ٢٤ ـ ٢٦ و ٣٠ ـ ٣٢ .
الكتاب السابع ، الفصول ٤٣ ـ ٤٤ و ٨٤ ـ ٨٧)

القـــــرار

قدر « نيكياس » Nicias فى خطابه متطلبات الحملة برقم كبير ، معتقداً أنه بذلك إما أن يعوق الأثينيين نهائياً عن الحملة أو أن ينجح على أية حال فى تقليل

الخطر إلى أدنى حد إذا ما اضطر للقيام بالحملة . وأيا كان الأمر ، فلم يكن التسلح المطلوب ليثنى الأثينيين عن رغبتهم فى الحملة ، إذ أنهم شعروا بباعث أقوى من أى وقت آخر . وكانت نتيجة حديث «نيكياس» عكس ما يريد تماماً . إذ أن نصيحته قد أخذت على أنها نوفر هامشاً فسيحاً يضمن سلامة الحملة .

واستحوذت على الجميع دون استثناء عاطفة صادقة إزاء المغامرة . فاعتقد الرجال المسنون أنهم إما أن يهزموا معارضيهم وإما على أسوأ الفروض ، يظل جزء من هذه القوى بمنأى من الكارثة ، أما الرجال فى سن الجندية فيدفعهم الشوق إلى رؤية أراضى غريبة وإلى دراستها ، وهم على يقين من أنهم سوف يعودون فى أمان. بينما تطلعت الجماهير[1] والجنود المختارون إلى اكتساب المال فى المستقبل القريب وإلى اكتساب أراضى جديدة ومنها تتدفق الضرائب بشكل دائم . إن رغبة الأغلبية المفرطة قللت من الانشقاقات الفردية التى تدعو إلى السلبية ، خوفاً من أن ينظر إليهم على أنهم غير وطنيين إذا ما أدلوا بصوت معارض . وترتب على هذا ، أن ثار عضو معين يعترض على « نيكياس » بسبب مراوغاته والتأجيلات غير الجائزة ، ودعاه إلى أن يعلن مرة وأمام الجميع فى هذه الجمعية من بنى وطنه ، أى تسلح ينبغى على البلاد أن تصوت لنيكياس من أجله . وأجاب « نيكياس» ، على مضض ، بأن ذلك الموضوع فى حاجة إلى مشاورات أكثر مع زملائه وإلى متسع من الوقت ، وكان تقديره الأولى للقوات المطلوبة لا يقل عن مائة سفينة حربية (حتى يتقرر فيما بعد رقم السفن الأثينية الصالحة فعلا للاستخدام فى النقل ، على أن تجاب البقية من الحلفاء) ، ويبلغ أقل مجموع للرجال خمسة آلاف أثينى ، وقوة من المشاة المتحالفة التى ينبغى زيادة عددها ، إذا كان ذلك فى الإمكان . أما بقية القوة الحربية التى تزود الحملة ، وتشتمل على رماة المقلاع والنبال وهم من الوطنيين والكريتيين وأى سلاح آخر يلزم للحملة ، ينبغى أن يكون بقدر مناسب ولم يكد ينتهى من الحديث حتى صوتت الجمعية على إعطاء الجنرالات سلطة مطلقة ،

---

(١) الذين عملوا كمجدفين فى الأسطول (المحقق) .

وتفويضهم حق إقرار قوة القوات وكافة تفاصيل الحملة مع حرية التصرف. وبدأت الاستعدادات منذ هذا الوقت ، وطلبت الاستعدادات من الحلفاء ، وقد سجلت الفصائل فى أثينا . وكانت البلاد قد شفيت لتوها من الطاعون والحرب الدائمة ، واستمدت المدنة قوتها البشرية من جيل جديد ؛ وتوافر احتياطى فى الخزانة ، وعلى هذا كانت هناك صعوبة قليلة فى الطرق والوسائل .

الانطلاق

كان الوقت صيفاً عندما أبحرت الحملة إلى صقلية . وقد حددت مواعيد غالبية القوات المتحالفة، وسفن الحنطة ، والتجار وبقية الأسطول الصغير، منذ تاريخ مبكر فى (كورفو) Corfui ، بهدف أن يعبر الأسطول كله البحر الأدرياتيكى من تلك النقطة عندعقب إيطاليا فى قافلة واحدة . وقد توجه الأثينيون أنفسهم وسائر الأمم المتحالفة التى تصادف وجودها فى أثينا ، إلى (بيرايوس) فى اليوم المحدد ، وشرعوا فى إعداد سفنهم للرحلة . وقد صحبهم إلى الميناء سائر سكان المدينة فعلا ، سواء المواطنون أو الأجانب . فقد كان المواطنون يودعون أصدقاءهم وأقاربهم وأبناءهم حسبما يقضى الحال ، بمزيج من إحساسات الأمل والأسف — الأمل فى الانتصار الذى ينبغى أن يحرزوه، والأسف بفعل أفكار تراودهم بأنهم قد لا يرون أصدقاءهم مرة أخرى ، واضعين فى اعتبارهم بعد الشقة بين موطنهم والأهداف التى يقصدن إليها . وعند هذا الحد ، حين أشرفوا على الرحيل من هدف إلى هدف آخر فى ظروف خطرة ، تحققوا من الأخطار التى برزت بشكل أكثر مما كانت عليه فى الوقت الذى صوتوا فيه للحملة . وأيا كان الأمر ، فإن ما شاهدوه بأعينهم قد شجعهم ، حينما رأوا قوة الحملة فى مجموعها وتفاصيلها . أما بالنسبة للأجانب وبقية الحشود فقد جاءوا يتفرجون على ما يمكن اعتباره تماماً مشروعاً مفروضاً وشاذاً ؛ لأن هذا الأسطول كان أكثر الأساطيل الهلينية إسرافاء وفخامة من القوات التى سبقته حتى ذلك الحين ، والتى تبحر من سواحل بلد واحد . والحملة والتى أبحرت مع « بركليس » إلى (أبيداروس) Epidaurus وبعدها مع

«هاجنون» Hagnon إلى (بوتيدايا)[1] Potidaea ، لم تكن أقل من الحملة الحالية بما فيها من مراكب وفصائل. لقد اشتملت على أربعة آلاف من مشاة الوطنيين الأثينيين ومعهم ثلاثمائة فارس، ومائة سفينة حربية، وخمسون سفينة حربية لسبيانية وخيثينية وقوات متحالفة إضافية كبيرة. وأيا كان الأمر، فقد كانت أهدافهم قريبة المنال وأجهزتهم ضعيفة، بينما كان من المتوقع أن يعمل الأسطول الحربى الحالى طويلاً، وعلى هذا زودت الحملة بكل المتطلبات من الأسلحة اللازمة لكافة عمليات الفرق. لقد أصبح الأسطول كاملاً بتكاليف باهظة بالنسبة إلى الربابنة[2] والدولة على السواء. وقدمت الخزينة إلى كل بحار (دراخما) إضافية يومياً، وأمدت السفن — وهى ستون سفينة كبيرة وأربعون ناقلة ببحارة مختارين وأعطى الربابنة أجوراً إضافية من الدرجة الأولى للبحارة العاديين علاوة على الأجر الرسمى[3]، وزودت السفن بشعارات ومعدات باهظة، ولم يدخروا وسعاً فى أية لحظه فى أن يجعلوا سفنهم تفوق سائر السفن الأخرى سرعة وخفة. وقد اختبرت القوات البرية بعملية دقيقة، وكانت هناك منافسة بين الأفراد فى شئون الأسلحة والمعدات. وقد سادت روح المنافسة بين الفصائل نفسها فى أعمال كل منها، واعتبرت الحملة بمثابة عملية استعراض لقوة أثينا وسلطانها ولصالح بقية هيلاس أكثر منها عملية حربية. ومجموع المبالغ التى صدرت عن أثينا فى هذه المناسبة تصل إلى رقم ملفت للنظر إذا ما أخذت إحصائية لنفقات الدولة العامة ونفقات خدمات الأفراد الخاصة. وتشتمل النفقات العامة على الصندوق الحربى للقيادة العليا، كما تشتمل على المصروفات التمهيدية، بينما من المفروض أن تشتمل النفقات الخاصة على ثمن اللوازم الشخصية (وفى حالة القباطنة، تشتمل على ثمن ما صرفوه بالفعل،

---

(١) فى ربيع وصيف عام ٤٣٠ ق : م على التوالى (المحقق) .

(٢) لا يشرف ربابنة السفن الحربية الأثينية عليها عادة عندما تكون فى مهمة، وكانوا طرازاً خاصاً من المواطنين يجهزون السفن ويدفعون للبحارة من جيوبهم الخاصة كنوع من الضريبة الإضافية (المحقق) .

(٣) كانت الدرجة الأولى من البحارة تتكون من الأثينيين عادة، أما الدرجات الأدنى فهى من الأجانب المقيمين (المحقق) .

والمقرر صرفه بعد ذلك على سفنهم) ، وثمن المخازن أيضاً . انتظاراً لاستمرار الحملة فترة طويلة . ومن الطبيعى ، أن كل فرد سوف يزود نفسه بمـا يفوق مصروفه . إن الإحساس الذى خلقه الأسطول الحربى بفعل جسارته الهائلة ومظهره البراق ليس أقل من سيادة قواته الساحقة على العدو المرتقب ، وإنما يعزى أساساً إلى أن تلك الحملة كانت أعظم حملة وراء البحار عن أى حملة قاموا بها من قبل .

وبعد أن جهزت السفن وكافة المعدات التى عزموا على أخذها معهم فى نهاية الأمر على ظهر السفن ، ترددت صيحة السكينة فى البوق والصلوات المألوفة قبل إلقاء المرساة — لا فى كل سفينة على حدة ، وإنما فيها جميعاً كوحدة واحـدة ، بقيادة المنادى . وامتلأت[1] الـكئوس من أقصى الأسطول الحربى إلى أقصاه ، وانسكب النبيذ من الأقداح الذهبية والفضية بواسطة الجنود[2] والضباط . وصلى الحشد على الشاطىء ، وانضم إليه المواطنون مع متفرجين أجانب . وبعدئذ أديت التحية العسكرية ، وتبعتها الشعائر الدينية ، ورفعت المراسى ، وسارت السفن فى خط عمودى تجاه جزيرة (أيجينا) Aegina حيث انطلقت بأقصى سرعة إلى (كورفو) التى كانت بمثابة (الميعاد) لبقية الأسطول الصغير .

الهجوم الأخير

قرر « ديموستنيس[3] » Demosthenes أنه من المستحيل الاقتراب من

---

(١) المعنى الحرفى « امتزجت » لأن الهلينيين اعتادوا أن يمزجوا النبيذ بالماء كما نفعل فى المشروبات الروحية (المحقق) .

(٢) كان المشاة الراقين قد نقلوا على السفن الحربية التى تتبع طبقة أكثر ثراء من البحارة (المحقق) .

(٣) القائد الأثينى الثانى ، الذى كان قد وصل بالإمدادات إلى نيكياس عندما شارف حصار سيراقوزه على الفشل من جانب قوات الحملة الأصلية . أما المرتفعات التى كان ديموستينيس بصدد الاستيلاء عليها فتشرف على سيراقوزه بنفس الطريقة التى تسيطر بها مرتفعات أبراهام على كويبك (المحقق) .

(المرتفعات) وتسلقها فى ضوء النهار دون أن يراهم أحد . وعلى هذا أصدر أوامره بأن تقدم الجراية إلى الفصائل طيلة خمسة أيام ، وأغرق كافة المهندسين بإمدادات الذخيرة والمواد المطلوبة لتحصين وضع جديد فى حالة النجاح ، واستعرض الجيش كله فى الساعات الأولى من الليل تحت قيادته . مع « يورميدون » Eurymedon و« ميناندر » باعتبارهما زميليه ، وتقدم نحو المرتفعات ، وبقى « نيكياس » فى الاحتياطى داخل الخطوط الأثينية . وضربوا المرتفعات عند « يوريلوس » Euryelus ، حيث كانت الطلائع الأولى للحملة قـد تسلقتها أصلا ، وأخذوا حراس (سيرا كوزه)على غرة ، وهاجموا المركزالسيرا كوزى المقام عند هذه الحدود واستولوا عليه وتسببوا فى مقتل عـدد من رجال الحامية وأيما كان الأمر فإن غالبية الحامية تشتت على الفور فى اتجاه محطات الجند الثلاث التى أقيمت على المرتفعات فى معاقل الخط الرئيسى . والتى أقيمت على التوالى على أيدى السيرا كوزيين والهلينيين الصقليين الآخرين وحلفائهم غير الصقليين. وجلب الهاربون معلومات عن الهجوم معهم وأبلغوها إلى الفصائل السيرا كوزية الستمائة التى كانت فى الخطوط الأولى على هذا القطاع من المرتفعات . وتحركت هذه الفصائل إلى الأمام على الفور وهى مدعمة ، ولـكن رجال « ديموستينيس » والأثينيون تصدوا لها واضطروها إلى التراجع بعد أن أبدت مقاومة شديدة . وواصل الأثينيون تقدمهم على الفور ، كى ينطلقوا إلى أهدافهم قبل أن تتبدد الرغبة فى الاندفاع ، بينما وزعت بعض الفرق الأخرى لهذا الغرض عندما بدأ الهجوم الأول وبدأوا فى الاستيلاء على القوة المعترضة التى أقامها السيرا كوزيون من قبل وأوقعوا فيها الاضطراب ، وهى الحامية التى فشلت فى أن تحافظ على قاعدتها ،وعندئذ بدأ السيرا كوزيون وحلفاؤهم والقوة التى يقودها « جليبوس[1] » Gylippus فى الحركة قدماً معززين من مخافرهم ،

---

(١) المقيم العسكرى الإسبرطى فى سيرا كوزة والذى أنقذ الموقف (المحقق) .

إلا أن جسارة هجوم الليل قد أخذتهم على غرة ، لقد كانوا فى حالة من الهلع عندما اصطدموا بالأثينيين ، وكانوا فى بداية الأمر قد فاقوهم قوة واضطروهم إلى التراجع . وأيا كان الأمر ، ففى خلال تقدمهم ، كان الأثينيون يهجرون مؤسساتهم ، فمن ناحية ،على افتراض أنهم قد كسبوا المعركة فعلا، ومن ناحية أخرى يبذلون جهداً فى التخلص بأسرع ما يمكن من سائر قوات العدو التى لم تكن قد اشتركت فى المعركة بعد والتى قد تجد فرصة لتعيد تشكيلها إذا ما كان هناك أى تراخ فى الهجوم الأثينى . وعند هذه اللحظة الحرجة قام البيوتيون فى بادئ الأمر بصد تقدم الأثينيين ؛ وواجهوا هجوماً مضاداً ، وأجبروهم على التراجع ، وعادوا أدراجهم مهزومين .

وعندما حدث هذا ، اختل نظام الأثينيين كل الاختلال وفقدوا صوابهم إلى درجة أنه لم يكن من السهل أن تحصل على رواية متكاملة لما حدث بعد ذلك من الجانبين . حتى فى العمليات التى تمت نهاراً ، وهى أقل بلبلة ، فإن الأفراد المقاتلين وجدوا أنه من الصعوبة أن يواصلوا تقدماً عاماً للعمل فيما وراء قطاعهم الخاص ، وعلى هذا فمن الصعب أن نتوقع معلومات محددة من جانب المشتركين فى عمليات المساء فقط فى الحرب الأخيرة والتى استخدمت فيها قوات لا بأس بها . وعلى الرغم من ضوء القمر الساطع ، فلم تكن هناك سوى إمكانية الرؤية على مستوى منخفض وهى من خصائص ضوء القمر ، وتمكن العين من أن تميز هيئة الإنسان عندما يدخل فى نطاق الرؤية ولا تمكن من تمييز العدو من الصديق . إن جماهير جنود المشاة التى تنتمى إلى كلا الجيشين كانت تقوم بمناوراتها فى مكان محصور ،واستسلمت بعض الفصائل الأثينية بالفعل ، بينما كانت القوات الأخرى تتقدم ظافرة فى الاندفاع الأول من هجومها . وكان قسم لا بأس به من الاحتياطى الأثينى يتسلق أو فى سبيل أن يتسلق المرتفعـــات ، ولهذا لم يعرفوا أية نقاط يتخذونها كأهداف لهم . ومن لحظة بدء الانهزام ، فقدت القوات فى الجبهة أنظمتها تماماً ، وجعلت الضجة من الصعب أن تميز الصديق من العدو . وكان

السيراكوزيون وحلفاؤهم يهتف[1] الواحدمنهم للآخر حتى يتابعوا انتصارهم ، بينما يقاتلون كل من يصطدم بخطوطهم . وكان الأثينيون يحاولون أن يتصل الواحدمنهم بالآخر ، وكانوا يعاملون كافة القوات التى تأتى من الاتجاه المعادى على أنها قوات معادية ، فى حين أن قوات حليفة فعلا قد تكون متراجعة من المؤخرة . وكانوا دائماً يتحدون أيضاً بعضهم البعض حول كلمة السر ، والتى كانت وسيلتهم الوحيدة التى يتحقق بها الواحد من شخصية الآخر ، وكان من شأنها أيضاً أن توقع صفوفهم فى بلبلة عندما كانوا يواجهون بعضهم للمرة الأولى . وتصادف أن أدى هذا إلى أن انتقلت كلمة سر أثينا إلى العدو بينما لم يكن من السهل على الأثينيين أن يكتشفوا كلمة سر أعدائهم ، لأنهم أبقوا على تشكيلهم كمنتصرين ، وعلى هذا كانوا قادرين على أن يتحقق الواحد من الآخر بسهولة أكثر . وبالتالى ، عندما حاصروا جزءاً أضعف من العدو ، تمكن هذا الجزء من الهرب لأنه يعرف كلمة سر الأثينيين بينما حين فشل الأثينيون فى أن يردوا على تحدى العدو ، أفنوا جميعاً . وأيا كان الأمر ، فقد قاسوا من الصياح أكثر من أى شيء آخر ، الأمر الذى أوجد اضطراباً فى كلا الجانبين . وعندما تعالى صياح قوات الأرجيفين والكوريكوريين Corcyraeans وبعض الفرق الدورية[2] الأخرى التى عملت مع الأثينيين ، وقع الأثينيون فى هلع ، وحدث الشيء نفسه بين صفوف العدو . وعندما حدث وفقد تنظيمهم ، اصطدم الأصدقاء وزملاؤهم بنى وطنهم الواحد مع الآخر فى عدد من النقاط على الخط ، حتى إنهم فى النهاية لم يفقدوا أعصابهم فحسب ، بل تضاربوا فعلا واستطاعوا أن ينفصلوا بصعوبة . ومات الكثيرون أثناء فرارهم من القوات المطاردة لهم ، وذلك بإلقاء أنفسهم من أعلى الصخور ، بسبب ضيق الطريق المنحدر من المرتفعات ،

---

(١) لم تكن ثمة وسيلة اتصالات عملية فى الظلام (المؤلف) .

(٢) « الدورية » كان اسم مجموعة من اللجهات اليونانية فى العالم الهلينى ، التى قد تقابل بعض مجموعات (الرومانسية) و (التيوتونية) فى أوربا الحديثة (المحقق) .

وعلى الرغم من أن أغلبية الذين بقوا على قيد الحياة والذين وصلوا إلى السهل نجحوا فى الهرب إلى المعسكر[١] ، فقد ضل الطريق عدد معين من القادمين الجدد[٢] ، وهاموا فى البلد حتى طلع عليهم النهار ، وهاجمهم فرسان السيرا كوزيين وأفنوهم .

الموقف الأخير

ومع عودة ضوء الشمس ، بدأ نيكياس يحرك قواته ، وهاجمه السيرا كوزيون وحلفاؤهم ، وكما حدث من قبل ، هاجموه بوابل من حمم القذائف . واندفع الأثينيون إلى الأمام نحو نهر (أسيناروس) Assinarus ، من ناحية تحت تأثير وابل هجمات فرسان أقوياء تساندهم أسلحة أخرى ، وتوقعوا من وراء هذا الاندفاع بعض الراحة إذا ما نجحوا فى عبور المجرى ، ومن ناحية ثانية تحت ضغط الإنهاك وتأثير العطش . وعندما وصلوا إلى الشاطىء ألقوا بأنفسهم فيه وانتهى كل نظام . وقرر كل جندى على حدة أن يكون أول من يعبر النهر ، فى حين أن هجمات العدو جعلت العبور عسيراً تماماً . وقد أجبروا على أن يندفعوا على شكل كتلة متراكمة ، وتعثروا فداس الواحد على الآخر ، وقتل بعضهم للتو بأطراف أسلحتهم ، بينما توغل الآخرون وجرفهم التيار . واصطف السيرا كوزيون على الشاطىء المقابل للنهر وكان شديد الانحدار ، وأمطروا الأثينيين شواظا من نار ، وكان معظمهم يشرب بشراهة واصطدم الواحد بالآخر فى قاع النهر المجوف . وجاء البلوبونيزيون واتخذوا مراكز قريبة وبدأوا المذبحة ، ولا سيما أولئك الذين كانوا

---

(١) ولا سيما الفصائل التى تتبع فى الأصل قوات الحملة ، والتى كانت تلم بالطبوغرافيا جيداً (المؤلف).

(٢) أعضاء قوات حملة ديموسثينيس الثانية ، التى وصلت أخيراً فقط (المحقق) .

فى النهر . وتلوثت المياه فى لحظة ، ومع ذلك استمرت الأغلبية فى شرب الماء ، موحلة ودامية كما هى ، بل تقاتلوا أيضاً للوصول إليها . وبالتالى ، عندما تكومت الجثث فى النهر وقطعت القوات إلى أجزاء — الجزء الرئيسى فى مجرى النهر ، والفارين على أيدى الفرسان — واستسلم « نيكياس» شخصياً إلى « جيليبوس » الذى وثق فيه أكثر مما فعل السيرا كوزيون ، وتوسل إليه وإلى الأسبرطيين أن يفعلوا ما يشاءون به شخصياً على أن يوقفوا المذبحة فى رجاله . وبعد هذا ، أمر « جيليبوس » بوجوب استسلام ذلك المركز ، وألا يخفى من كان قد بقى على قيد الحياة وأخذوا أسرى وسجناء (وكانوا عدداً كبيراً) ، وكذلك الثلاثمائة رجل الذين اقتحموا حصار الحرس أثناء الليل أسرتهم القوات التى أرسلت لتطاردهم . ولم تكن نسبة القوة الأثينية التى جمعت كسجناء رسمياً كبيرة ، بينما كان عدد أولئك الذين فروا كبيراً لدرجة أن صقلية امتلأت بهم ، فلم يصبحوا مسجونين نتيجة الأسر الرسمى . وقد قتلت نسبة كبيرة فعلا بشكل غير رسمى ، ولم تزدد الأشلاء المرعبة زيادة كبيرة كهذه فى أية مناسبة أخرى فى الحروب الأخيرة . وقد قتلت أعداد لا بأس بها من قبل فى الحملات الدائعة التى صاحبت مسير الحملة . وعلى أية حال ، فقد نجح الكثيرون فى النجاة بأنفسهم — وقد نجا بعضهم فور أن وقع فى الرق ، وبعضهم بالفرار بعد ذلك . وكان من جراء هذه الأعمال وجود مستشفى للمجاذيب فى (كاتانا) Catana .

وقد ركز الآن السيرا كوزيون وحلفاؤهم قواتهم ، وأعدوها لنقل المواد المستولى عليها وأكبر ما يمكن من الأسرى ، وكروا راجعين إلى المدينة . وقد أودع جميع الأثينيين وحلفاؤهم المواطنون الذين وقعوا أسرى فى المحاجر على اعتبار أنها أسلم طريقة لدفنهم ، فيما عدا « نيكياس » و « ديموستينيس » اللذين أعدما — على غير إرادة « جيليبوس » . وكان « جيليبوس » يرغب فى إحضار قادة الأعداء إلى إسبرطة على اعتبار أن هذا نصر شخصى له . على الرغم من أن أحدهما وهو « ديموستينيس » ، قد وضع ضمن مراتب أعظم أعداء إسبرطة بسبب أحداث

(بيلوس) Pylos وجزيرة (سفاكتيريا[١]) Sphacteréa بينما اعتبر الآخر كواحد من أعظم أصدقائها . وكان هذا بفضل جهاد نيكياس فى حض الأثينيين على السلام ، حتى إن الإسبرطيين الذين أسروا فى الجزيرة ضمنوا إطلاق سراحهم . وفى مقابل هذه الخدمة تصرف الإسبرطيون بلطف معه ، ويعود استسلامه ل « جيليبوس » لحد بعيد إلى ثقته فى هذا الاعتبار . وأيا كان الأمر ، فقد قيل إن بعض السيراكوزيين الذين كانوا على اتفاق معه ، خشوا أن يعترف تحت تأثير التعذيب . وهذه الاعترافات من شأنها أن تعكر صفوهم ، بينما الآخرون ، وعلى الأخص ، الكورينثيون ، كانوا يخشون أن يستخدم ثروته فى أن يشترى هروبه لقاء رشوة . وبعدئذ يكدر سلامهم مرة أخرى ، لحثت هذه الأطراف الحلفاء على أن يلتقوا حول الاتفاق على اعدامه ، وأصبح الدافع على الجريمة هو الأساس كما أوضحت . إنه آخر واحد من الجيل الهليني يستحق مثل هذا المصير ، واضعاً فى اعتبارى الدقة التى انتظمت فيها حياته على أعلى المبادئ .

وقد عامل السيراكوزيون فى البداية المسجونين معاملة بربرية . وعندما كانوا محشورين فى بئر منجم ضيق ، ظلت الشمس والحرارة الخانقة تعذبهم فى البداية ، وتعرضوا لها دون سقف يقيهم ، بينما هجمات ليالى الخريف الباردة ، مع تغير درجات حرارتها العنيفة ، اضرت أجهزتهم وتولد عنها المرض . واضطرتهم شدة الازدحام إلى أن يقضوا حاجاتهم فى المكان نفسه ، أما جثث الضحايا الذين ماتوا متأثرين بجراحهم وبتغير درجة الحرارة والأسباب الأخرى ، فقد تكومت جثة على جثة ، ونشأت رائحة كريهة لا تطاق . وبالإضافة إلى ذلك ، تضايقوا من عضة الجوع والعطش[٢] ، ولم يفلتوا من أحد الآلام التى تنتج لا محالة من السجن فى مثل هذا الفخ المميت . وكان عليهم أن يتحملوا هذه المعيشة إلى سبعين يوماً ، مكومين معاً

---

(١) حيث كان قد أسر قوة بليبونيزيه عام ٤٢٥ ق. م . (المحقق) .

(٢) كان غذاؤهم اليومى لفترة تزيد على ثمانية شهور أقل من نصف (بنتو*) من الماء والحبوب (المؤلف) .

* (البنتو ١٢٥ درهم) المترجم .

بشكل مختلط ، وسيقوا جميعاً فى نهاية تلك الفترة إلى سوق النخاسة ، فيما عدا الأثينيين وهليني صقلية وإيطاليا الذين انضموا إلى الحملة . ومن الصعب تقديم رقم دقيق عن مجموع عدد الأسرى إلا أنه لا يقل بالتأكيد عن سبعة آلاف .

وهذه المأساة التى كانت أعظم مأساة حدثت فى الحرب الأخيرة (وفى رأيى ، فى سائر التاريخ الهلينى المسجل) ، أضفت مجداً لا نظير له على الغزاة ، وجلبت كارثة لا مثيل لها أيضاً على المغلوب . لقد هزموا تماماً فى كل طريق ، لم يكن هناك شىء فى آلامهم على أصغر نطاق ، فالأسطول ، والجيش ، وكل شىء آخر اندثر تماماً بكل معانى هذه الكلمة ، وعادت قلة إلى مواطنها من ذلك العدد الكبير الذى غادرها .

عبء مقدونيا

(بوليبيوس : الكتاب التاسع والعشرون ، الفصل ٢١)

لقد أعاد مصير مقدونيا بشكل قوى إلى ذهنى كلمات « ديمتريوس الفاليرى [٢] Demétrius of Phalerum » . ففى مؤلفه عن الحظ ، الذى كان يهدف فيه إلى أن يبين إلى زملائه بشكل لا لبس فيه تقلب هذا المبدأ ، يقطع « ديمتريوس » روايته عن حقبة الإمبراطورية الفارسية التى أطاح بها الإسكندر ، ليسجل الملاحظات التالية :

ولست فى حاجة ، حتى تتأكد من الطابع المحير للحظ ، إلى أن تأخذ فى اعتبارك فترات كبيرة من الزمن تمتد إلى أجيال كثيرة . فإن نصف القرن الماضى يقدم مثالاً كافياً . فلنفترض أن قوة إلهية منذ خمسين عاماً مضت ، أنبأت الفرس وملك فارس بالمستقبل ، وفعلت ذلك أيضاً للمقدونيين وملك مقدونيا ، فهل نتصور أنهم فى ذلك الحين كانوا يصدقون أن اسم فارس — وكانت وقتئذ

---

(١) فيلسوف وسياسى أثينى ، حكم أثينا لصالح مقدونيا من عام ٣١٧ — ٣٠٧ (المحقق) .

سيدة المعمورة كلها — سوف يلطخ تماماً ، وأن المقدونيين — ولم يكن اسمهم معروفاً من قبل ، سوف يركع العالم تحت أقدامهم ؟ وأيا كان الأمر ، فإننى أعتقد ، أن هذه واحدة فقط من العلامات والعجائب التى يبين بها الحظ دائماً قوته للجنس البشرى ، إذ أنه عندما وضع مقدونيا مكان فارس القوية ، فهو يدلل بذلك على أنه عندما يقلد مقدونيا وسامات الإمبراطورية فإن هذا من أحكامه التى لا راد لها وتتفق مع حرية تصرفه .

وفى حالة « برسيوس[1] » Perseus فقد حدث هذا الطارئ فعلاً . وأثبتت عبارات « ديمتريوس » أنها موحى بها وكلمات أنبياء ، والآن ، وقد وصلت بى روايتى إلى تلك الحقبة التى أطيح فيها بملكة مقدونيا ، فإننى أشعر بصفتى أول شاهد للحادث ، بأنه سوف لا يكون لى عذر فى أن أمر عليها دون أن أحدد المغزى ونسبته إلى ديمتريوس ، والأمر عندى أن فى قوله تنبؤاً خارقا للعادة . لقد توقع بدقة مسار الأحداث قبل قرن ونصف تقريباً .

عبء روما

(بوليبيوس : الكتاب السادس . الفصل ٥٧)

إن التفكك والتحول الذى يتعرض له كل شىء فى العالم يمكن اعتباره فى الحقيقة قضية مسلماً بها من حيث إنه وضع يتفق فى ذاته مع وحدة الطبيعة . وأيا كان الأمر ، فهناك عمليتان ممكنتان قد يتم عن طريقهما تفكك أى شكل من أشكال الكومونولث — إحداها خارجية والأخرى داخلية ؛ وبينما تكون العملية الخارجية غير مطلوب دراستها علمياً ، فإن العملية الداخلية تخضع لقوانين ثابتة . ولقد فرغت من وصف الأطوار المتتابعة للتطور السياسى ، والانتقال من طور إلى طور ،

---

(١) آخر ملوك مقدونيا الذى هزمته وغزلته روما عام ١٦٨ ق. م. (المحقق) .

بما يكفى لتمكين القارئ ليستخلص الاستدلالات المنطقية من البحث الحالى بحيث يتوقع مستقبل نفسه . وفى رأيى لا أن المستقبل واضح . ففى حالة أى كومونولث يصد سلسلة من الأخطار الحادة ، ومن ثم يبلغ إلى مركز من السيادة والتفوق لا منازع له ، فمن الجلى أن الفيض الغزير من الرخاء من شأنه أن يوجد مستوى معيشة أكثر بذخاً ، ويوجد منافسة حادة للغاية بين الأفراد من أجل المنصب ومظاهر طموح أخرى . وإذ تقوى مثل هذه الميول ، تبدأ عملية انحلال عن طريق التعطش إلى المنصب والسلوك فى حياة لا ميزة لها ، كما هو الأمر فى مظهر الغرور والبذخ فى مستوى المعيشة . ويقع عبء هذا التحول على الجماهير ، عندما تمتلىء شعوراً بالظلم من جراء الجشع المادى لدى بعض سادتهم ، وعندما تغشاهم خيلاء زائفة من جراء عدم إخلاص الآخرين طمعاً فى مستقبل سياسى . عند هذا الحد ، تشعر الجماهير بالحنق البالغ من هذا كله ، وتستحيل إلى أداة طيعة فى أيدى العاطفة ، فإذا هم يطرحون عنهم كل تبعية للطبقات العليا ، بل وحتى المساواة معها ، ولا يلبثون أن يعرّفوا المصلحة العامة على أنها مصلحتهم . وإذا بلغ الأمر هذا الحد ، فإن الكومونولث يكتسب ألقاباً زائفة من الحرية والديموقراطية ، بينما هو فى حقيقة الأمر يرزح تحت عبء (استبداد الجمهور) .

مصداق الكتاب المقدس

(بوليبيوس الكتاب الثامن والستون : الفصل الثانى والعشرون[1] ، بروكوبيوس : الكتاب الخامس . الفصل الثانى والعشرون ١٢ — ٢٢) .

قرطاجنة : ١٤٦ ق . م

لقد ازدهرت قرطاجنة طيلة سبعة قرون منذ تأسيسها الأول ، وكانت سيدة أراض واسعة وجزر وبحار ، ونافست أعظم إمبراطوريات العالم فى قوتها الحربية

---

(١) بعد صياغته مرة أخرى ، من الشرح الذى قدمه آبيان (دراسات رومانية — كتاب أفريقيا الفصل ١٣٢) المحقق .

ودخلها وعدد أفيالها وسفنها ؛ وفاقت تلك الإمبراطوريات فى الطاقة والشجاعة لأنها ، حتى بعد أن جردت من السلاح تماما ، صمدت لمدة ثلاثة أعوام فى حرب مروعة وحصار قاس . وعندما شاهد « سكيبيو » Scipio هذه المدينة القديمة العظيمة تواجه الفناء الكامل إلى الأبد يقال إنه ذرف الدمع ولم يخف أنه يبكى على العدو . لأنه ظل لمدة طويلة متمسكا بأفكاره الخاصة ، وتحقق من إن المدن والأمم والإمبراطوريات كتبت لها الإرادة الإلهية أن تزول ، وتذكر أن هذا مصير (إليون) ILion التى كانت مدينة مزدهرة فى عصرها ، وأن هـــذا كان مصير الإمبراطوريات الأشورية والميدية والفارسية ، وكانت كل إمبراطورية منها أعظم إمبراطورية فى العالم فى دورها ، وهو مصير الإمبراطورية المقدونية ، آخر الإمبراطوريات وأكثرها تألقا . وبعدئذ كرر بصوت عال سواء عن قصد أو بلا وعى هذه السطور :

سوف يبزغ يوم الدينونة ، وفى ذلك اليوم
سوف تزول مدينة إليون المقدسة ،
ويزول بريام الرمّاح العظيم ، ورب
شعب بريام فى نظامه الأبى .

وقد سأله « بوليبيوس » وكان تلميذاً له ، فى عبارات كثيرة عما يقصده بالسطور السابقة. ويقال إن « سكيبيو » طرح كل تحفظ . ونطق باسم بلده، الذى كان ينظر إليه بتشاؤم كبير بسبب رأيه فى مصير الإنسان[١] .

روما : ٥٣٧ م

وفى هذه الأثناء شن القوط حملة ثانية ، سوف أشرع فى وصفها ، وهى الحملة ضد بوابة (أورليان) Aurelian ويقوم هناك ، خارج هذه البوابة ، وعلى بعد

(١) كان بوليبيوس أول من سجل هذا (آبيان) .

رمية حجر ، ضريح الإمبراطور « هادريان » Hadrian ، وهو أحد عجائب الدنيا . وشيد من رخام من نوع جيـــد وصبت المعابد دون ثغرات بين كتل الأخشاب أو عن طريق سد المادة السفلى بين الأوجه الخارجية والداخلية . وله أربعة جوانب متماثلة يبلغ طول كل جانب مسافة رمية حجر ويرتفع إلى أعلى من سور المدينة . وعلى القمة هناك تماثيل لرجال وخيول ، منحوتة من الرخام نفسه وبصناعة نفيسة . وكان هذا الضريح يعتبر بمثابة معقل المدينة وعلى هذا أحاط به القدماء واعتبروه ضمن التحصينات ، وذلك ببناء جدارين حاجزين يمتدان إلى الضريح من السور . والحق أن الضريح يشبه برجاً شاهقاً إلى جانب البوابة فى هذا القطاع . . . .

وبادر القوط بشن هجومهم على بوابة أورليان وبرج هادريان . دون أن يستخدموا المدفعية ، ولـكنهم أحضروا عدداً من السلالم المتنقلة ، على أمل أن يشلوا حركة العدو بشكل أكثر فعالية بتركيز إطلاق نيران الأسلحة الصغيرة وذلك كى يقهروا الحامية الضعيفـــة دون صعوبة . وتقدموا متسترين وراء تروسهم ، التى كانت كبيرة كتلك التى تستخدم بين صفوف الفرس ونجحوا فى الوصول إلى مدى قريب لمقاومة القوة قبل أن يـكتشف أمرهم ، وذلك بالاحتماء بالدير الذى يمتد إلى معبد « بطرس الرسول » Peter the Apostle . لقد كشفوا الغطاء وأطلقوا هجومهم فجأة حتى إن المدافعين لم يـكونوا غير قادرين على أن يجعلوا (مقاليعهم)[1] تقوم بدورها (وهى أسلحة تصيب فقط أهدافها على مستوى مرتفع) أو حتى أن يردوا على المهاجمين بأسلحتهم الصغيرة إذ أن تروسهم أبطلت مفعول هذه الأسلحة وشدد القوط من هجومهم ، واكتسحوا المعاقل بقذائفهم ، وكانوا عند الحدود التى يضعون عندها السلالم على الجدران . إن المدافعين عن الضريح وجدوا أنفسهم محاصرين تقريباً ، ولا يعرفون أى طريق يسلـكون ، وواجهتهم القذائف من الجناح والمؤخرة ؛ وظلوا لحظات حائرين

(١) مثل ... المدفعية الثقيلة التى ترمى كتلا كبيرة من الأحجار . (المحقق).

لا يدرون كيف ينقذون أنفسهم من وضعهم المحفوف بالخطر دون كوارث ، وأيما كان الأمر ، فلم يلبثوا طويلا ، قبل أن يفيقوا بدرجة تـكفى لتحطيم غالبية التماثيل التى كانت ذات حجم كبير ، ورفعوا قطع الرخام الـكبيرة فى كلتا اليدين ، وأسقطوها بشكل عمودى على رءوس العـــدو التى تهشمت فـور الاصطدام بالأحجار .

الموت ينهى المشكلة

(بلوتارك الخيرونى Plutarch of Chaeronea ٤٦ـ١٢٥مـ حيوات متوازية نص تويبنر تحقيق ك. سنتينس C. Sintenis المجلد الثالث ص ٢٧٠ — ٤ حياة بومبيوس ماجنوس الفصول ٧٧ — ٨٠) .

عندما استنفدت خطة البحث عن مأوى فى مصر طوال اليوم ، أبحر « بومبيوس » وزوجته من قبرص فى سفينة حربية سليوقية Seleucian ، وكان جزء من الحاشية يصحبه على سفن حربية أخرى وجزء آخر على سفن تجارية . وبعد رحلة هادئة عبر البحر الـمكشوف ، تلقى تعليمات تقول بأن الملك « بطليموس » يعسكر فى (الفرما) Pelusium مع القوات المسلحة ويباشر عمليات حربية ضد أخته . فأقام هو أيضاً (بالفرما) ، بعد أن كان قد أرسل مبعوثاً إلى الملك سلفاً ليشرح مركزه ويسأله المعونة . وكان « بطليموس » نفسه لم يزل طفلا ، إلا أن وزيره « بوثينوس » Pothinus الذى كانت فى يده كل السلطات ، استدعى مجلس الدولة ، وكان به مستشار خاص يمثل صورة أخرى من « بوثينوس » ، وأعلن فتح باب المناقشة لـكافة الأعضاء الحاضرين . وإنها لإهانة بالغة أن يصبح مصير بومبيوس ماجنوس موضع جدل بين خصى مثل « بوثينوس » وأستاذ بلاغة أجير مثل « ثيودوتس الخيوسى » Theodotus of Chios ومصرى مثل « أخيلاس » Achillas الذين كانوا المستشارين الأساسيين فى هذه المجموعة النبيلة من رؤساء الحجاب والخدم الخصوصيين ؛ وبينما هو ينتظر هذه المحـكمة حتى يتلقى حكمها اضطر « بومبيوس » الذى أبت عليه كرامته أن يهب حياته لقيصر ، إلى أن يرسو على مرأى من الشاطىء . وقـد

انقسم المجلس فى مجموعه إلى رأيين ، أحدهما إلى جانب رفض التجاء بومبيوس والآخر إلى جانب دعوته واستضافته . وأياً كان الأمر ، فإن « ثيودوتس » Theodotus ، آثر أن يعلن قدرته الجدلية والقانونية فأدان الاقتراحين على اعتبار أنهما ينطويان على مخاطر بالغة. فإذا ما استضافوا بومبيوس ، فإنهم يجلبون على أنفسهم عداء قيصر ويصير بومبيوس بمثابة السيد لهم؛ وإذا مارفضوا إيواءه ، فسوف يصبحون مسئولين أمام بومبيوس نفسه لأنهم طردوه ، ومسئولين أيضاً أمام قيصر لأنهم فشلوا فى القبض عليه . فأفضل مسلك هو استدعاؤه للمحاكمة وبعدئذ يتخلصون منه — وهو حل من شأنه أن يستميل إليهم أحد الجانبين ويريحهم من كافة مخاوف الجانب الآخر . ويقال إن الخطيب أضاف قائلاوهو يبتسم « إن الموتى لا يعضون » .

وتبنى المجلس اقتراح « ثيودتوس » وأوكل تنفيذه إلى « أخيلاس » . فأخذ « أخيلاس » معه أحد ضباط بومبيوس القدامى ويدعى « سبتيموس » Septimus وضابطاً على الاستيداع يدعى « سلفيوس» Salvius وثلاثة أوأربعة جنود اتصال ، وأبحروا نحو سفينة بومبيوس . والذى حدث ، أن جميع الأعضاء المرموقين تقريباً من حاشية بومبيوس صعدوا إلى ظهر السفينة ليعرفوا ماذا يجب أن يعملوا ، وعندما لم يروا شيئاً ينم عن الاستقبال اللائق بالتقاليد الملكية والتى علق عليها «ثيوفان»[1] Theophanes آماله ، ولم يجدوا سوى نفر قليل يجدفون فى قارب صيد ، أحسوا بأن عدم المجاملة لها دلالتها ، فنصحوا « بومبيوس » بأن يجدف عائداً وأن يقف ليراهم وهم بعيداً عن متناول أيديهم . وأياً كان الأمر ، فقد اقترب القارب وقتئذ بدرجة مكنت «سبتيموس » أن ينفرد من دونهم ويرتفع على قدميه ويحيى بومبيوس باللغة اللاتينية ويناديه بلقب (الجنرال) . وحياه « أخيلاس » أيضاً باليونانية ودعاه إلى أن ينتقل من السفينة إلى قارب الصيد . وأوضح أن هناك مسافة طويلة من الماء الضحل مليئة برمال مترسبة بحيث إن سفينة لها مثل قوة

---

(١) سكرتير بومبيوس الميتلينى (المحقق) .

السفينة الحربية لا يتيسر لها أن تعبرها . وعند هذا الحد ، لاحظ أن بحارة بعض سفن الأسطول المصرى يتحركون إلى مراكزهم ، والمشاة يحتلون الشاطىء ، وعلى هذا لم يكن هناك وقت للهرب ، حتى لا يغيروا رأيهم ، وكان هناك اعتبار آخر وهو أن أى محاولة لعدم التزام الهدوء قد يكون من شأنها أن تعطى أى راغب فى القتل عذراً لتنفيذ خطته المريعة . وعلى هذا طالب بومبيوس أن يودع « كورنيليا » Cornelia ، التى شاركت زوجها نهايته متأسية ، وأمر اثنين من ضباطه على الاستيداع وأحد رجاله وكان قد أعتقه ويدعى « فيليب » Philip وأحد أتباعه « تكيثس » Scythes ، أمرهم أن يسبقوه إلى القارب . وكان أخيلاس وصحبه يحيونه من القارب ، وعندما استدار إلى زوجته وابنه كرر أبيات « سوفوكليس Söphocles :

من يتعامل مـــع الطاغية ، فهـو
عبـــده دائمـاً ، أياً كانت درجة حريته

وكانت هذه آخر عبارات نطق بها إلى أسرته قبل أن يرحل .

وعلى الرغم من أن المسافة من السفينة إلى الشاطىء كانت لا بأس بها ، إلا أنه لم توجه إليه بادرة واحدة تنم على صداقة من معه ، فنظر بومبيوس إلى سبتيموس قائلاً : « لعلنى بالتأكيد غير مخطىء فى أنك رفيق قديم فى السلاح ؟ » واكتفى سبتيموس بأن أومأ بالإيجاب دون أن يضيف كلمة أو يبدر منه ما ينم عن الصداقة. وأعقب ذلك فترة صمت أخرى ، كان يدرس فيها « بومبيوس » حديثاً باللغة اليونانية كان قد أعده فى مفكرة صغيرة واعتزم أن يلقيه أمام بطليموس. وعندما اقتربوا من الشاطىء ، بدأت « كورنيليا » التى كانت مـع أصدقائها على ظهر السفينة الحربية ، تترنح وهى ترقب باضطراب بالغ تطور الأحداث ، بدأت تتشجع عندما رأت عدداً ضخماً من الحرس الملكى يتجمع فى مكان المرسى وكأنهم يشكلون حرس شرف . وفى تلك اللحظة ، تلقى بومبيوس ، الذى كان يستند إلى يد فيليب لتساعده على الخطو ، أول طعنة فى ظهره من سيف سبتيموس ، التى كانت بمثابة

إشارة إلى سالفيوس وأخيلاس بأن يمتشقا أسلحتهما . فدفع بومبيوس عباءته بكلتا يديه إلى وجهه ، وزفر أنة واحدة وتلقى الضربات المستمرة ، دون أن يقول كلمة أو يأتى عملا لا يتفق مع شخصيته وكان فى عامه الستين ، ومات فى اليوم التالى لعيد ميلاده .

وعندما رأى الفريق الذى كان على ظهر السفينة جريمة القتل ، أطلق ولولة سمعت من الشاطىء ورفعوا المرساة بسرعة ليضمنوا نجاتهم . وأنعشتهم نسمة باردة عندما أصبحوا فى عرض البحر وأعاقوا المصريين من الباعث الأول لمطاردتهم . وقطع القتلة رأس بومبيوس وألقوا بالجثمان عاريا خارج قارب الصيد على الشاطىء حيث تركوه ليشاهده الحشد الفضولى للرؤية . وظل فيليب يحرسه حتى شبعت عيونهم من رؤيته . وغسله فى البحر ولفه فى بعض ثيابه الداخلية. وما أن وجد نفسه دون أى مطالب أخرى ، فقد بحث حول الشاطىء فوجد بقايا قارب صيد صغير ، وعلى رغم تآكله ، كان يكفى ليكون الوقود اللازم لنهاية جثة عارية معطبة . وبينما هو يصنع هذا كله فى كومة ، اقترب منه رجل عجوز له جنسية رومانية ، كان قد خدم فى صدر شبابه فى حملة بومبيوس الأولى ، وقال له « سيدى ، أرى أنك تتأهب لدفن بومبيوس ماجنوس ، فهل لى أن أسألك من أنت ؟ وعندما أخبره فيليب بأنه كان عبداً وأعتقه بومبيوس ، استطرد الرجل العجوز قائلا : « ولكن عليك ألا تنفرد بهذا الشرف ، وأتوسل إليك أن تقبل معونتى فهذا ليس واجباً مقدساً فحسب ولكنه ثواب لم أكن أتوقعه ، ومن شأنه أن يعزينى بعض الشىء فى منفاى عن وطنى . وإن التجارب التى مررت بها قد ردت لى الجزاء الوحيد كى أشترك مع هذه الأيدى فى المراسم الأخيرة لأعظم جنرال خدم الرومانيون تحت إمرته . » . . وهكذا لقى بومبيوس شعائر الدفن ووصل فى اليوم التالى « لوكيوس لنترلوس » Lucius Lentulus من قبرص وهو يجهل ماحدث ، وكان يحوم حول الشاطىء عندما رأى جثماناً يحترق على محرقة ويقف فيليب إلى جواره . وقبل أن يتمكن من التعرف عليه ، صاح «من ذاك الذى أوفى مصيره ووجد راحته فى هذا المكان البائس؟» واستطرد بعد هنيهة

قصيرة بأنة مؤلمة: « لعلك أنت يابومبيوس ماجنوس » . وذهب بعد دقائق قليلة إلى الشاطىء ، وألقى القبض عليه ، وواجه مصير قائده .

وهكذا كانت نهاية بومبيوس . وعندما وصل قيصر بعد ذلك بفترة ليست طويلة إلى مصر يفوح منه دنس هذه الجريمة النكراء استدار فى اشمئزاز من الشخص الذى جاء يقدم له رأس بومبيوس وبكى عندما وضع فى يديه خاتم بومبيوس . وكان الشعار على الخاتم هو أسير يحمل سيفاً . فأعدم قيصر أخيلاس وبوثينوس ، بينما هزم الملك فى البلاد المجاورة للنيل ولم يعد يشاهد مرة أخرى. أما « ثيودوتس » (مصلح العقول) فقد أفلت من عدالة قيصر بالهرب من مصر وأصبح منبوذاً مشرداً . وبعد ذلك ، فإن « ماركوس بروتس » Marcus Brutus الذى قتل قيصر وتولى زمام السلطة اكتشف ثيودوتس فى آسيا الصغرى وأعدمه بالتعذيب المتواصل . ووضعت بقايا بومبيوس تحت تصرف « كورنيليا » وقامت بدفنها فى ألبانو Albano .

ختال الزمن

(بوليبيوس : الكتاب السادس : الفصول ٥٢ : ١٠ — ٥٤ : ٤)

يملك الإيطاليون تفوقاً فطرياً على الفينيقيين والبرابرة سواء فى القوة البدنية والشجاعة النفسية ؛ إلا أنهم أيضاً يستثيرون بشكل كبير نمو شبابهم فى هذا الاتجاه بالتدريبات التى يقدمونها إليهم . ووصف نظام واحد يكفى كمثال على الجهود التى تبذلها مجموعة الكومونوات الرومانى لتربى الرجال الذين تعدهم لتحمل كافة الأمور من أجل اكتساب الشرف والمجد فى نظر مواطنيهم .

فعندما يرحل أحد رجالهم البارزين عن هذه الحياة ، يشتمل احتفال الجنازة على موكب يكون فيه الجثمان — وغالباً ما يكون منتصباً ومكشوفاً ، ونادراً

ما يـكون مضجعاً — محمولاً على ما يسمى عندهم (بالرمس)[١] Rams فى (الساحة) . ويتجمع حوله كل الناس ، ويعتلى الخطيب[٢] المنصة ويلقى خطاباً عن شخصية الفقيد وحياته . وهو بهذا السرد يثير ذكرى حية عن الماضى فى أذهان الجمهور ، بما فيهم أولئك الذين لا تربطهم صلة بالمتوفى ومن شاركه أعماله ، ويخلق مثل هـذا التعاطف قوة لدرجة أنهم يشعرون بأن المصاب خسارة عامة ليست مقصورة على النائحين . وعندما تنفض الجنازة بعـد ذلك ، تقام الشعائر المعتادة ، ويضعون (نظيراً) للمتوفى ، داخل تابوت صغير من الخشب ، ويضعونه فى مكان الشرف بين الأسلاف . وهذا النظير عبارة عن النصف الأعلى وقد تم تصميمه بطريقة واقعية دقيقة وصادقة فى الخطوط الخارجية والنمط . وكانت هذه السلسلة من (النظائر) يرفع عنها الستار فى مناسبة الأعياد العامة التى تزدان بعبارة رقيقة ؛ وعندما يتوفى عضو بارز من المجلس النيابى ، يستعرضون هذه (النظائر) فى الموكب الجنائزى ، ويختارون أشخاصاً من أكثر الناس شبهاً بالمتوفى الأصلى ، فى الطول والهيئة ، ويحظى هؤلاء بشرف ارتداء هـذه (النظائر) . ويتقلد هؤلاء المشخصون الأزياء المناسبة — فإذا ما كان الشخص الأصلى قنصلاً أو قاضياً كانت الملابس بيضاء ذات أطراف قرمزية ، وإذا ما كان رقيباً فهى قرمزية كاملة وإذا ما كان المتوفى قـد اشتهر بنصر رسمى أو حصل على أوسمة الشرف فيرتدى الشخص نيشاناً أبيض مذهباً . ويركب المشخصون أنفسهم فى عربات ، تسبقها الصولجانات والفئوس والشعارات الأخرى التى هى من لوازم مناصب الدولة العليا ، بما يتفق مع المرتبة الرسمية التى حصل عليها فى حياته الشخصية التى يقومون بتمثيلها . وعندما يصلون إلى المنصة يأخذ الجميع أماكنهم حسب الأولوية على عروش عاجية ، وليس من اليسير أن نتصور مشهداً يدخل السرور على الشاب ذى الأخلاق الطيبة والطموح السليم أكثر من هذا المشهد . ومن ذا الذى لا يتأثر

---

(١) هى منصة مزينة بمناجيق سفن القرطاجيين الحربية المستولى عليها . (المحقق) .

(٢) عادة ما يكون ابن الفقيد إذا ما كان على قيد الحياة وتصادف وجوده فى روما ، أو ينوب عن الابن ، أى قريب آخر . (المؤلف) .

رؤية نظائر الرجال موضع التبجيل والحفاوة فى الماضى ، تتجمع أمام عينيه بكل أنفاس الحياة الفعلية ؟وأى مشهد يمكن أن يكون أكثر تأثيراً من هذا المشهد؟ وبعد ذلك ، فإن الخطيب الموكول إليه أن يلقى الخطاب الجنائزى لا يقصر حديثه على الفقيد ، وإنما يتعداه ، بعد أن يوفى الفقيد حقه ، إلى سرد النجاحات وأعمال الأسلاف الأول ، بادئاً بالأولين ، الذين يخلدهم هذا التذكير الدائم لمجد المتوفى ، وشهرة جميع الذين امتازوا بأى عمل نبيل ، وأما قصة أولئك الذين استأهلوا خير بلدهم فإنهم يصبحون كلمة وطنية تتلقاها الأجيال المقبلة . وأهم هذا كله ، أنهم يستثيرون الشباب إلى تحمل كل الأشياء من أجل الصالح العام ، على أمل اكتساب الشهرة التى لا تفشل فى أن تلحق بأولئك الذين يستحقونها .

القسم الثانى

الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة

(Hybris, Ate, Phthonos)

(هوبريس وآت وفثونوس)

(الرواية المعتمدة)

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل العاشر)

من « أرتابانوس « Artabanus إلى « كسركسيس » Xerxes :

«إن الحكم الحق،حسب خبرتى،أكثر قيمة من أى عمل آخر.فإذاما طرأ ثمة خطأ،فإن صواب الحكم الأصيل يظل دون أن يتأثر ،ويعزى فساده سعاه إلى الحظ.وعلى النقيض،فإن الحكم السيىء قد يجنى ثمرة غير متوقعة إذا ما آثر الحظ أن يكون فى صالح النتيجة ، إلا أنه لا يعدوا أن يكون حكماً سيئاً . فأنت ترى كيف أن الرب يقصف بصاعقته الحيوانات التى تفوق زميلاتها وكيف أنه لا يتحمل أن يراها تبرز على السطح، بينما الحيوانات الصغيرة لا تثير اهتمامه أبداً ،وأنت ترى أيضاً كيف أنه يوجه سهامه بشكل ثابت إلى أعلى المنازل وأطول الأشجار. فإن الرب يحب أن يقصف

كل شيء يستعلى على نوعه . وبهذه الطريقة ، فإن جيشاً كبيراً يدمره جيش صغير فى ظروف معينة — على سبيل المثال عندما يرسل الرب، فى حالة نقمته ، الهلع أو البرق إليهم . عندئذ يهلكون ، ولا تكون نهايتهم متفقة مع بدايتهم . إن الله لا يقبل أن يرى أحداً متكبراً سواه » .

حكمة سولون Solon

(هيرودوت : الكتاب الأول . الفصول ٣٢ — ٣٤)

كان « كرويسوس» Croesus حانقاً للغاية من ملاحظات « سولون » التى تتعلق بالسعادة الإنسانية حتى إنه قال :« سيدى العزيز ، هل سعادتى تافهة بهذا الشكل الحقير بالنسبة إلى عقلك الآثينى إلى حد أنك تضعنى بالفعل فى درجة أقل من أفراد بذاتهم ؟ فأجاب سولون « مولاى ، إننى أعلم لحقيقة أن الطبيعة الإلهية تنتقم بشكل ثابت وهى مدمرة أيضاً ، وبعدئذ فأنت تسألنى عن الحياة الإنسانية ، إن مرور الزمن يجلب مناظر كثيرة غير سارة وخبرات كثيرة غير سارة إننى أقدر فترة الحياة الإنسانية العادية بسبعين عاماً : وتبلغ هذه السنوات السبعون (بعد احتساب الشهور جميعاً بثلاثين يوماً) إلى ٢٥٫٢٠٠ يوماً ، أو بدلا من ذلك ، إذا ما حسبت كل سنة ثانية على أن بها شهراً أطول ، من أجل أن تبقى السنة التقويمية متطابقة مع السنة الفلكية ، وأن عدد الشهور الكبيسة ، خلال فترة سبعين عاماً تبلغ ٣٥ شهراً ، تحتوى على ١٠٥٠ يوماً . ومن بين هذه الأيام كلها التى تكون السبعين عاماً والتى تبلغ فى مجموعها ٢٦٫٢٥٠ يوماً ليس هناك يوم واحد ينتج عنه أى شيء يشبه تماماً نتاج يوم آخر ، وعلى هذا ، يامولاى ، فإن الإنسان ليس شيئاً سوى البلاء . وإننى أتصور أنك شخصياً غنى جداً وأن لديك عدداً كبيراً من الرعايا ، إلا أننى لا أستطيع أن أمنحك بعد اللقب الذى تهدف إليه من تساؤلك ، قبل أن أسمع أنك محظوظ فى نهايتك . . إن المليونير ليس أكثر سعادة بأية حال من جاره الذى يعيش من يده إلى فمه مالم يحالفه الحظ ويقوده إلى نهاية سعيدة دون ظل على أفقه . وكثير ممن تتراكم لديهم

الملايين غير سعداء ، وكثير من متوسطى الحال محظوظين . إن المليونير غير السعيد له ميزتان ، وميزتان فقط أكثر من الرجل المحظوظ حقيقة . حيث إن الأخير ميزات لا تحصى على المليونير غير السعيد . وأمام المليونير فرصة لإرضاء رغباته وتحمل ضربات الكارثة الكبرى ، إلا أن الميزات التالية يتمتع بها الآخر . فالكوارث والرغبات التى لا يكون الأخير مهيئاً لها مثل المليونير تتحول عنه بفعل فأله الحسن . يضاف إلى ذلك نقم البدن الكامل ، والمناعة من المرض ، والبعد عن المتاعب، وأسرة ذات أطفال لطاف ؛ وحسن المعشر . وإذا مانجح فى تتويج هذه النعم بأن يصادف نهاية طيبة ، عندئذ يامولاى ، فإنه هدف لبحثك أو بعبارة أخرى ، يحق أن يقال عن هذا الرجل إنه سعيد. وأيما كان الأمر، فعلى أن أحتفظ بحكمى حتى أرى نهايته ، وأن أطلق عليه لقب (محظوط) لا (سعيد) . إن قائمة النعم كلها المذكورة آنفا لا يمكن أن تتجمع بالطبع لدى كائن بمفرده كما أن أى قطعة من الأرض لا يمكن أن تحتوى على كل أنواع الإنتاج . إن قطعة الأرض قد يكون بها أحد الضروريات وتفتقر إلى الأخرى . وأفضل قطعة أرض ببساطة هى تلك التى يكون بها أكبر عدد من الميزات . وكذلك فإن الفرد الإنسانى ليس وحدة ذات اكتفاء ذاتى ، بل قد يمتلك إحدى اللوازم ويفتقر إلى الأخرى ، والإنسان الذى يحوز أكبر عدد من الضروريات لأطول فترة ، وبالتالى يصادف نهاية طيبة ، سوف يكون له ، يامولاى ، حسب تقديرى الحق فى لقب السعادة. ولكى نقيم أى ظاهرة، يجب أن نوجه الانتباه إلى الظروف التى نصادفها فى نهايتها . ولقد أعطى الله ، أناساً كثيرين قبس السعادة كى يحطمهم أصلا ونوعاً .

ولم تلق ملاحظات سولون ميولا على الإطلاق من جانب كرويسوس الذى طرد الفليسوف بازدراء ، باعتباره رجلا ليس لديه أية فطنة ، بسبب مبدأ ، فى عدم اعتبار القيم الحالية ومدح كل ظاهرة حسب نهايتها . وأيما كان الأمر ، فبعد رحيل سولون ، أخذ الله كرويسوس بعقاب شديد — ويحتمل أن يكون ذلك لأنه جازف فاعتبر نفسه أسعد أبناء الجنس البشرى .

درس بوليقراط Potycrates

(هيرودوت : الكتاب الثالث : الفصول ٣٩ — ٤٣ و ١٢٢ — ١٢٥)

فرض « بوليقراط » بن « أيكس » Aeaces نفسه سيداً على (ساموس) Samos نتيجة انقلاب . وفى البداية قسم البلاد إلى ثلاثة أقسام وأعطى منها قسمين إلى أخويه « بانتاجنوترس Pantagnotus و « سيلوسون » Syloson ، ولكنه بعد ذلك قتل الأول ، ونعى « سيلوسون » ، أخاه الأصغر ، وفرض نفسه سيداً على (ساموس) بأسرها ، وشرع عن طريق تبادل الهدايا فى عقد (اتفاق) مع « أمازيس » Amasis ملك مصر . وفى فترة صغيرة لا تذكر أقام بوليقراط دولة امتدت رهبتها على كل (أيونيا) Ionia وبقية هيلاس . وأياً كانت الأهداف التى اختارها لحملاته فقد كانت ناجحة بشكل ثابت . ونظم مائة سفينة من ذات (الخمسين مجدافا) وألفاً من رماة السهام ، ونهب جميع القادمين دون تمييز ، ولعل من العلامات الصالحة لهذا ، أنه كان يقدم متعة أكثر إلى الصديق بأن يرجع له ما أخذ منه بدلا من أخذه إلى النهاية . لقد استولى على جزر عديدة ومدن برية كثيرة . وكان أحد مغانمه أنه هزم وأسر كل أسطول (لسبيا) ، الذى جاء لمساعدة (ميلتوس) Miletus . وقام هؤلاء المسجونون ، وهم فى القيود ، بحفر الخندق كله الذى يحيط بجدار مدينة (ساموس) . وأيا كان الأمر ، فإن نجاح بوليقراط الكبير لم يخف تماماً عن أعين « أمازيس » ، ولكن الحماس ألهب انتباهه ، وعندما استطرد النجاح يزداد بوثباته وقفزاته كتب « أمازيس » فى النهاية إليه الخطاب التالى ، الذى أرسله إلى (ساموس) :

« يقدم أمازيس الملاحظات التالية إلى بوليقراط . إن نجاح صديق وحليف يعتبر خبراً ساراً ، إلا أن نجاحاتك الكبيرة لا تسرنى ، إذ أننى أعلم الحقيقة ، أن الرب له طبع حسود ، إن الوضع كما أتصوره ، بالنسبة لنفسى كما هو بالنسبة لأولئك الذين أهتم بهم ، هو أن تنجح فى بعض الأمور وتفشل فى الأخرى ، وأن تمر فى تقلبات الحظ خلال الحياة أكثر من أن تستمتع بسلسلة لا تنقطع من النجاح.

ولم أسمع بعد عن أى واحد تمتع بنجاح غير منقطع دون أن يأتى بعـد ذلك إلى نهاية سيئة وأنه اقتلع من جذوره وفروعه. خذ نصيحتى وأمن نجاحاتك بالطريقة التالية . « ابحث فى أفـكارك حتى تعثر على الشىء الذى ادخرت له أعظم الأمور والذى إذا خسرته يسبب لك كربة حادة ، وبعدئذ تخلص من ذلك الموضوع بطريقة فعالة حتى لا تراه بعد ذلك عيون البشر . وإذا لم تجد أن نجاحاتك قد تبدلت بعـــد ذلك إلى فشل ، فاستمر فى البحث عن علاج فى الحدود التى اقترحتها عليك » .

وعند قراءة هذا ، أيقن « بوليقراط » أن « امازيس » يقدم له نصيحة حقة ، وبدأ يبحث فى أفـكاره حتى يكتشف فيما يكتنز ، عما يحزنه إذا ما فقده . وقاده بحثه إلى أن يتوقف . عند خاتم ذهبى مطعم بالزمرد ، يرتديه عادة ، وصنعه « تيودور » بن « تلـكيس » الساموسى . وقرر أن يتخلص من هذا الخاتم ، وفى النهاية اتخذ الخطوات التالية . أعد سفينة ذات خمسين مجدافاً بالجند ، وركب السفينة ، وأمر بأن تقف به فى أعمق مكان من البحر . وعندما وجد نفسه بعيداً عن الجزيرة ، خلع الخاتم وألقى به فى البحر العميق على مرأى من حاشية السفينة كلها . وبعد هذه العملية عاد إلى الميناء ، وإلى البيت ، وكان آسفاً جداً على نفسه. على أية حال فبعد خمسة أيام أو ستة، حدث أن جاء صياد كان قد التقط سمكة لطيفة كبيرة ، واعتقد أنها هدية تليق لبوليقراط . وعلى هذا حضر بها إلى الباب، والتمس أن يقابل بوليقراط شخصياً ، وعندما تم له هذا ، قدم السمكة لبوليقراط قائلا : «مولاى ، على الرغم من أننى أعيش على الصيد، حرفتى، فإننى لا أشعر بأن لى الحق فى أن آخذ هذه السمكة التى اصطدتها إلى السوق . وهى جديرة بجلالتك يامولاى ، ولهذا فقد أحضرتها هدية إليك . » وابتهج بوليقراط بالحديث وقال « لقد أتيت أمراً طيباً فعلا ، وأنا مدين لك مرتين ، مرة على هديتك وأخرى على بلاغتك . فأدعوك للغداء معى » وعاد الصياد إلى بيته ممنوناً جداً ، إلا أن الخدم عندما فتحوا بطن السمكة ،وجدوا انتفاخاً فى معدتها — وهو خاتم بوليقراط! فقدموه له وشرحوا كيف وجدوه . وأذهل الحديث بوليقراط على اعتبار أنه عمل

للطبيعة ، ولذا فقد كتب كل ما فعله وما حدث بعد ذلك فى خطاب ، أرسله إلى مصر . وعندما قرأ « أمازيس » خطاب « بوليقراط » ، تأكد أنه من المستحيل على كائن بشرى أن ينقذ كائناً آخر من مصير يرتقبه ، وأن بوليقراط تنتظره نهاية غير سارة ، فنجاحه متصل ووجد ما ألقى به بعيداً . وعلى ضوء هذا ، أرسل مذكرة إلى ساموس ينقض الاتفاقية ، وكان يهدف من هذا التصرف أن يبرأ مشاعره من الأشجان ، إزاء صديق وحليف ، عندما تصيب بوليقراط كارثة ماحقة .

وأرسل « أورويتيس » [1] Oroetes ، وكان قد اتخذ مراكزه فى مدينة (ماجنيزيا) Magnesia على (مايندر) Maeander ، أرسل « مرسيس الليدى » Lydian Myrsus بن « جيجيس » Gyges فى بعثة إلى ساموس . وكان « أورويتيس » قد قرأ أفكار « بوليقراط » ، إذ إن « بوليقراط » كان أول هلينى فى الأزمنة التاريخية يتطلع إلى السيطرة على البحر [2] . وبارك « أوروييس » هذا التطلع وجعل مبعوثه يحمل المذكرة التالية :

« يقدم أورويتيس الملاحظات التالية إلى بوليقراط . لقد نما إلى علمى أن لديك مشروعات هامة فى متناول اليد ، إلا أن مواردك المالية لا تتناسب مع مطامحك وعندى اقتراح ، فى قبوله كافة وسائل النجاح لك والخلاص لى . ولدى معلومات تفيد بأن الملك « قمبيز » Cambyses يتآمر على إعدامى . ويمكنك أن تنقذ شخصى وكنزى من هذا المصير ، وسوف يكون لك جزءاً من هذا الكنز إذا ما تركت جزءاً لى ، وعندما يتوفر المال سوف تكون سيد هيلاس بأسرها . وإذا كنت غير واثق بحديثى عن الكنز ، فأرسل أكثر مستشاريك ثقة ، وسوف أقدم له برهاناً عيانياً .

وأبهجت محتويات هذا الخطاب بوليقراط ، والهبت عزيمته . . وقد كان

---

(١) الوالى الفارسى ، أو باشا ليديا ، حاكم (ايدين) Aidin الحالى . (المحقق)

(٢) وإذا ما تركنا جانباً « مينوس من كنوسوس » وكافة الآخرين الذين قد يكونون قد سيطروا على البحر من قبله . وفى الفترة غير الأسطورية فإن بوليقراط كان هو الأول ، وكانت لديه آمال جادة لإقامة سيطرته على أيونيا والجزر . (المؤلف) .

يستهويه المال جداً ، فأرسل سكرتيره ، الساميانى « ما يندروس » Maeandrus ابن « مايندربوس » فى بعثة تمهيدية للتفتيش[١] . وما إن سمع « أورويتيس » بأن المستطلع فى الطريق،حتى أعد عدته ليخدعه فملأ ثمانية صناديق بالحجارة ، فيما عدا مسافة قليلة أسفل جوانبها ، غطاها بطبقة من الذهب . وأغلقت الصناديق بعد ذلك ، ووضعت مهيأة لاستخدام « ما يندروس » ، الذى حفر على التو وفحص الصناديق وأعد تقريره إلى بوليقراط .

وتهيأ « بوليقراط » ليقوم فوراً بالرحلة بنفسه ، متجاهلا تحذيرات كهنته[٢] وأصدقائه ، وكذلك الرؤيا التى رأتها ابنته ، ومؤداها أنها حلمت أنها رأت والدها معلقاً فى الفضاء ، وزيوس يغسله والشمس تدهنة . وجعلتها هذه الرؤيا تفعل كل شىء مستطاع حتى تمنع أباها من الذهاب لزيارة أورويتيس ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فتفوهت بعبارات سيئة الطالع[٣] عندما كان والدها فى طريقه إلى سفينته (ذات الخمسين مجدافاً) فزجرها بوليقراط مهدداً ، بأنه إذا ما عاد آمنا وسليماً ، فلن تتوقع زواجاً مبكراً — فآثرت الفتاة أن تصدق هذه العبارات ، لأنها كانت تود بسرور أن تؤجل زواجها مقابل عـدم فقدان والدها . وأيا كان الأمر ، فإن بوليقراط أصر على الإبحار إلى بلد أورويتيس على الرغم من كل نصيحة ، وأخذ معه طاقماً كبيراً ، ضم الطبيب « ديموكاديس « Democades » بن كاليفون الـكروتونى Calliphon of Croton ، أحسن طبيب فى عصره . وعند وصوله إلى (مغنيزيا) ، لقى بوليقراط مصيراً رهيباً لا يتفق مع شخصيته وآماله[٤]

---

(١) انه مايندروس ، الذى قام بعد فترة ليست بعيدة بعد ذلك ، بإهداء الجهاز النفيس لمجالس دولة بوليقراط إلى معبد (هيرا) (المؤلف) .

(٢) اعتادوا أن يتنبأوا بالمستقبل بفحص هيئة العظام وأمعاء الذبائح . (المحقق)

(٣) (تعس) بالمعنى الفنى (سيء ـ الطالع) وكان اعتقاداً هلينياً شائعاً ، أنه فى الأوقات الحرجة ، تـكون الكلمة المنطوقة لها تأثير خارق للطبيعة أو تدخل فى تقرير مجرى الأحداث بشكل آلى . (المحقق) .

(٤) مع استثناء وحيد لطغاة سيرا كوز ، فلا يمكن مقارنة أحد من الطغاة الهلينيين ببوليقراط فى فخامته . (المؤلف) .

وبعد أن تم إعدامه[1] (وهذه تفاصيل تخطيتها) صلب « أورويتيس » جثمانه ، وإذ هو معلق على الصليب ، تمت رؤيا ابنته بحذافيرها . لقد غسله «زيوس» عندما أمطرت الدنيا ، ودهنته الشمس عندما أفرز الندى من جسده . وكانت هذه نهاية نجاح بوليقراط الذى لا يمكن حصره .

الرواية المنقحة

(ايسخولوس الأثينى Aeschylus of Athens

٥٢٥/٥٢٤ — ٤٥٦/٤٥٥ق.م . الأعمال . نص

أكسفورد ، تحقيق سرجوك A. Sidgwick أجاممنون

أبيات ٧٥٠ — ٧٨١)

كلمة شيباء تعيش على ألسنة البشر
منذ صباح زمن غابر

سوف تذوب ثروة الإنسان لأنها من الشمع الخالص
وهى لا تأخذ معها الأطفال فحسب وإنما الأبناء أيضاً
والدموع القلقة والقلب الكسير
تولد بسعادة بالغة
وفكرت بمفردى وبأفكار أخرى غير خادعة ؛
وهاهوذا العقل غير المقدس ، متولد طفل على طفل ،
وخطيئة على خطيئة ، كمن ولدها . وستكون كما كانوا .

---

(١) أعتق أورويتيس الأعضاء الساميين فى حاشية بوليقراط وأمرهم بأن يشكروه على تحريرهم، إلا أنه أبقى على حيازته للغرباء والأرقاء ، الذين عاملهم على اعتبار أنهم من الأمتعة . (المؤلف) .

ولكن مجدوا الإنسان المستقيم ، وبيته وحياته
مجدوه أيضا ... فأطفاله عادلون
وعندما تأتى الساعة مرة أخرى ، فإن الخطيئة القديمة تود أن تأتى بجديد .

حيث يضحك القوى بين دموع الناس
وحيث لاحنان ياصديق ، ولا أحد
ينذف ولا يهلك ،ويتجرأ أكثر فأكثر
مدركا أنه لايخشى أى شيء مقدس
ونيران الظلمة فى البيت تلد الحقيقة
مثل ربيبها القديم
غير أن العدل يشع فى بيت متواضع
والدخان يلطخ الجدر
والشرف يأخذ مكانه
إلا أن اليد القذرة على النجم الذهبى
والعيون تهرب نافرة تبحث
عن أمور غير بريئة ولا تعبأ تماماً
بثروة الرجال غير الأمجاد . وتسوق
الجميع إلى ساعتها المحتومة

(ترجمة جلبرت مرى)

يوم الدينـــــزنة

(كسينوفون الأثينى Xenophon ‏٤٣٠ — ٣٥٤ ق . م — تاريخ الشئون الهلينية نص اكسفورد تحقيـق لـ . مارشانت E.C. Marahant . الـكتاب الثانى — الفصل الثانى ٣ — ٤) .

كان وصول (بارالوس) (١) Paralus إيذاناً بإعلان الـكارثة (٢) فى أثينا وانتشر عويل من (البيرايوس) Peirreus خلال الجدران الطويلة فى المدينة ، بانتقال الخبر من شخص إلى آخر . ولم ينم أحد فى تلك الليلة . فـكانوا ينوحون على أنفسهم بمرارة أشد ، إلى جانب نحيبهم على الموتى ، لأنهم توقعوا أن يحل بهم المصير الذى أنزلوه بالميليين Melians (الذين كانوا يستعمرون الإسبرطيين) عندما حاصروا مدينتهم واستولوا عليها ، وأنزلوه بالهيستايين Histiaeans والسيكونيين Sicionians والطورنيين Toronians والأيجينيتـين Aèginetans وشعوب هلينية أخرى كثيرة . وفى الصباح التالى عقدوا اجتماعاً ، قرروا فيه إغلاق كافة المواني ، ما عدا ميناء واحدة ، وليتركوا للتحصينات فرصة العمل ، وتوزيع الفرق وتزويدها بالرجال ، وجعل المدينة فى حالة دفاع تام للحصار المنتظر .

الجبار فى السرج

(بوليبيوس : الـكتاب السادس الفصل ٥٦)

أعتقد أن المسألة التى يظهر فيها الدستور الرومانى تفوقه العظيم هى الموقف الذى يتخذه إزاء الدين . وفى اعتقادى أن الطبع المستهجن فى البلدان الأخرى هو بالفعل مفتاح النظام الرومانى ، وأعنى به الخرافة . ففى روما بولغ فى هذه السمة

---

(١) (بارالوس) و (سالاجنيا) كانتا أسرع باخرتين فى الأسطول الأثينى ، وكانتا تستخدمان فى نقل الإمدادات . (المحقق) .

(٢) معركة (ايجوسبوتامى) ، فى الدردنيل وفيها سحق البلبيونيزيون آخر أسطول أثينى فى عام ٤٠٥ ق. م .

اصطناعياً وأدخلت إلى الحياة الخاصة كما هـو الحال فى الشئون العـامة إلى أقصى حد ممكـن إدراكه . ومما لاشك فيه أن قرائى سوف يجدون أن هذا غريب ، إلا أن الرومانيين ، فى رأيى ، قد فعلوا هذا عن قصد بسبب النظرة إلى الجماهير . فإذا ما كان مجتمع يتـكون إلى أقصى حد ممكن من المثقفين ، فإن سـياسة كهذه تبدو ألا ضرورة لها ؛ إلا أن الجماهير فى الواقع متقلبة فى كل مكان وتتأثر بشكل هوائى بمثل هذه العواطف غير الاجتماعية على اعتبار أنها مزاج لا عقلى وغضب قاتل ، وعلى هذا ، ليست هناك وسائل يمكـن أن تقيمها سوى الرعب الخفى ومجون الخرافة . ومن هذه الزاوية ، أشعر أنه ليس هناك شيء اعتباطى أو عدم مسئولية فى سياسة آبائنا السالفين عندما قدموا للجماهير مفاهيم الدين ومفاهيم (الجحيم) ، ومن غير المعقول وغير مطلوب من الجيل الراهن أن يراجع هذه الأفـكار . ويمكن إدراك إحدى النتائج السيئة لهذه الخطوة الزائفة فى حقيقة مؤداها أنه فى البلدان الهلينية ، يوكل إلى ذمة أشخاص فى مناصب رئيسية ، مبلغ طفيف من النقود ، وهؤلاء يلتزمون بعشرة توقيعات وأختام كثيرة وضعف هذا العدد من الشهود ، ومع كل ذلك فهم جديرين بالثقة ؛ بينما فى روما ، فإن الناس العاديين لديهم مقادير كبيرة من المال فى الإدارات أو البعثات الدبلوماسية لمجرد ضمان قسمهم الخاص ، ومازالو موضع ثقة . وفى بلدان أخرى ، من النادر أن نجد فرد ينفض يديه من الخزينة العمومية وأن يظهر سجلا نظيفاً بهذا الخصوص وكذلك ، من النادر فى روما ، أن ترى أمراً رهين مثل هذه الإجراءات السيئة.

الاتجـــــاه العقلى

(بروكوبيوس : الـكتاب الخامس الفصل الثالث ٥ ـ ٨)

وعند هذا الحد زارت بعثة من (بيزنطه) Byzantium كاهن [1] روما

---

(١) ... رئيس الأساقفة . (المحقق) .

المسيحى الأكبر، وتتكون البعثة من « هيباتيوس » Hypatius كاهن[1] (إفسوس) Ephesus و « ديمتريوس » Demetrius كاهن (فيليبى) Philippi فى مقدونيا . وقد أشارت البعثة إلى نقطة عقيدية يختلف حولها المسيحيون ويتنازع الواحد مع الآخر ، إلا أنه ، على الرغم من أننى أحطت علماً بالمجادلة ، فليس فى نيتى المناقشة . إن محاولة البحث فى طبيعة الله تبدو لى على أنها نوع من الضلال والخلل العقلى . والذهن الإنسانى ليس كذلك ، فإننى أصل عن طريقه إلى المفهوم الدقيق حتى فى الشئون الإنسانية ، وعلى هذا ، فبالأحرى ، تلك المشاكل المتعلقة بطبيعة الله . وفى مثل هذه المسائل أقترح أن اتحفظ احتياطياً ، وسوف أشير فقط إلى أننى لست كافراً بالمبادئ المسلم بها . وأياً ما كان الأمر ، فإننى أتردد شخصياً فى أن أقول أى عبارة عن الله فيما عدا أنه كامل الخلق وكلى القدرة مادياً .

واترك هذا الأمر للآخرين ، الكهنة والعلمانيين ليصوغوا فى عبارات ، المعرفة اللاهوتية التى يعتقدون بأنهم يملكون ناصيتها ..

القسم الثالث التطور

الاضمحلال

(هسيود الإسكارى Hesiod of Ascara . نص تويبنر تحقيق ا. رزاخ A.Rzach)
(الأعمال والأيام، الأبيات ١٠٩ — ٢٠١)[2]

فى البدء ، صنع الآلهة الخالدون الذين يسكنون على جبل أوليمبوس ، جنساً ذهبياً من أناس فانين . وعاش هؤلاء الرجال فى أيام « كرونوس » Cronus ، عندما كان ملكاً فى السماء . عاشوا على نحو مايعيش الأرباب . وقد خلت قلوبهم

---

(١) . . . أسقف .

(٢) إن ترجمة المستر ف . م كورنفورد أعقبتها بعض التعديلات ، معظمها فى ترتيب العبارات ، وهى تميل بشكل عام إلى مستوى أسوأ . (المحقق) .

من الهموم والأشجان ، دون قليل أو كثير من العمل والأسى . ولم يتطرق إليهم ظل من شيخوخة،فسواعدهم وأرجلهم فى قوة دائمة ، يجدون متعتهم فى الولائم ، بعيداً عن كل الشرور . فإذا ما ماتوا ، فكأنما قد غلب عليهم النوم .وسائر الأشياء الطيبة موفورة لهم ، والثمار الطيبة تغلها الأرض السخية من تلقاء نفسها،فتكون ثماراً طيبة فى غير ماحقد أو ضغينة — بينما عاشوا هم فى بطاحهم هانئين سالمين وقد توافرت لهم الطيبات . فالآن ، وقد طوى الثرى هذا الجنس ، تحولوا إلى أرواح طيبه بفعل إراده « زيوس » Zeus العظيم — أرواح على الأرض تحرس البشر ، وتهب الثروة (إذا كانوا قد منحوا ذلك الشرف الملكى) .

ثم ، صنع بعد ذلك ، ساكنو جبل أوليمبوس ، جنساً من الفضة ، أقل نبلا — جنساً لايماثل الجنس الذهبى جسماً وروحاً . كان الطفل يشب فى كنف أمه الحنون لمائة سنة ، طفل ، لاحول له ، يلهو فى بيته ، بيد أنهم ما كادوا يصلون إلى ريعان الشباب ، واقتربوا من الشيخوخة ، كان الزمن الذى يعيشونه مقيداً ، يحيونه فى آلام بسبب حماقتهم . إذا لم يكن فى مقدورهم كبح جماح أنفسهم عن أذى بعضهم بعضاً ، بل امتنعوا عن خدمة الآلهة الخالدين ، وأهملوا تقديم المحرقات فوق مذابح الآلهة المباركين كما كان يقضى الواجب فى كل مكان يقيم فيه البشر . ولكن ذلك الحال لم يطل ، إذ إن « زيوس » بن « كرونوس » محا أثرهم أخيراً ، فى سورة غضبه ، لأنهم ما كانوا يؤدون فرائض الولاء للارباب المباركين الساكنين فى جبل اوليمبوس . والآن ، بعد أن طوى الثرى هذا الجنس كسابقه ، وأطلق عليهم البشر لقب أرواح العالم السفلى المباركين — كان الشرف يلازمه رغم كونه فى المرتبة الثانية من المجد .

حتى خلق الأب زيوس جنساً بشرياً ثالثاً — جنساً برونزياً ، لايمت إلى الجنس الفضى بأية صلة ، صنعه من (الدردار)[1] قوياً ومرعباً . وكانت ملذاتهم فى أعمال « آريس » Ares المحزنة وفى أخطاء الكبرياء . لم يدخل إلى شفاهم

---

(١) شجر الدردار ، الخشب الذى كانت تصنع منه نبال الحراب. (المحقق) .

شرة غير أن أفئدتهم فى صدورهم كانت قوية وكأنها قدت من الصخر ، وهابهم الجميع . كانت قوتهم هائلة كما كانت أذرعتهم التى تنمو من أكتافهم فوق قوامهم المشوق لاتهزم . وكان النحاس معدنهم يصنعون منه منازلهم ، وبالبرونز كانوا يفلحون الأرض (إذ لم يكن قد عرف الحديد القاتم حتى ذلك الوقت) وقد دمروا هذه المعدات بأيديهم حتى انتقلوا إلى زمهرير هاديس Hades الوطيس غير تاركين مايخلد اسمهم . وعلى الرغم من جرأة خارقة أمسك الردى بهم بقبضته السوداء ، وتركوا نور الشمس الساطع .

والآن ، وقد غطى الثرى هذا الجنس أيضاً ، مالبث أن خلق جنساً رابعاً مرة أخرى ، على الأرض الخصبة ، صنعه زيوس بن كرونوس — جنساً أفضل وأكثر استقامة ، ليشبه جنس أبطال الألهة ، الملقبين بأنصاف الآلهة ، الجنس السابق لجنسنا على الأرض المترامية الأطراف . وهؤلاء قضت عليهم الحرب الضروس والمعركة المخيفة — بعضهم قرب طيبة Thebes ذات الأبواب السبعة فى أرض كادموس Cadmus وهم إذاً كانوا يقاتلون من أجل قطيع أوديبوس Oedipus ، بينما نقلت السفن الآخرين عبر خليج البحر الكبير — ليقاتلوا فى طرواده ، من أجل « هيلينا» Helen ذات الشعر الأشقر . وهناك لقوا نهايتهم وطواهم الموت ، وبعدئذ بعيداً عن الجنس البشرى منحوا حياة وإقامة إلى جانب زيوس بن كرونوس ، الذى جعلهم يمكثون عند نهاية الأرض . ومن ثم فهم يمكثون هناك ، بقلوب تخلو من الهموم ، فى جزر المباركين بجوار دوامات مجرى المحيط العميقة — أبطالا سعداء ، تغل لهم الأرض السخية فاكهتها حصاداً من شهر العسل ، ثلاث مرات فى العام .

والآن ، ليتنى ماتلكأت لأعيش مع الجنس الخامس ، بل وياليتنى مت قبل ذلك،أو ياليتنى ماولدت إلا بعد ذلك الجيل ، لأننا الآن فى الأيام المتأخره زمن الجنس الحديدى . ولن يكف البشر عن العمل قط ولن تفارقهم الهموم بالنهار ، ولامن قبضة المهلك بالليل؛ وما أقسى الهجوم الذى سوف تبلوهم به الآلهة . ويوم ينفر الأب من ابنه والابن من أبيه، والمضيف من ضيفه ، والصاحب من صاحبه ،

ولا يشد الأخ إزر أخيه كسابق عهده .وسرعان مايشيخ الوالدان وتقل قدرتهما ، إذ ينهرهم بنوهم ويقرعونهم بغليظ الكلم .بؤساء من لا يعرفون انتقادات الآلهة ! مثل هؤلاء ما كانوا يردون جميل آبائهم لسابق أطعامهم . إذ الرجل المستقيم أو الصالح والذى يحفظ عهده لن يجد لقاء حسناً،إذ إنهم يكرمون المخطئ والمتعجرف الوقح . سوف يكون الحق فى القوة وتذهب الرحمة من الوجود . وسوف يفعل الشرير أقصى مايمكنه من أذى وبكلمات ملتوية يتوجها بأغلظ القسم . وسائر بنى الإنسان المهموم سوف يجدون من يعينهم على خصامهم ـ وبصوت لارفق فيه ووجه كريه يلذ له الشر .

ثم ، فى خاتمة المطاف ، سوف تذهب تلك الأرواح فى طريقها إلى أوليمبوس ، الأرض ذات المناكب الفسيحة ، وقد ستر وجوههم الجميلة لباس أبيض ، لتنضم إلى مصاف الآلهة الخالدة ، مخلفة وراءها البشر — حتى أرواح الرحمة والقصاص . إن الألم والحزن من نصيب البشر ، حيث لادفاع أمام يوم السوء .

عمـــــل

(سوفوكليس الأثينى ٤٩٥/٤٩٤ — ٤٠٦/٤٠٥ ق . م . نص كمبردج تحقيق ر . ك. جيب R. C. Gebb أنتيجوناAntigona أبيات ٣٣٢— ٣٧٥)

كثيرة تلك العجائب ، ولكن ليس أغرب
وأشد وطأة ، من ابن الإنسان
فهو يطوف على بحر متقلب
ويرسم خطته من رياح الشتاء
وحول مسيره تنبسط الأعماق
ويتكاثف الغمام ، إلا أنه يسير بوضوح
آه ، إن الأرض عليلة ، والأرض عجوز
وهى أم الآلهة ، ولكنه يروضها
ذهاباً وجيئة مع مواكب الحرث

يمزق الأرض عاماً بعد عام .
خفيفة تلك الطيور ، وتسرع بأجنحتها
إلا أن يده تحوطها وتجذبها إلى أسفل
إنه يأسر فصائل حيوانات الغابات البرية
والذين يعومون فى البحار الملحة يندفعون ويتأججون
ويلقى بشباك نسجه بعيداً
ويدور فكره فى وسطها
حتى تسود أدواته سائر الوحوش
حيث تشرب الخيول من البركة المهجورة
ويهتز عرفه بحثا عن الخلاص
والكتف الذى لا يتعب لعجل الجبل
لقد علمه الحديث والفكر السريع
والطبع الذى بنى جدار المدينة
حتى أقواس الشتاء أطلقها إلى لاشىء
والثلج الذى لا يغفو والمطر يهطل دائماً
إنه مسلح وغير مسلح
يواجه الخطر فى تجواله
نعم ، إن مهنته تهدئ طباع كل وحش ثائر
ويتغلب على كل شىء ماعدا الموت
لقد خطرت مهنة آلاته له فى الحلم
فى سرعة إلى هدف الخير أو الشر
وأمسك واحد بقانون المدينة السامى

وقسم الله فى أعماق روحه
لنا المدن العالية ، والآخر لامدن له
الذى يكد ، ويمسك بالعدم
على الطريق الممنوع . أخف منه
النار المريحة وضوء الفكر.

(دجلبرت رى)

عجلة الوجود

(أفلاطون الأثينى ٤٢٧ — ٣٤٨/٣٤٧ ق . م — مجموعة الأعمال نص أكسفورد تحقيق . ج. بيرنت g. Burnet المجلد الأول . . السياسة ص ٢٦٩ ك٤ — ٢٧٠ ا — ٢٧١ ك٤ — ٢٧٢ ا — ٢٧٢ د ٦ — ٢٧٣ هـ ٤ ، ٢٧٤ ب — د) .

شخصيات التمثيلية : الغريب وسقراط الصغير

الغريب : ها هى الحكاية . إن هذا الكون يسيره الرب فى طريقه أحيانا ويوجهه فى مداره ، بينما فى أحيان أخرى ، عندما تصل دورات زمانه المعين إلى تحاملها ، فإنه يفلت من قبضة الله ويبدأ فى الدوران فى إتجاه مضاد من تلقاء نفسه (وهذا ممكن حدوثه لأنه مخلوق حى وهبه الكائن الذى أنشأه فى الأصل الذكاء) إن الميل تجاه هذه الحركة المضادة ميل فطرى لا محالة فى الكون . . بموجب المبدأ الذى يقضى بأن له قوامه الذاتى وهويته الخاصة وهى خواص مقصورة على نظام الوجود الإلهى ، والمادة التى لا تتصل به بحكم طبيعتها . وإن ما نسميه بالسموات والأرض قد اختصها موجدها بنعم كثيرة ، إلا أن هذه البركات لاتشتمل على حرية ذات جوهر مادى .

ولهذا السبب فمن المستحيل على الكون أن يستثنى دائما من التغير ، على رغم أنه يفعل أقصى مايمكنه فى حدود قدراته على أن يتحرك بإيقاع دائم وغير متغير

فى المكان نفسه ؟ وعلى هذا سمح له (عندما يتغير) أن يدور فى الاتجاه المضاد ، على اعتبار أنه أقل انحراف ممكن عن حركته الصحيحة . وأيا ما كان الأمر ، فإن الدوران الذاتى الدائم ، فوق طاقة كل كائن فيما عدا الكائن الذى يحرك به كل الأشياء ويسيرها . وأحيانا يكون هذا الكائن محروما من تحريكها فى اتجاه واحد وأحيانا فى اتجاه مضاد . وينتج عن هذه المقدمات المختلفة أن الأرض لا تدور هى ذاتها دائما ولا تتحرك تماما ودواماً من جانب الله فى دورتين متضادتين ، وكذلك فليس هناك إلهان يديران الأرض لأغراض متضاربة ، ولكنها تسير (كما بينا وهو البديل الوحيد الباقى) فى بعض الأحيان بفعل سبب إلهى خارج عنها ، وتتلقى فى أطواره لمسة من الحيوية وتجديد للخلود من خالقها ، بينما فى أوقات أخرى تفلت من التحكم وتتحرك من تلقاء ذاتها . وهى تتحرر عند نقطة تمكنها من أن تمر خلال مئات الألوف من الدورات المتضادة — وعمل باهر أمكن تحقيقه من الحجم الدقيق للقاعدة التى يتحرك عليها جرمها الهائل على توازن دقيق.

سقراط الصغير : أخبرنى عن الحياة التى تعزوها إلى حكم « كرونوس » . فى أى من الحقبتين نقع ؟ إذ إنه من الواضح طبعاً أن التغيرات فى مسار النجوم والشمس تحدث فى كلتا الحقبتين .

الغريب : لقد تابعت محاجتى بشكل يدعو للإعجاب ؛ إلا أن التوالد التلقائى لكل الأشياء لفائدة الإنسان ، تعنى ما تسألنى عنه ، هى غريبة تماما على الحركة السائدة الآن ، وهى إحدى ظواهر الفترة السابقة . ففى الفترة السابقة كانت الحركة الدائرية نفسها ، بالدرجة الأولى ، كانت تخضع لإشراف الله ، وهذا الخضوع للإشراف نفسه قد نتج محلياً عن تفويض كافة أجزاء الكون للآلهة المتحكمة الأخرى وكذلك فإن المخلوقات الحية ، حسب أنواعها ، قد أخذتها الأرواح الإلهية بعين الاعتبار ، وكان كل من هؤلاء الرعاة الطيبين ، جديراً بأن يعنى بالمخلوقات التى تحت رعايته الخاصة ، وعلى هذا ليس هناك استرقاق أو ميزة لأحد على آخر ، وليست هناك حروب فيما بينها على الإطلاق . والقسمات الأخرى لهذا التقسيم أكثر من أن تحصى ، إلا أن مسار القصة بين الجنس البشرى فيما يتعلق بالإنتاج

التلقائى لوسائل المعيشة قد نشأ للسبب التالى . إن الله ذاته ، فى ذلك الوقت ، رعى الجنس البشرى وراقبه ، كما يفعل الإنسان الآن ، الذى يتشبه بالله ، بين زملائه من المخلوقات ، ويعمل راعياً للأجناس الأخرى التى هى أدنى منه فى الدرجة . وعندما كان الله راعياً ، لم تكن هناك دولة ولا مالك للنساء والأطفال . إذ جاءت كافة الكائنات البشرية مرة أخرى من الأرض ، دون أن تسترجع خبراتها السابقة مرة أخرى . ولم تكن سائر ظروف الحياة موجودة ، بينما استمتع البشر من جهة أخرى بثمار ، دون أن تكون هناك أشجار ونباتات أخرى ولم تكن هذه نتاج زراعة ، وإنما نبتت تلقائياً من الأرض ذاتها . وقد عسكروا أغلب الأزمنة فى العراء دون ملابس أو فراش ، وكان المناخ لطيفاً فلم يسبب لهم إصابات ، ووجدوا مثوى طرياً فى الحشائش التى أنبتتها الأرض كيفما اتفق .

وأياما كان الأمر ، فإنه عندما اكتملت فترة التجزئة وكان من الضرورى أن يحدث تغير ، أو بعبارة أخرى ، عندما استنفذ كل نتاج الأرض ، لأن كل نفس قد أتمت قصة مولدها وغرست فى الأرض عدد المرات المفروضة على كل منها ، عندئذ أهمل القائم على إدارة دفة الكون التحكم فيها وانصرف إلى موقف المتفرج وترك العالم يتحرك فى الاتجاه المضاد بفعل القدر والرغبة الكامنة . ومنذ ذلك الحين والآلهة المحلية التى شاركت الروح العظيم فى المسئولية تأكدت مما كان يحدث وأهملت على التوالى الإشراف على هذه الأجزاء من الكون التى كانت تحت رعايتها المباشرة . وبعد أن قلب الكون حركته ، عرف هزة أحدثتها قوة جسمين متحركين فى اتجاه متعاكس ، وكانا يبدآن وينتهيان فى وقت واحد . لقد هزته برجة عميقة فى باطنه وأحدثت خراباً جديداً بين كل أجناس المخلوقات الحية . وبعد ذلك ، بدأ الكون بانقضاء الزمن ، يخرج من هذه الجلبة والاضطراب ليحصل على فترة راحة من هذه العواصف الزلزالية ، وأن يستقر فى رتابته المعتادة ، والتى مارس فيها إشرافه وسلطته ، على نفسه وعلى كل شىء هناك ، واتبع تعليمات خالقه وأبيه وعلى أفضل وجه يتذكرها به . وقد مارس وظائفه فى البداية بشكل دقيق نسبياً ، وبعدئذ بخشونة متزايدة . كلما اقتربت من الطور الأخير وكان سبب هذا التحلل العنصر المادى فى تركيبه ، والذى كان واحدا

من جواهر طبيعته وفى حالة فوضى تامة ، قبل أن يفرض عليه النظام الراهن للـكون . ولقد وهبه الذى سواه صفات طيبة . ومن جهة أخرى أورث نفسه من الحالة السابقة وأوجد فى مخلوقاته الحية كل ما هو شر وغير مستقيم . وطالما كان الـكون يستمتع بتعاون مدير الدفة فى تغذية مخلوقاته الحية ، فقد زرع فيهم نقائص تافهة فقط مع استملاء بالخير ، وعندما يرحل فى صحبته ، فإنه يقوم بوظيفته خير قيام خلال الطور الذى أفلت من تحـكمه . وأياما كان الأمر ، فيغزوها النسيان ، بمضى الزمن ، وتبدأ علة عدم تناسقه الأصيل فى اكتساب اليد الطولى حتى ينفجر بشكل صريح فى الطور الأخير . وعندئذ يتلقى الـكون فى تركيبه فقط عنصراً طفيفاً من الخير ومزيجاً كبيراً من الشر حتى إنه يصبح فى خطر أن يطوى نفسه وكل الأشياء فيه فى دمار شامل . وعلى هـذا ، فإن الله الذى نظمه فى الأصل ، يدرك عند هذا الحد ، العثرات التى تردى فيها الـكون — وخشية أن ينفجر تحت ضغط الضربات الوحشية للاضطراب وقد يستقر فى هاوية لا يدرك غورها حيث كل الأشياء لاقيمة لها فباشر مرة أخرى تحكمه فى دفة الأمور ، وحول الميول تجاه المرض والتحلل التى ظهرت فى الفترة السابقة عندما ترك الـكون يتولى أمور نفســـه ، ونظمه وصحح الخطأ ووهب العالم الخلود والشباب الدائم . . .

وقد وصلنا الآن إلى الهدف الذى تسعى إليه قصتى منذ البداية . وسوف أتخطى الحيوانات ، لأنها تستغرق منى الـكثير فى إحصائها وعدها بسبب تنقلاتها وسوف أقتصر على الإنسان ، الذى يمكن أن تـكون حالته واضحة بإيجاز وأكثر ملاءمة للموضوع . وعندما حرم الجنس البشرى من عناية الروح الذى كان راعينا فإن غالبية الحيوانات الوحشية التى كانت كذلك بطبيعتها تحولت إلى أصلها ، بينما أصبح الإنسان ضعيفاً ولا حول له ونتيجة لهذا روعته الحيوانات الوحشية ، وكان فى الطور الأول مجرداً من الأدوات والموارد ، طالما كان مورد طعامه التلقائى قد فشل فى أن يزود نفسه ، قبل أن يتعلم تحت ضغط الحاجة . ولجميع هذه الأسباب ، وجد الإنسان نفسه فى مأزق مروع ، وهذا هو أصل كل الهبات الأسطورية للآلهة

والتى قدمت إلينا ، معاً مع تعليم وتدريب لازمين لاستخدامها — فالنار من « بروميثيوس » Prometheus والفنون والحرب من « هيفايستوس » Hephaestus وزوجته والبذور والنباتات من أصحاب فضل آخرين . وكل حجر فى أساس الحياة الإنسانية قد نحت من محجره. إن الحراسة (التى ذكرت من قبل) والتى وضعتها الآلهة على الإنسان قد فشلت الآن على حين غرة ، وكان عليه أن يعيش بجهوده الذاتية وأن يحرس نفسه ، تماماً كالكون جميعه ، الذى قلده وتتبع خطاه فى أطوار حياتنا ونمونا المتبدلة .

دورات الحضارة

(أفلاطون : مجموعة الأعمال ، نص اكسفورد ، المجلد الرابع : تيماوس Timaeus ص ٢١ هـ — ٢٣ د)

كريتياس يتحدث :

فى الدلتا المصرية ، وحول الرأس التى يتفرع عندها مجرى النيل ، هناك إقليم يطلق عليه (سايس) Sais ، وله عاصمة إقليمية تحمل الاسم نفسه[1] . وشعب هذه المدينة له ربة تحميه واسمها فى اللغة المصرية « نيث » Neith — وهى تقابل فيما يجزمون ، الربة الهلينية أثينا . ويزعم أهل سايس بشدة أن لهم أصلا أثينياً ، وإلى حد ما فهم ينتمون خاصة إلى الأمة الأثينية . وقد رحل « سولون » (حسب روايته هو) إلى سايس وقوبل هناك بتكريم ممتاز . وإبان إقامته واتته فرصة استشارة الخبراء المبرزين بين الكهنة حول التاريخ القديم ، واكتشف أنه هو نفسه وزملاءه الهلينيين فى حالة يجهلون فيها الموضوع تماماً . وفى إحدى المناسبات فكر أن يقودهم إلى مناقشة حول التاريخ القديم وذلك بعرض أكثر روايات هيلاس قدماً والتى تتعلق بما يطلق عليه « فاروينيوس » Pharoeneus و« نيوب » Niobe الأول ، وعندما وصل إلى مرحلة ما قبل الطوفان ؛ قص التاريخ الأسطورى ل « دوكاليون » Deucalion و« بيرها » Pyrrha فسرد أنساب سلالتهم وحاول

(١) موطن الملك أمازيس . (المؤلف) .

أن يوجد أسساً تقويمية لتأريخ الأحداث فى قصته . وقد استخلص الكلمات التالية من كاهن طاعن فى السن من بين محدثى سولون : « سولون ، سولون ! انتم معشر الهلينيين أطفال دائماً . لا يوجد شىء ما يعرف بالهلينيين القدامى » . فأضاف سولون « ماذا تعنى ؟ » فاستطرد الكاهن العجوز « إنكم جميعاً صغار العقول . ليس فى أذهانكم تراث قديم ولا معرفة تشيخ مع العمر . وثمة سبب لهذا ، سوف أوضحه . فقد حلت سلسلة من المصائب فى أشكال مختلفة ، وسوف يستمر حدوثها ، والجنس البشرى ، أعظم كائن تأثر بفعل النار والماء ، بينما الكائنات الأخرى ، التى هى أقل عنفاً ، قد وجدت بفعل أسباب مختلفة لا نهاية لها . وثمة رواية لديكم فى هيلاس وهى أن « فايثون » Phaethon ، ابن الشمس ، حدث أن أعدذات مرة عربة والده وأثبت أنه غير كفؤ لقيادتها بأسلوب والده . فأحرق كل شىء على وجه الأرض قبل أن ينتهى مصيره إلى الأبد بواسطة الصاعقة . وعلى الرغم من أن هذا التراث يروى بشكل أسطورى ، فإنه يحفظ الحقيقة العلمية التى تقضى بأن مدة طويلة من الزمن ، حدث فيها انحطاط فى مدار الأجرام السماوية التى تدور حول الأرض وأن كارثة لحقت بالحياة فى هذا الكوكب فى صورة احتراق هائل . وعند هذا الحد فإن سكان الأقاليم ذات التضاريس الجبلية ، دفعوا عبئاً أثقل من سكان المناطق النهرية أو البحرية ، وفى هذه المناسبات فقد أنقذنا النيل فى مصر ، مخلصنا الوفى ، من حالة عصيبة هو محصن منها . وهناك مناسبات أخرى طهر الآلهة فيها الأرض بطوفان من المياه ، وبقى الرعاة فى هذه الظروف على الجبال ، بينما اكتسحت الأنهار سكان مدنكم فى هيلاس إلى البحار . وأيما كان الأمر ، فإن الماء لم يهبط أبداً ، فى مصر على الحقول من فوق — ليس هذا فى فترات الطوفان هذه فقط — وإنما ارتفع من أسفل بقانون [الطبيعة] الذى لا يتغير . وهكذا ، فإن التراث المحفوظ فى مصر ، للأسباب السابقة ، هو أقدم تراث فى العالم ، والحقيقة العلمية أنه فى كل مكان لا توجد فيه درجات متطرفة من الحرارة والبرودة ، فإن السكان البشر يتعرضون لزيادة وهبوط موسميين . وهناك أحداث مجيدة . أو هامة أو على درجة مرموقة فى تاريخ هيلاس أو مصر ذاتها أو

فى أى منطقة أخرى فى نطاق معرفتنا ، قد سجلت وحفظت هنا فى مصر منذ الماضى السحيق . ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الإنسانى فى هيلاس أو أى مكان آخر قد وصل دائماً إلى حد إعداد نفسه بسجلات مكتوبة ومتطلبات الحضارة الأخرى عندما تهبط المياه ، بعد الفترة المنتظمة ، التى كانت أعلى الجو ، تهبط عليك وكأنها مرض دافق وهى تسمح فقط لعناصر غير المتعلمين والمثقفين من مجتمعنا أن تظل على قيد الحياة ، وينتج عن ذلك أن نصبح كالأطفال الصغار ونبدأ مرة أخرى من البداية دون معرفة للتاريخ القديم فى مصر أو فى عالمكم . دعنى أخبرك ، ياسيدى أن الأنساب التى أوردتها فى رواياتك عن ماضيكم الهلينى إنما لا تكاد تصل إلى مستوى حكايات الأطفال . وبالدرجة الأولى ، فقد احتفظت فقط بذكر طوفان واحد فى سلسلة طويلة ، وبالدرجة الثانية ، فأنت تجهل حقيقة أن بلادكم كانت موطن الجنس النبيل السامى والذى تتمثل فيه (العبقرية الإنسانية) .وأنت نفسك وأمتك كلها قد تزعم أن هذا العنصر بعد أن أصبح جزءاً من المجموع الذى بقى على قيد الحياة بعد كارثة مبكرة ، تزعمون أنه أسلافكم ، إلا أنك تجهل هذا ، حسب حقيقة مؤداها أنه لمدة أجيال متعاقبة كثيرة ، فإن الذين بقوا على قيد الحياة عاشوا وماتوا أميين » .

تتابع التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثالث . الفصول ٣١ ـ ٣٢).

ما من شك فى أن هناك بعض المعجبين غير الناقدين سوف يشعرون أننى مضيت فى تفاصيل غير ضرورية فى مناقشة أصول الحرب الهانيبالية . وسوف يكون ردى أنه إذا ما افترض أى ناقد فى نفسه أنه أهل لتناول أى موقف دون معونة ، فإن معرفة السلف فى تلك الحالة ، قد لا تكون ضرورة وإن ظلت مثالا مقبولا . وأياً ما كان الأمر ، فإذا ما أحجم أى كائن بشرى عن ربط هذه الدعوة بشأن ما من الشئون ، سواء كان خاصاً أو عاماً ، واعياً بأنه إذا ما كان ناجحاً نجاحاً مؤقتاً ، فلا يسع أى شخص معقول أن يكون له العذر فى أن يتخذ الظروف الراهنة كأسس

لما يتوقعه فى المستقبل ــ وإذا ما كانت هذه هى الوقائع الحقيقية ، عندئذ أؤكد أن الإلمام بالماضى ليس مثالا مقبولا وإنما ضرورة مطلقة . كيف تسىء لأى واحد انتهكت حقوقه الشخصية أو حقوق بلاده أن يجد أبطالا أو حلفاء ، أو كيف يتسنى لأى أحد كان يتوق إلى أن يؤمن هدفاً أو يتوقع منافساً يشجع معاونيه ، أن يشرع فى العمل ؟ وكذلك ، فى حالة الاكتفاء بالأهداف موضع النظر كيف يكون له العذر فى استثارة أولئك الذين كان يدرج جهودهم لتأييد سياسته الخاصة ولتأمين نتائجه ، وعلى أية حال ، إذا لم يعرف شيئاً من السجل السابق عن الأفراد الذين يشتمل عليهم ؟ ومن الطبيعى أن يوائم كل واحد عباراته وأمثاله من المواقف التى تواجهه ويقوم بالدور المناسب بمهارة تكفى لجمل سياسة الفرد المعين ، من الصعب التنبؤ بها ، وتخفى الحقيقة فى عدد مرعب من الحالات . وأياً ما كان الأمر فإن أفعال الماضى ، توضع موضع الاختبار خلال الأحداث الفعلية ، وعلى هذا تلقى ضوءاً حقيقياً على أهداف الأفراد ومواقفهم ، وتكشف فى بعضها عن وجود إرادة الخير ، والنوايا الطيبة والمساعدة العملية من وجهة نظرنا ، وإجراءات عكسية فى الأخرى . ومن الممكن دائماً ، أن نكتشف ، من أمثلة كهذه ، من يتعاطف مع أسفنا وأشجاننا ، ومن سوف يزكى لنا ــ إمكانيات تضاف بشكل متعاظم إلى موارد الحياة الإنسانية فى كل من الشئون العامة والخاصة . ولهذا السبب ، فإن كتاب التاريخ وقراءه ينبغى عليهم أن يركزوا انتباهاً أقل على الرواية الركيكة للإجراءات أكثر من الملابسات التى تسبق وتصاحب وتعقب أى عمل آخر . فإذا ما استخلصت من التاريخ (لماذا) و (كيف) و (لذلك) من العمل المعين والاتجاه العقلى أو تأمل نتيجته ، فإن ما تبقى من حالاته يكون علماً أو يصبح عملا من أعمال البطولة ، من شأنه أن يقدم متعة مؤقتة ، إلا أنه بلا فائدة على أية حال للبحث فى المستقبل .

وهذا يعنى أن هؤلاء الذين يعتبرون أن عملى صعب الإدراك وعسير القراءة بسبب عدد مجلداته وحجمها ، فإنهم يقعون فى مفهوم خاطىء . ومن السهل بشكل كبير أن ندركه ونقرأه من الغلاف إلى الغلاف ، على نطاق أربعين مجلداً مجمّعة فى

جزء واحد وأن نتابع بوضوح إجراءات إيطاليا ، وصقلية ، وشمال أفريقيا منذ فترة « بيرهوس» Pyrrhus حتى سقوط (قرطاجنه) Carthage ، وأعمال بقية العالم منذ هروب « كليوميئيس » Cleomenes ملك اسبرطة ، دون انقطاع حتى المعركة بين الرومانيين والآخيين عند برزخ كورنثا ، هذا أيسر من أن ندرك مؤلفات الإخصائيين ونقرأها . وبمعزل عن حقيقة أنهم كانوا لعدة مرات أكثر ضخامة من سجلي ، من المستحيل فملا على القراء أن يخرجوا منها بأية معلومات معينة — أولا ، لأن غالبية هؤلاء الكتاب يقدمون أقوالا مغايرة عن أحداث بذاتها ، وثانياً لأنهم يهملون الأعمال المعاصرة فى مجالات أخرى ، على الرغم من أن المنهج المقارن للدراسة والتحليل يتغير فى بحث كافة تفاصيله كلما قورنت بالنتائج التى يحصل عليها بمنهج التفصيل إلى أبواب . وسبب آخر هو أنهم غير أكفاء لتناول المسائل الرئيسية . لأن العناصر الجوهرية فى التاريخ ، كما قلت ، نتائج ولوازم للعقل وفضلا عن ذلك هى أسبابها . إننا نلاحظ أن حرب «انتيوخس» Antiochus قد نشأت من حرب فليب ، وحرب فليب من حرب هانيبال ، والحرب الهانيبالية من الحرب الصقلية ، بينما الأحداث التى تتخللها عديدة ومتشابكة على الرغم من مظاهرها المختلفة ، وهى جميعاً تتجه إلى الموضوع الرئيسى نفسه . ويمكن تعلم هذه الحقائق وإدراكها من كتاب التاريخ العام ، وليس من هؤلاء الذين يكتبون تاريخ حروب خاصة ، مثل حروب (برسيوس) Perseus أو حرب فليب منفردة ما لم يتصور أى واحد ، فى كتابة حكايات المعارك المجردة أنه اكتسب أيضا من أعمال هؤلاء الكتاب مفهوما واضحا من مورفولوجيا الحرب ككل . وأياً ما كان الأمر فإن هذا يعد هلوسة كاملة ، وإننى أدرك أن تاريخى يختلف عن أعمال المتخصصين بشكل عميق اختلاف ما يعلمه العقل مما تسمعه الأذن .

شمول التاريخ

(بوليبيوس . الكتاب الخامس . الفصول ٣١ — ٣٣)

لقد أوضحت ، فيما أعتقد ، أنني تكفلت بأن أسجل ، لا مجموعة معينة من الأحداث وإنما ماحدث على نطاق العالم ، وأكاد أبالغ فأقول إنني قد أعددت عملى التاريخى على نطاق أوسع وأكثر من أىّ ممن سبقونى . وإنه من واجبى أن أبذل أقصى ما يمكن من تبصر حول تناولى وترتيبى ، كما يأتى تأليف واضح لعملى فى كل من خطوطه العريضة أو تفصيلاته . وعندما أعـــود الآن إلى ممالك « أنتيوخس » و « بطليموس » سوف أرجع إلى مسافة قصيرة محاولا أن أجد نقطة بدء معروفة ومألوفة للقصة التى أنا بصدد تقديمها ــ وهى محاولة تعتبر أكثر واجباتى ضرورة كمؤرخ . ويقولون فى أمثلتهم « إن نقطة البدء هى نصف العمل » وأوصى القدماء ببذل أقصى انتباه لإنجاز بداية طيبة فى أى حالة معينة ، وأن مايعتبرونه بدورهم ، أنه رواية مبالغ فيها ، فى رأيى قصور عن الحق . وينبغى أن نؤكد باطمئنان أن نقطة البدء ليست (نصف الكل) ولكنها تمضى قدماً إلى النهاية ومن المستحيل تماماً أن تقيم بداية طيبة فى أى شىء بدون ، أن تتوقع سلفاً ، الإحاطة الذهنية بتكملة المشروع أو التأكد من جـــو وغرض المشروع وسببه . وإنه من المستحيل أيضاً أن نوجز بشكل مناسب، فى العملية — أى مسار أحداث معينة — دون الإشارة إلى نقطة البدء وبيان أين وكيف ولماذا تؤدى هذه الإجراءات العقلية فى الوقت المعين، وينبغى أن تعتبر نقطة البدء بالتالى على أنها لا تمتد إلى مجرد الوسط فحسب وإنما تمتد إلى النهاية ، ونتيجة لذلك ، ينبغى أن يولى أكبر اهتمام إلى نقط البدء سواء من كـتّاب أو قراء التاريخ الكونى . وأنا لست غافلا بالطبع ، عن أن عدداً لا بأس به من الكتاب التاريخيين قد تقدموا بالنغمة نفسها كما فعلت أنا ، وقبلت ،شأنى ، شأن كتاب التاريخ الكونى ، أن أحاول تناول عمل على مدى أكبر من أى عمل سابق . وأنا شخصياً سوف أتوق إلى تسامح « ايفوروس «Ephorus» »(المؤرخ الأول والوحيد الذى حاول أن يكتب

بأصالة على نطاق عالمى) ، إلا أنني سوف أرفض بحزم متابعة الموضوع أو ذكر أى « من المدعين الآخرين بأسمائهم ، وسوف ألتزم بإشارة إلى أن بعض الكتاب المعاصرين ، يطالبون — بسبب قيامهم بوصف الحرب الرومانية القرطاجينية فى ثلاثة أعمدة أو أربعة ـ بلقب المؤرخين العالميين . والآن ، ليس من أحد يجهل — بدرجة ينقل معها — ماحدث فى تلك الفترة من عدد كبير من العمليات ذات الأهمية القصوى فى أسبانيا وشمال أفريقيا وبالمثل فى صقلية وإيطاليا ، وأن الحرب الهانيبالية أكثر شهرة وأطول أمداً من أية حرب حدثت من قبل ، فيما عدا ما يتعلق بالحرب الصقلية[1] ، وقد اضطرنا اتساع أبعادها جميعاً إلى أن نركز انتباهنا عليها . وعلى الرغم من هذا ، هناك كتاب تكون مراجعهم أقصر كثيراً من تدوينات تلك السجلات الرسمية المدونة فى أماكن عامة بنظام تقويمى وشكل جدولى ، والتى تؤكد بعد ذلك أنها تتضمن فى عرفها كافة اجراءات العالم الهلينى وغير الهلينى والسبب هو أنه من اليسير تماماً أن تقيم دعوى شفهية إلى كافة الأعمال المفروضة ولكن ليس من اليسير فى التطبيق أن تنجز أى شىء يستحق الإنجاز . إن التعجرف مادة شائعة وهى دائماً من أعمال كل إنسان لا يملك سوى ادعاء الوقاحة ، بينما النادر جداً هو بلوغ الشىء عملياً ، وهذا نجده عند أفراد معدودين فى الحياة العملية لقد دفعت إلى عمل مثل هذه الملاحظات بفعل أضاليل الكتاب الذين يضخمون أنفسهم ويضخمون ما يكتبونه ، إلا أننى سوف أعود الآن إلى نقطة بدء الأحداث التى أقترح هنا تسجيلها .

وحدة التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثامن . الفصل الثانى)

إننى أغبط نفسى لأن التسجيل الفعلى للواقع قد أثبت الآن صدق مبدأ أكدته مراراً فى مستهل عملى ـ وهذا المبدأ هو أنه من المستحيل أن ندرك المقالات ذاته

---

(١) مثلا ... الحرب اليونية الأولى . (المحقق).

الموضوع الواحد للإخصائيين التاريخيين وأن ندرك وجهة نظر عن مورفولوجيا التاريخ العالمى . وعند قراءة رواية جامدة ومعزولة من أعمال صقلية وأسبانيا ، فمن المستحيل جداً أن نتحقق أو ندرك ضخامة الأحداث محل البحث أو وحدتها ، وأعنى بها الوسائل والأنظمة التى أفاد منها التاريخ حتى يكمل ما كان أكثر أعماله شذوذاً فى جيلنا . وهذه التتمة ليست سوى إيقاع سائر العالم المعروف تحت نير إمبراطورية واحدة ـ وهى ظاهرة ليس لها مثيل من قبل فى التاريخ المسجل . ويمكن إدراك معرفة محددة عن العمليات التى استولت بها روما على سيراكوز وهزمت بها أسبانيا ، دون شك ، من كتابات الإخصائيين ، إلا أنه من العسير بدون دراسة التاريخ العالمى ، أن ندرك كيف بلغت روما التفوق الشامل ، وأية أحداث محلية وخاصة عاقتها عن تنفيذ مشروعاتها العامة ، وكذلك ، ماهى الأحداث والأزمات التى تعزى إلى نجاحها . لأنه من السهل على أية حال للأسباب ذاتها ، أن ندرك عظمة جهود روما أو قوة أنظمتها . ولا يبـــدو نزاع روما لما تستحوذ عليه أسبانيا وصقلية أيضاً ، ومباشرتها حملات إلى كلا العنصرين ، لا يبدو أنها مسألة ذات شأن إذا ما نظر على حدة . وهذا يحدث فقط عندما نأخذ فى اعتبارنا أن الحكومة نفسها ومجموعة الدول توجد نتائج فى مجالات أخرى متباينة بذات الوقت مع مباشرة هذه العمليات ، وعندما ندخل فى العرض ذاته الأزمات الداخلية وأنواع النضال التى تعرقل أولئك المسئولين عن كافة أنواع النشاط المذكورة آنفاً بشكل موسع ، وهو أن الخواص الواضحة للأحداث تتضح جيداً وتولى الانتباه الذى تستحقه . وهذا هو ردى على أولئك الذين يتصورون أن عمل المختصين سوف يدخلهم زمرة التاريخ العالمى والشامل .

القسم الرابع

القانون والتعليل

الحتمــــية

(هيردوت : متفرقات)

١ — كان على الشر أن يلحق ب « كاندولس » Gandaules ، وعلى هذا لم يمض وقت طويل .. (الكتاب الأول . فصل ٨) .

٢ — كان الشر على وشك ، أياً ما كان الأمر ، أن يحل ب (سكيليس) Scyle ، وبالتالى أفاد من الفرصة التالية .. (الكتاب الرابع ، فصل ٧٩)

٣ — ولم يكن مقدراً أن تدمر هذه الحملة ناكسوس Naxos . وعلى هذا وقعت الحادثة التالية ... (الكتاب الخامس ، الفصل ٣٣)

٤ — كان على (كورنثا) أن تجنى محصول الشر من بذور « اتيون » ، لأن... (الكتاب الخامس ، الفصل ٩٢) .

٥ — كان لا بد وأن تكشف هذه القصة بشكل واضح حتى يحرم « داماراتوس » Damaratus من عرشه ... (الكتاب السادس ، الفصل ٦٤)

٦ — وسوف لا تسمح راعية معبد دلفى بعقاب « تيمو » Timo وأعلنت أنها غير مسئولة ، إلا أن « ميليتادس » Miltiades أتى إلى نهاية سيئة ، وقدر لتميو أن يسوق قدميه إلى طريق الدمار .. (الكتاب السادس . الفصل ١٣٥)

٧ — من « كسركسيس » إلى « ارتابانوس »

« من المستحيل على أى فريق أن يخلص نفسه ، ووضعت قوائم المنتصرين والضحايا ، كى تقع كل أملاكنا إلى المليين أو الفرس . وفى هذا الشأن لا يمكن أن تكون هناك مساومة .. الكتاب السابع الفصل ١١) .

٨ — ارتابانوس .. وقد ارتدى ملابس كسركسيس ، وجلس على العرش الملكي وبعد ذلك ذهب لينام ، حيث ظهر له وقتئذ فى نومه الحلم نفسه الذى راود كسركسيس كثيراً . وخيم الطيف على ارتابانوس وقال : « هل أنت الرجل الذى يثبط همة كسركسيس من اللحاق بالحملة ضد هيلاس ، على غير مصالحه إننى أحذرك بأنك سوف لاتكون ملزماً بمحاولة تغيير ماهو كائن ، سواء مباشرة أو بعد ذلك . أما بالنسبة لكسركسيس ، فإن العقوبة التى تعرض لها من جراء عصيان ما كشف له شخصياً » وفى تنفيذ هذه التهديدات الشفهية ، ظهر الطيف إلى ارتابانوس حتى يكون على استعداد أن يكوى عينيه بالحديد الساخن ، عندما رحل بصرخة شديدة .. (الكتاب السابع ، الفصول ١٧ ـ ١٨)

٩ — وعندما تحيروا ، اكتشف الشرقيون وسائل اقتحام القلعة ، لأن البنية أخبرتهم أن كل أرض أتيكا الأصلية ، سقطت فى قبضة الفرس (الكتاب الثامن الفصل ٥٣)

١٠ — وكان من المحتم أن يحل الشر بـ « ارتايانت » Artaynte وسائر بيته ، وتبعا لهذا أجاب كسركسيس .. (الكتاب التاسع الفصل ١٠٩)

نذير

(هيرودوت : الكتاب السادس الفصل ٩٨)

وبعدئذ أبحر « داتيس » Datis بحملته إلى قبلته الأولى ؛ (ارتريا) Eretria ... وبعد رحيله من (ديلوس)Delos اهتزت الجزيرة بفعل زلزال — وهى الحادثة الأولى والأخيرة حتى الآن ، كما يجزم السكان . ولعل هذا الحادث كان من علاقات الشؤم التى كشفها الله للبشر كنذير بالكوارث القادمة . وفى الأجيال الثلاثة المتتالية التى اشتمل عليها حكم « داريوس» بن « هستاسبس» Hystaspes ، وحكم « كسركيس » بن « داريوس » و « ارتا كسركيس » ابن « كسركسيس » ، قاسى الهلينيون من أكبر عدد من الكوارث أكثر مما

حدث للأجيال العشرين السابقة على « داريوس » — ووقع البعض فى أيدى الفرس ووقع الآخرون فى أيدى الدول الهلينية الرئيسية نفسها فى نضالها من أجل السيادة .وعلى هذا ، ليس هناك شيء شاذ فى أن تهتز ديلوس بالزلزال بعد تسجيل سابق غير منقطع من المناعة .

القانون القدير

(هيرودوت : الكتاب الثالث . الفصل ٣٨)

توضح لى كل الظروف أن « قمبيز » كان قد فقد عقله تماماً . وإلا فما كان يحاول على الإطلاق أن يصب السخرية على عادات دينية كانت أودنيوية . ولو كان الجنس البشرى كله قد أعطى مجالا حراً وتعلم اختيار أفضل القوانين من بين سائر قوانين الوجود لكان قد اختار قوانينه بعد تبصر مناسب — وهو مقتنع بأنه لديه بالذات تفوق لاحد له . وعلى هذا فمن غير الموثوق به أن أى أحد لم يفقد عقله من شأنه أن يسر من مثل هذه الأنظمة . وتأكيدى هو أن كل الجنس البشرى الذى يدرك هذا الاعتقاد فيما يتعلق بالقوانين قد يختلف بعديد من الأدلة ، التى من بينها أقدم الأدلة التالية . عندما كان « داريوس » على العرش جمع فى حضرته الهلينيين فى بلاطه وسألهم بأى ثمن يرضون بأن يبيدوا آباءهم عندما يموتون؟ فأجاب الهلينيون بأن كل النقود فى العالم ليس من شأنها أن ترغبهم فى مثل هذا العمل ، وبعد هذا جمع « داريوس » الهنود الجلاتيين الذين يأكلون آباءهم ، وسألهم (فى حضور الهلينيين ، الذين كانوا يحاطون علماً ،عن طريق مترجم) بأى ثمن يرغبون فى حرق آبائهم عندما يموتون . فصرخ الهنود عالياً والتمسوا منه ألا يواصل هذا الموضوع الذى لا يمكن ذكره — وهى قصة توضح الموقف الطبيعى للجنس البشرى إزاء هذه المسألة ، والتى ، فى رأيى . تبرر حكمة « بندار » Pindar الشعرية التى تقول إن « القانون سيد الجميع » .

القانون الطبيعى

(مدرسة هيبوقراط القوسى Hippocrates of Cos ٤٦٠/٤٥٩ — ٣٦٨ ق . م . مجموعة الأعمال ، نص تويبنر تحقيق كيوهيلفن Hr. Kuchlewein المجلد الأول ص ٦٤ — ٦٦ = مؤثرات الجو والماء والموقع (الفصل ٢٢) .

ينسب الأهلون تعليل هذا المرض (١) إلى الله ، وهم يبجلون ضحاياه ويعبدونها خوفاً من أن يصرعهم هم أنفسهم . وأنا بالمثل ، أقول بأن هذه الظواهر مردها إلى الله ، ولكننى أتخذ النظرة ذاتها إزاء جميع الظواهر ولا أنظر إلى ظاهرة بعينها على أنها ربانية أو فوق الإنسان من أى ظاهرة أخرى . فجميعها ، فى نظرى واحدة وربانية ، إلا أن كل ظاهرة تخضع لقانونها الخاص ، والقوانين الطبيعية لاتعرف الاستثناء وسوف أشرع الآن فى شرح نظريتى عن هذا المرض . .

[يأتى بعـــد ذلك تحليل علمى]

وضحايا هذا المرض ليسوا من طبقة (المرتحلة) الدنيا ، ولكنهم أعضاء أفضل الأسر التى توفرلها أقوى بنيان جسمانى . وأصابهم المرض بسبب الركوب . والفقراء محصنون نسبياً لأنهم لا يركبون . وأيا كان الأمر ، فعلى أساس افتراض أن هذا المرض فى صورة ما ربانى أكثر من غيره ، فإنه ينبغى ألا يهاجم بصفة خاصة خيرة (المرتحلين) نسباً وحسباً ، ولكن كل الطبقات سواء ، أو إذا كانت هناك تفرقة ، لكان علينا أن نحدث ضد أولئك الذين لا يملكون سوى القليل — هذا إذا كانت الأرباب يسرها حقيقة أن تحظى بالتشريف والإعجاب من جانب الآدميين ويردون مثل هـذه العناية بمعروف من لدنهم ولنفرض أن الأغنياء بما أوتوا من ثراء طائل هم الذين يقدمون الذبائح للأرباب دائما ويؤدون مظاهر الولاء والتكريم ، بينما يختلف الفقراء عنهم فى هذا المجال ، بسبب ضيق ذات اليد أو

---

(١) يناقش المؤلف مرضاً خاصاً بالسكان الرحالة فى أقاليم الإستبس إلى شمال البحر الأسود . (المحقق) .

للثورة على الأرباب لأنهم منعوا عنهم خير الدنيا . وعلى هذا الأساس ظاهرياً ينبغي أن يلقى أولئك الفقراء القصاص على مثل هذا التخلف أكثر من الأغنياء وأيا ما كان الأمر ، ففي الحقيقة على نحو ما بينت سلفاً ،فإن هذه الظاهرة ربانية فحسب بقدر ما تكون أي ظاهرة أخرى ، وكل ظاهرة تخضع للقانون الطبيعي .

البيئـــة والطبع

(هيرودوت : الكتاب التاسع الفصل ١٢٢)

« أرتايكتس » Artayctes هذا الشخص الذى أمات شهواته كما بينت كان له جد يدعى « ارتيمبارس » Artembares ، وكان أول من اقترح على زملائه بنى وطنه الفرس الرأى الذى تبنوه وطرحوه أمام « قورش » Cyrus وهو على الوجه التالى :

«الآن ، وقد أنزل زيوس استياجس Astyages من كرسيه وفتح السيطرة لك ولأمة الفرس ، يامولاى ، نسألك شخصيا ؛ لماذا لاينبغى أن نهاجر من الإقليم المحصور والصخرى الذى نملكه حالياً ، ونحتل إقليما أفضل ،هناك أقاليم كثيرة قريبة وفى متناول اليد وكثير منها على بعد مسافة ، وما علينا إلا أن نختار حتى نقيم نفوذاً على العالم أكبر مما عليه نفوذنا الآن . وهذه سياسة تتفق مع شعب يسعى إلى التوسع ، ولن تكون لنا فرصة لتحقيق ذلك خيراً من الآن عندما تقوم إمبراطوريتنا على سكان أوسع وعلى سائر قارة آسيا . »

أما « قورش » الذى استمع ولم يتأثر ، فأمر الذين طلبوا منه هذا أن يفعلوا مايتراءى لهم ، إلا أنه شفع نصيحته بأن أخبرهم بذات الوقت أن يعدوا أذهانهم لتغيير المراكز مع رعاياهم الحاليين . وأخبرهم أن البلاد المستوية تربى رجالامسالمين بشكل ثابت ، ومن المستحيل على الفرد والبلد ذاته أن ينتج محاصيل جيدة ، وجنوداً حقيقيين . وسلم الفرس بذكاء قورش المفرط ، واعترفوا بخطئهم ، وتنازلوا عن اقتراحهم وآثروا أن يعيشوا كشعب امبريالى فى بلدوعرة عن أن يزرعواالأراضى الواطئة كما يفعل عبيد الأمم الأخرى .

البيئة والسياسة

(هيبو كراتس : تأثير الجو والماء والموقع الفصل ١٦)

لقد ناقشنا الآن الاختلافات العضوية والبنائية بين سكان آسيا وأوروبا ، إلا أننا مازلنا نضع فى اعتبارنا المشكلة الخاصة بسبب كون الآسيويين أقل نزوعاً للحرب ، ولماذا يستكينون للطغيان أكثر من الأوروبيين : إن النقص الملحوظ فى روح سكان آسيا وشجاعتهم يعود بشكل رئيسى إلى التغير الموسمى فى درجة حرارة تلك القارة ، التى هى ثابتة تقريباً على مدار السنة . ومناخ كهذا ليس من شأنه أن يوجد تلك الصدمات العقلية والتفسخ الجسدى الذى يجعل المزاج ضارياً من الناحية الطبيعية ويقدم تياراً أقوى من اللاعقلية والانفعال الذى لا يحدث فى ظل ظروف مستقرة . إن التغيرات الثابتة تنبه عقل الإنسان وتمنعه من البقاء سلبياً : وهذه هى الأسباب ، فى رأيى ، لعدم كون العنصر الآسيوى ميالا للحرب ، إلا أنه ينبغى ألا أغفل عامل الأنظمة . فإن الجزء الأعظم من آسيا تحت حكومات ملكية ، وحيثما لا يكون الناس سادة أنفسهم وعناصرهم حرة وإنما تحت حكم طغيانى ، فإنهم لا يعنون بأن يكونوا عناصر حربية فعالة ، وإنما على العكس ، يتجنبون اعتبارهم مادة حربية جيدة — السبب الذى من أجله لا يظهرون على أنهم كفتين متوازيتين . فمن المفروض ، أن يخدموا ويناضلوا ويموتوا فى ظل إكراه سادتهم بعيدين عن أعين زوجاتهم وأطفالهم وأصدقائهم . وعندما يدعون السلاح ، فإن سادتهم هم الذين يعيبون المجد ويكبرون بفعل أعمالهم ، بينما يكون نصيبهم من المنافع هو المخاطرة وفقدان حياتهم . وليس هذا فحسب ، ولكن فى حالة شعب فى مثل هذه الظروف ، فما لا مناص منه أيضاً أن العاقبة من عدم النشاط على غياب الحرب لابد وأن يكون لها تأثير أليف على المزاج ، ولهذا فحتى الفرد الشجاع والنشيط بطبعه من شأنه أن يكون رادعة على الجانب الذهنى بفعل الأنظمة المنتشرة . وثمة حجة قوية فى صالح رأى أن الهلينيين وغير الهلينيين فى آسيا الذين لا يقعون تحت حكم الطغاة ، ولكنها عناصر حرة تناضل من أجل مصالحها الخاصة . وهى تنزع للحرب كأى

شعوب أخرى فى العالم — السبب ينبع من كونهم يراهنون بحياتهم فى سبيل قضيتهم الخاصة ويجنون ثمار شجاعتهم الخاصة (ويعاقبون على جبنهم فى المساومة) . وسوف نجد أيضاً أن الآسيويين يختلفون فيما بينهم الواحد عن الآخر ، فيكون البعض رقيقاً ويفتقر الآخر إلى هذه الصفات ، وهذه الاختلافات لها سبيلها أيضاً فى التغيرات الجوية الموسمية ، كما قررت من قبل .

البيئة والعنصر

(هيبوكراتس : تأثيرات الجو والماء والموقع الفصل ٢٤)

أصبح عرضنا المقارن لأوروبا وآسيا الآن ، كاملا فى الخطوط العامة . وأياً ما كان الأمر فهناك فى أوروبا ذاتها ، عدد من كميات متميزة توضح اختلافاتها البناء والتناسب والصفات الخلقية إن العوامل المتميزة هى بذاتها التى وصفت فى الملابسات السابقة ، إلا أننى سوف أوضحها مرة ثانية بتحديد أكثر . ويميل سكان البلدان الجبلية الصخرية والمروية جيداً على علو مرتفع (١) ، حيث يتسع هامش التغيرات المناخية الموسمية ، يميلون لأن يكون لديهم أجسام ضخمة جبلت مزاجياً على الشجاعة والتحمل ، وفى مثل هذه الطبيعة سوف يكون هناك عنصر لا بأس به من الضراوة والوحشية . وسكان التجاويف الحارة المغطاة بمروج الماء (٢) المعرضة بشكل عام للرياح الحارة أكثر من الباردة والذين يشربون المياه الفاترة — فهم على النقيض — ليست أجسادهم ضخمة أو نحيفة ، إلا أنها أكثر سمكا ممتلئة ، وذات شعر أسود ، مع بشرة قاتمة أكثر منها بياضا مع فتور أكثر من الاصفرار فى بنيتهم . وسوف لا تكون الشجاعة والتحمل فطرية فى طباعهم بالدرجة نفسها ، ولكنها سوف تكون جديرة بأن توجد فيها بفعل عناصر الأنظمة . فإذا ما كانت هناك أنهار فى البلد التى تمتص منها المياه الراكدة ومياه الأمطار ، فإن السكان سوف يتمتعون بالصحة والأحوال الجيدة ، بينما إذا لم تكن هناك أنهار وتأتى إليهم مياه الشرب من البحار

---

(١) (ايتوليا) Aetolia (المحقق) .

(٢) « قلب اسبرطه » (المحقق) .

الراكدة والمستنقعات ، فإن أجسادهم تتلف طحالهم وتميل إلى أن تصبح أوعية شرهة . أما سكان البلاد المدرجة ، والتى تكتسحها الرياح ، وجيدة المياه لدرجة عالية (١) ، تكون أجسادهم جيدة ، ويكونون غير قرويين ، مع مسحة من الخوف والألفة فى طباعهم . أما سكان البلاد ذات التربة الرقيقة ، وقليلة المياه وعديمة الخضراوات ، حيث التغيرات المناخية الموسمية ، فيكونون غلاظاً ويمتازون بالعنف(٢) ، ويميلون إلى أن يكون لهم أجساد كبيرة العظام وعضلية ، وتميل بشرتهم إلى البياض أكثر منها قاتمة ، ورأس عنيد ، وطباع ذات إرادة ، حيث التغيرات الموسمية دائمة فى الغالب ويتضح الهامش الأكبر فى التغير ، وسوف نجد هناك الفرق الأكبر فى الجسد الإنسانى والطباع والحيوية .

وهذه هى أكثر التغيرات أهمية فى الأجهزة ، وهناك إذن تأثير البلد والماء التى تشكل البيئة الإنسانية . وفى أغلب الحالات ، سوف تجد أن الجسد الإنسانى والطبع تختلف طبقاً لطبيعة البلاد . وحيث تكون التربة خصبة ولينة وجيدة الإرواء ، وحيث تبقى المياه لدرجة كبيرة قرب السطح ، ولهذا نجدها راكدة صيفاً وضحلة شتاء ، وحيث تكون الظروف المناخية صالحة أيضاً ، فيكون السكان ممتلئين ومفاصلهم رخوة ومترهلين ولاطاقة لهم وغير نشطين فى الاتجاه العام : وسوف يكون الكسل والنوم شائعاً بين مميزاتهم ، وسوف يكونون غلاظاً بدلا من الرقة أو سريعين فى الأشغال(٣) الدقيقة . وحيث تكون البلاد صخرية وقليلة المياه وبلا اخضر ، ويقاسون من شتاء قارس وشمس حارقة(٤) سوف نجد السكان بارزى العظام وبلا لحم فائض وذوى مفاصل وعضلات جيدة ، وأجساد خشنة . ومثل هذه البنية مطبوعة على الطاقة والنشاط ، وأصحابها شديدو المراس ، وذوو إرادة صلبة ، يميلون للبطش بدلا من الألفة ، وسرعة

---

(١) داخل شبه جزيرة أناتوليا (المحقق) .

(٢) استبس جنوب روسيا (المحقق) .

(٣) نجد وصفاً لسكان (كولخيس) أو غرب جورجيا فى الفصل ١٥ من هذا البحث . (المحقق) .

(٤) أتيكا .

فائقة وذكاء فى الأعمال الدقيقة واستعداد فائق للحرب . وسوف تجد فيما بعد أن النباتات تختلف أيضا حسب نوعية تلك التربة . ولقد وصفت الآن التناقضات الصارخة للبيئة وأعضائها ، وسوف لا تجانب الصواب إذا ما قمت بتحليل البقية بنفسك .

تعرية أتيــــكا

(أفلاطون : مجمـوعة الأعمال ، نص أكسفورد ، المجلد الرابع : كريتياس Critias ١٣ ا ــ د) .

يمــكن بأن توصف أتيــكا المعاصرة على وجه الدقة بأنها مجرد بقايا البلاد الأصلية ، وهو ما سوف أشرع فى إيضاحه . ومن ناحية الشــكل ، تتكون أتيـكا كلها من شبه جزيرة مستطيلة ناتئة من اليابسة فى البحر . ويميل الحوض البحرى الدائرى بانحدار حول كل الشريط الساحلى . ونتيجة للطوفانات المنيفة المتتالية التى حدثت خلال تسعة الآلاف عام الماضية [١] ، كانت هناك حركة دائمة من التربة بعيدة عن العلو المرتفع ، وتبعــاً ، لبروز الساحل المنحدر ، فإن هذه التربة بدلا من أن تطرح الطمى ، كما تفعل دائماً ، إلى درجة ذات بال ، غرقت بشــكل متناوب فى البحر العميق الذى يحيط بالبلاد ، بعبارة أخرى ، ضاعت هذه التربة ، وعلى هذا تعرضت أتيــكا للعملية التى تلحظها فى جزر صغيرة ، وما بقى من أرضها يشبه هيــكل جسد أضناه المرض ، إذا ما قورن بتضاريسها القديمة : وقد ذابت التربة الخصبة واللينة كلهــا ، تاركة بلداً من جلد وعظام . وأياما كان الأمر ، ففى الفترة التى نحن بصدد تناولها ، عندما كانت أتيــكا ما تزال فى حالة سليمة ، فإن جبالها التى هى شاهقة حالياً ، وتلالها المتربة ، وما يعرف لسيولها الحصباء فى الأيام الراهنة ، كانت مليئة بتربة خصيبة ، وكانت جبالها غابات كثيفة ــ وهى حقيقة ما يزال لها آثار يمكن تبينها . لقد كانت هناك جبال

---

(٣) هى الفترة التى تفصل عصرنا عن الفترة التى نحن بصدد تناولها . (المؤلف).

فى أتيكا ، ليس منها الآن سوى النمل ، كانت مكسوة ، لا من زمن بعيد جداً بأشجار جميلة تنتج أخشابا تصلح لسقف أكبر المبانى ، ومازالت الأسقف من الأخشاب موجودة . وكانت هناك أيضاً أشجار باسقة ، بينما أنتجت البلاد مراعى لا حدود لها للماشية . ولم تنقطع الكمية السنوية من الأمطار ، كما يحدث الآن بسبب فيضانها على سطح عادى إلى البحر ، إلا أن البلاد تقبلتها ، على وفرتها ، فى باطنها ، حيث تختزنها فى فخارها الأرضى الذى لا ينضب ، وعلى هذا كانت قادرة على أن تخزن مصارف المرتفعات فى الفجوات فى شكل الينابيع والأنهار مع كثرة غزيرة ومع توزيع إقليمى واسع . وتعتبر الصهاريج الباقية حتى يومنا هذا على مواقع إمدادات المياه المنقرضة دليلا على صواب افتراضى الراهن .

التعليل جوهر التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الحادى عشر ، الفصل التاسع عشر ٣)

ماذا يفيد القارئ أن يخوض فى حروب ومعارك وحصار واسترقاق الشعوب مالم يكن يقصد إلى أن يذهب إلى ما وراء ذلك فيقف على الأسباب التى أدت إلى انتصار فريق وهزيمة الفريق الآخر فى موقف بذاته كل على حدة ؟ إن نتائج العمليات تمتع القارئ فقط ، بينما البحث فى المواقف السابقة إنما يفيد الدارس الجاد . إن تحليل حادث بعينه بغير تفاصيل ميكانيكية ، خير ثقافة من بين سائر الثقافات للقراء الذين لهم صبر على متابعة العملية .

أسباب بعيدة وأسباب قريبة

(بوليبيوس : الكتاب الثانى والعشرون ، الفصل ١٨)

يمكن تتبع بداية المصائب التى لا علاج لها والتى لحقت بالبيت المالك فى (مقدونيا) منذ هذه الفترة . وأدرك بالطبع ، أن مؤرخين عديدين للحرب بين روما وبرسوس « Perseus »، سردوا أول ما سردوا، فى مسعاهم ، لتفسير أسباب النزاع ، طرد « هابروبالس » Habrupalis من ولايته ثأراً منه لغارته على منطقة

المناجم فى (بانجايم) بعد وفاة فيليب (عندما خف برسوس لنجدته . هزم الأمير السابق ذكره هزيمة تامة ، وطرده من أملاكه) . وبعد ذلك ، أوردوا غزو « برسوس » ل (دولوبيا) Dolopia وزيارته لدلفى ، وأوردوا كذلك المؤامرة التى أبرمت فى دلفى ضـــد الملك « يومينيس » Eumenes ملك (برجاموم) Pergamum واغتيال مبعوث بويوتيا — وهى أحداث كان من شأنها ، طبقاً لرواية بعض الـكتاب ، أن نشبت الحرب بين برسوس وروما . وفى رأيى ، ليس هناك شيء ضرورى للـكتاب أو لدارسى التاريخ مثل إدراك تلك الأسباب التى تفسر تـكوين أية سلسلة من الأحداث وتطورها. إلا أن المشكلة قد حدثت حولها بلبلة فى كتابة معظم المؤرخين بسبب الفشل فى إدراك الاختلاف بين المناسبة وسببها ، وكذلك بين بداية الحرب ومناسبتها . وعند هذا الموقف الراهن ، أجد نفسى مدفوعاً بشكل واضح من جانب مادة الموضـــوع التى أمامى إلى أن أعود لمناقشة المسألة .

ومن بين الأحداث المذكورة آنفاً ، تعتبر الأحداث الأولى أسباباً ، بينما تشـكل المجموعة التالية (بما فيها المؤامرة ضد الملك يومينيس ، ومذبحة السفارة وأحداث أخرى ذات طابع مماثل حدثت فى الوقت نفسه) تشكل ، بدرجة لا يخطئها أحد بداية الحرب بين روما وبرسوس والإطاحة بالإمبراطورية المقدونية . وأياً ما كان الأمر ، فمن الناحية الحرفية ، ليس هناك حادثة من هذه الأحداث تعتبر السبب الرئيسى ، كما سوف أوضح الآن . لقد أكدت من قبل أن فيليب بن أمينتاس Amyntas هو الذى تصور واقترح أن يقوم بتنفيذ خطة الحرب ضد فارس ، بينما كان الإسكندر عاملاً قام بتدبير الإجراءات مترسماً قرارات والده السابقة . وأعود بالطريقة ذاتها لأؤكد أن فيليب بن ديمتريوس هو الذى تصور أصلا مشروع التـكفل بالحرب النهائية ضد روما ، وأنه هو الذى أعد الأسلحة على أهبة الاستعداد لهذا الغرض ، بينما « برسوس » كان مجرد عميل قام بتنفيذ الأعمال عندما أطلق والده يده . فإذا ما كان هذا صحيحاً ، فإن رأيى يحمل فى طياته صحته ، لأن أسباب الحرب لا يمكن أن تـكون لاحقة تاريخياً بوفاة

الشخص الذى قرر هذه الحرب ورسم خطتها . وأياً ما كان الأمر ، فهذا هو مضمون الرواية التى يقدمها المؤرخون الآخرون ، لابد أن كافة الأحداث التى وردت فى أعمالهم بهذا الصدد لاحقة لوفاة فيليب .

سلوى الفلسفة

(ماركوس أوريليوس أنطونيوس الإمبراطور: رسائل ذاتية ، نص أكسفورد تحقيق ا . ه . ليوبولد I. H. Leopold الـكتاب الثانى : الفصل ١٧[١]) .

الحياة الإنسانية ! أجلها موقوت ، قوامها رخو دائماً ، وإحساساتها قاتمة ، وبناؤها البدنى قابل للهلاك ، ووجدانها دوامة ، ومصيرها مظلم ، وشهرتها فى واقع الأمر زائفة ، وعنصرها المادى مجـــــرى منحدر ، وأما عناصرها الروحية فأضغاث أحلام ، والحياة سجال ، والإقامة فيها مؤقتة فى بلد ناء ، والشهرة نسيان . فما الذى يمكن أن يهدينا خلال هذه الحياة ؟ إنه شىء واحد لا غير ــ الفلسفة ، وهذا يعنى أن تبقى روحنا غير تالفة وغير ملوثة..، وأن تسمح باللذة أو الألم ، وألا نعمل دون أن نفـكر وألا نعمل بغش أو بغير إخلاص ، ويعنى ألا نـكون معتمدين على مساندة الآخرين المعنوية . ويعنى أيضاً تقبـــــل ما يحدث برضاء شأنه شأن كافة أجزاء العملية التى يرجع إليها وجودنا ؛ ويعنى ــ فوق هذا كله ــ مواجهة الموت بهدوء ، وتقبله ببساطة على أنه تحلل ذرات كل عضوحى يتركب منها . إن تحولها الدائم لا يؤذى الذرات ، وعلى هذا لماذا ينبغى على المرء أن يفـكر فى كافة الأعضاء التى تتحول وتتحلل ؟ إنه قانون الطبيعة ، وقانون الطبيعة لا يخطىء أبداً .

---

(١) كتبت فى معسكر كارنونتم Carnuntum على حدود الدانوب (المحقق).

القسم الخامس

بحجة وملاحظة

أصول العنصر الهلينى

(هيرودوت : الكتاب الأول ، فصول ٥٦ ـ ٥٨)

أجرى « كرويسوس » تحقيقاً عن أية دول هى الأعظم فى هيلاس ، بغرض ، أن يضمن تأييدها الودى ، ونتيجة لهذه الأبحاث ، وجد أن الإسبرطيين والأثينيين يبرزون من بين الشعوب الدورية والأيونية على التوالى . ومن بين هذه الشعوب التى تركت آثارها ، الأيونيون وهم أصلا بلازجيون والدوريون ذوو أرومة هلينية وفى حين أن العنصر الأخير لم يبرح موطنه ، كان العنصر الأول يهاجر بشكل مطرد وفى زمن الملك « ديوكاليون » احتلت القومية الأولى إقليم (منيثوتس) ، وفى زمن (دورس) Dorus بن « هيلين » أطلق على البلاد اسم (هستيايوتس) Histiaeotis عند سفح جبال (أوسا)Ossa والأوليمب . وبعد أن تم طردهم من هستيايوتس على أيدى الكادميين Cadmeians ، استقروا فى (بندس) Pindus واكتسبوا اسم (مقدينى) Macedni . وتحركوا مرة أخرى (من بندس) إلى (دريوبس) Dryopis ومن دريوبس عبروا مباشرة إلى (بليبونيزيا) حيث عرفوا باسم (الدوريين) . أما فيما يختص باللغات التى تكلمها البلازجيون ، فليس لدى معلومات دقيقة ، إلا أنه من الممكن أن نستشهد بدلالة البلازجيين[١] الذين مازالوا موجودين ، والذين يشغلون مدينه (كريستون)[٢] Creston فى قلب (الترهينيان) Tyrrhenians ، ومن البلازجين[٣] الآخرين الذين استوطنوا

---

(١) الجيران السابقون للشعب الذى يسمى الآن الدوريون ، فى الفترة التى احتل البلازجيون فيها المنطقة التى تسمى الآن تساليوتس Thessaliotis (المؤلف)

(٢) فى المنطقة التى تسمى الآن مقدونيا الشرقية (المحقق)

(٣) حلوا أولا فى الإقليم نفسه مثل الأثينيين (المؤلف)

(بلاكيا) Placia وصقلاسيا Scylaei على جبال البنط Hellespont ، ومن المجتمعات المختلفة الأخرى من العنصر البلازجيوى التى غيرت أسماءها القومية . وإذا ما أمكن أن نستمد الاستدلال من الشواهد، لقلنا بأن البلازجيين الأصليين قد تكلموا لغة ليست يونانية ، وأن القومية الأثينية البلازجيوية لابد أن تكون قد تعلمت لغة جديدة وقت أن تحولت من البلازجيوية إلى الهلينية . وعلى أى وجه من الوجوه فإن سكان كريستون وبلاكيا ، الذين لم يتكلموا بأية حال اللغة ذاتها التى تكلم بها جيرانهم ، كان عليهم أن يتكلموا لغة بين الواحد والآخر ، ويتبين من هذا أنهم احتفظوا باللغة المعينة التى جاءت معهم عندما هاجروا أصلا إلى هذين المكانين . ويقابل هذا ، أن العنصر الهلينى قد استخدم لغة خاصة بشكل مستمر ، عندما جاء إلى الوجود(١) وبعد أن انسلخوا من العنصر البلازجيوى، وجدت اللغة نفسها ضعيفة ، إلا أنهم تزايدوا من هذه البدايات الصغيرة حتى أصبحوا يضمون الآن عدداً من القوميات ، وقواها الرئيسية ذات أصل بلازجيوى، إلى جانب قوميات أخرى عديدة ، ذات أصل غير هلينى . ورأيى الأخير هو أن الأصل غير الهلينى فى الروايات البلازجيوية ، بشأن الفشل الكامل إلى هذه القومية ينمو إلى أبعاد لا بأس لها .

مصر مهد الحضارة

(هيرودوت : الكتاب الثانى . فصول ٤٨ — ٥٨)

إن الطقوس الدينية ، فيما عدا عنصر الجوقة ، فى الاحتفال بـ « ديونيسوس » تتشابه عملياً فى كافة تفصيلاتها مع الطقوس الهلينية . . والأمر عندى هو أن « ميلامبوس » Melampus وهو رجل عبقرى ، لم يبتدع إجراءات التنبؤ لنفسه فحسب ، وإنما طلب المعرفة من مصر ، مما نتج عنه عبادة « ديونيسوس » وكثير من البدع الأخرى فى هيلاس ، مع تعديلات طفيفة عن شكلها الأصلى . وإننى

---

(٤) هذه مسألة لا أشك فيها أنا شخصياً (المؤلف) .

لا أستطيع أن أسلم بأن التشابه بين طقوس ديونيسوس فى مصر وهيلاس مجرد صدفة ، لأنه فى تلك الحالة كان يجب أن تكون الطقوس الهلينية متطابقة مع الطقوس الهلينية الأخرى ولا تكون ابتداعاً حديثا . وكذلك فإننى لا أستطيع أن أسلم بأن المصريين قد اقتبسوا هذا النظام ولا أى شكل آخر من الهلينيين . والذى أتصوره أن مصدر المعلومات الرئيسى عند « ميلامبوس » الخاص بديونيسوس كان هو « كادموس الصورى » وأن أتباعه المستوطنين من فينيقيا هم الذين استوطنوا فى البلد الذى يسمى الآن (بويوتيا) والحقيقة هى أن أسماء سائر الآلهة تقريباً قد وفدت إلى هيلاس من مصر . ولقد أقمت الحقيقة العامة عن أصلها غير الهلينى بالبحث والتقصى ، وفى رأيى أن موطنها الأصلى من المحتمل أن يكون مصر إلى حد كبير . لقد ذكرت فعلا أن أسماء سائر الأرباب الهلينية الأخرى محلية فى مصر [1] ، باستثناء « بوسيدون » Poseidon و « الديوسكورى » Dioscuri « وهيرا » Hera و « هستيا » Hestia و « ثيميس » Themis و « جراسيس Graces و « نريديس » Nereids وفيما يختص بالأرباب التى لا يزعم المصريون أن أسماءها تابعة لهم ، فإننى أتصور أنها أخذت عن البلازجيين [2] ، وأياما كان الأمر ، فليس هناك شىء فى مصر يطابق عبادة القديسين [3] .

وهذه الأنظمة ، شأنها شأن أنظمة أخرى سوف أشرع فى وصفها ، قد جلبها الهلينيون من مصر أما إظهار الهلينيين (لهرميس) Hermes ، من جهة أخرى . فلم ينقله المصريون عنهم وإنما نقله البلازجيون ، والذى نقله عنهم فى بداية الأمر الأثينيون ، وعن هؤلاء نقلها سائر الهلينيين [4] . وسوف يتضح ما أقصد إليه لكل من يتعمق فى أسرار عبادة كابيرى Cabeiri التى يحتفل بها فى ساموثراس ،

---

(١) فى هذا ، أنا أكرر ببساطة عبارات المصريين أنفسهم (المؤلف)

(٢) باستثناء بوسيدون الذى علم به الهلينيون من البربر ، فإن اسم بوسيدون محلى بينهم وحدهم . (المؤلف)

(٣) « أبطال » فى اليونانية (المحقق)

(٤) فى ذلك الوقت فإن الأثينيين الذين يعتبرون هلينيين فعلا ، كان لديهم مجتمع من البلازجيين الذين حلوا فى بلدهم ، وهذا كان صدفة ، كيف كان البلازجيون يعتبرون هلينيين (المؤلف)

والتى أخذها سكانها عن البلازجيين [١] . وفيما يتعلق بتقليد البلازجيين كان الأثينيون الهلينيون أول من أظهر عبادة « هيرميس » Hermes فى الوضع الذى بينته . وكان لدى البلازجيين عقيدة حول هذا الموضوع ، تظهر فى الأسرار المقدسة عند (ساموتريس) . وفى بداية الأمر (كما علمت من تحر شخصى فى دودونا Dodona) توسل البلازجيون فى سائر خدماتهم الدينية ، إلى « الأرباب » مجردين دون لقب أو اسم (فالألقاب والأسماء كانت ماتزال مجهولة لديهم) إلى كل رب منها . لقد أطلقوا عليها (الأرباب) لأن هذا ما « وصل » إليهم فى شكله الكلى واحتفظوا بالكون وكافة أجزائه هكذا . وعلى هذا ، وبعد فترة طويلة ، علموا من المصادر المصرية أسماء كافة الآلهة فيما عدا « ديونيسوس » ، ، وبعد فترة طويلة أخرى ، عرفوا اسم « ديونيسوس » . وبعد فترة جاء البلازجيون يستفتون النبوءة فى دودونا [١] عما إذا كان ينبغى أن يقتبسوا هذه الأسماء من بضاعة خارجية . وأمرتهم النبوءة بأن يفعلوا ذلك ، ومن ذلك الحين فصاعداً ابتهل البلازجيون إلى الأرباب فى الخدمات الدينية بأسمائها ، بينما نقل الهلينيون بدورهم هذه العادة من البلازجيين .

ومن المبالغة أن نحدد ، كما نحدد تاريخاً حديثاً أو نحدد الأمس أو أول أمس ، أن الهلينيين ظلوا يجهلون إعادة كل إله من الآلهة إلى أصله ، ويجهلون مظهرها الخارجى ، ويجهلون ما إذا كانت قد وجدت منذ الأزل أم لا . وأما أنا فلا أضع هسيود وهومر وتاريخهما قبل جيلى أنا بأكثر من أربعة قرون ، وهما أول ثقات قدما للهلينيين أنساب الآلهة ، ووضعا للآلهة ألقابها ، وخصصا لها تبجيلها وأعمالها ، وحددا ملامح مظهرها الخارجى [٢] . وكاهنة (دودونا) هى مصدرى عن السلسله الأولى للقضايا السابقة ، وفيما يختص بالقضايا الباقية التى تتعلق بهسيود وهومر ، فأنا مسئول عنها شخصياً .

---

(١) كانت ساموتريس قد احتلها فى البداية البلازجيون الخلص الذين حلوا فى إقليم أثينا ، ومن هؤلاء البلازجيين استعار أهل ساموتريس الأسرار المقدسة (المؤلف) .

(٢) كانت هذه النبوءة أكثر قدما فى هيلاس ، وهى الوحيدة التى كانت موجودة فى هذه الفترة (المؤلف)

إن مسألة الارتباط بين (النبوءة) فى هيلاس وفى النبوءة فى شمال أفريقيا[١] مادة قصة مصرية سوف أبدأ ببسطها . فيقرر كهنة (زيوس طيبة)[٢] . بأن كاهنتين من طيبة نقلها الفينيقيون من البلاد ، وأظهر البحث أن إحداها قد بيعت فى شمال أفريقيا وبيعت الأخرى فى هيلاس . وهم يؤكدون أن هاتين المرأتين هما اللتان أوجدتا فى الأصل النبوءات فى أقاليم الأمم السابق ذكرها . ولقد سألت الكهنة كيف كانت الكاهنتان فى مركز يمكنهما من أن ينطقا بمثل هذه المعرفة الدقيقة . فكانت إجابتهم أنهم قد أجروا بحثاً دقيقاً، ولكنهم لم ينجحوا فى اكتشاف السر . وعلى هذا حصلوا على المعرفة التى يعيدون روايتها على الآن . وهذا ماسمعته من كهنة طيبة ، فى حين أن كاهنة دودونا قد روت لى الحكاية التالية: لقد طارت حمامتان سوداوان من طيبة المصرية إلى شمال أفريقيا وبعد ذلك إلى دودونا . وحطت الحمامة الأخيرة على شجرة زان وأعلنت بصوت إنسانى ، أن إحدى معجزات زيوس يجب أن تقوم على تلك البقعة . واعتبر أهل دودونا أن الرسالة خارقة للطبيعة ونفذوها بعد ذلك . أما الحمامة التى طارت إلى شمال أفريقيا فيقال إنها أمرت البربر بأن يقيموا نبوءة لأمون وهى نبوءة أخرى لزيوس ، وهذه هى القصة كما حكتها لى كاهنة دودونا[٣]، والتى أيدها سكان محليون آخرون على صلة بالضريح أما وجهة نظرى الخاصة حول الموضوع فهى كما يلى . إذا كان الفنيقيون قد نقلوا حقيقة النساء المقدسات وباعوا واحدة فى شمال أفريقيا وأخرى فى هيلاس ، فإنها فى رأيى ، المنطقة المعينة التى تسمى الآن هيلاس ومن قبل كانت بلازجيا التى بيعت فيها ، فلا بد وأنها كانت (ثسبروتيا)[٤] Thesprotia . وخلال فترة الرق التالية هناك ، لابد أنها أسست ضريحاً لزيوس

---

(١) زيوس دودونا فى أبيروس وآمون فى سيوة فى الصحراء الليبية (المحقق)

(٢) آمون طيبة فى مصر (المحقق) .

(٣) كانت أسماؤها (برومينا) Promena الكبرى و (تيماريتا) Timareta الكبرى التالية ونيكاندرا الصغرى (المؤلف)

(٤) جنوب غربى أبيروس (المحقق)

تحت شجرة بلوط ، ولا بد أنها أقامته كما أقيم فى البداية معبد زيوس فى طيبة ، وينبغى أن تحفظ ذكراه فى مكان إقامتها الجديدة. وتمشياً مع هذا ، فإنها تكون بعد أن تمكنت من اللغة اليونانية ، قد أنشأت نبوءة ، ولا بد أن تكون قد ذكرت أن أختا لها قد بيعت فى شمال أفريقيا بواسطة الفينقيين أنفسهم الذين باعوها هى . وفى رأيى أن أهل دودونا قد أطلقوا على الكاهنتين عبارة (الحمامات) لأنهما لم تكونا هيلينيات وبدتا للمواطنين على أنهما صغيرتان كالعصافير . وعندما أطلقوا هذه العبارة ، وبعد فترة من الوقت ، تحدثت الحمامة بصوت إنسانى ، أى أنه : عندما بدأت المرأة فى الحديث بشكل مفهوم لهم ، وفى حين أنها عندما كانت تتحدث بلغة أجنبية ، كانت تبدو كأنها تتحدث إليهم بلغة الطيور . وإلا ، كيف يمكن لحمامة أن تتحدث بصوت إنسانى بالمعنى الحرفى للكلمة؟ وكذلك ، فعندما قالوا إن الحمامة كانت سوداء فهذا يعنى أن المرأة كانت مصرية . لأن أساليب التنبؤ التى اتبعت فى طيبة المصرية ودودونا كانت ، على التوالى ، فى الحقيقة متشابهة ، وأن علم التحنيط بطريقة الأحشاء كان من المحتمل أن يكون من أصل مصرى .

وكان المصريون أيضاً العناصر الأولى من الجنس البشرى التى أقامت الأعياد والمواكب ، والخدمات الدينية ، وقد نقلها الهلينيون جميعاً . واستنبط هذا من أن هذه الاحتفالات فى مصر تبدو أنها اتبعت منذ تاريخ بعيد ، بينما كانت فى هيلاس بدعة جديدة .

هل الكولخيون مصريون

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٠٢ — ١٠٥)

يبدو أن الكولخيين[1] من أصل مصرى — تلك حقيقة لا حظتها بنفسى قبل أن أحاط علماً بها من الآخرين . وما إن شغلت انتباهى ، حتى قمت باستقصاءات

(٣) شغلت كولخس النصف الغربى من البلاد التى يطلق عليها حاليا جورجيا عبر القوقاز (المحقق) .

بين كلتا الأمتين ووجدت أن الـكولخيين يتذكرون المصريين أكثر مما يتذكرهم الأخيرون . وقدم المصريون نظرية مؤداها أن الـكولخيين هم بقايا جيش « سيزوستريس »[1] Sesostris ولقدأقمت افتراضي على حقيقةأن الـكولخيين لهم شعر أسود — وأثق كثيراً فى حقيقة أخرى هى أن الـكولخيين ، والمصريين والسودانيين هم الأعضاء الوحيدون من الجنس البشرى الذين يمارسون عادة ختان الأطفال . ويعترف الفينيقيون والفلسطينيون والسوريون صراحة بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين، بينما يعترف السوريون الذين يعيشون حول أنهار ثرمودون Thermodon و (بارثنيوس)[2] Parthenius وجيرانهم ودولة (المقرون) Macrones يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة مؤخراً فقط عن الـكولخيين . وهذه قائمة شاملة عن الأجناس التى تمارس الختان ، ويبدو أنهم جميعاً يقلدون المصريين أما فيما يختص بالمصريين أنفسهم والسودانيين ، فلا أستطيع أن أقرر أيهما أخذ العادة عن الآخر ، لأن الختان قديم جداً فى كلا البلدين . أما عن النظرية التى تقول بأن الآخرين قد أخذوا هذه العادة نتيجة احتكاكهم بالمصريين فإننى أجد لها سنداً قوياً فى الحقيقة التالية . إذ إن الفينيقيين الذين احتكوا بالهلينيين توقفوا عن تقليد المصريين وأغفلوا ختان الجيل الذى جاء بعد ذلك . ودعنى أذكر عامداً ، مسألة أخرى يتشبه فيها الـكولخيون بالمصريين . إذ إن الـكولخيين والمصريين هم الفريدون الذين لديهم منهج متماثل فى صنع الـكتان[3] وإلى جانب هذا هناك متماثلات قوية بين الأمتين فى حياتهما الاجتماعية وفى لغاتهما .

طوائف

(هيرودوت : الـكتاب الثانى . الفصول ١٦٤ — ١٦٨)

توجد فى مصر سبع طوائف وهى تسمى على التوالى ، الـكهنة ، المحاربون

(١) شخصية أسطورية ، اختلطت باسمها أسماء عديدة من الغزاة المصريين التاريخيين العظام (المحقق)

(٢) نهران أناضوليان يطلق عليهما الآن (ترم ـ رسو) Terme وبارتين رسو Bartin Su ويصبان فى البحر الأسود بين unie وسامسون Samsun وبين أمارسرا Amasra وزونجداك Zonguldag فى هيلاس .

(٣) الاسم التجارى لـكتان الـكولخيين هو (السرينيون) . بينما الـكتان الذى يأتى من مصر يطلق عليه (المصرى) ـ المؤلف .

رعاة البقر ، رعاة الخنازير ، التجار ، والأدلاء ، وكبار البحارة . وعدد هذه الطوائف سبع وأسماؤها حسب حرفها . فالمقاتلون يطلق عليهم Calasiries و Hermotybies ، وتأتى كل طائفة بدورها من الأقسام[1] التالية فيتبع Hermotybies إلى أقسام . . [أسماء مغفلة] وتبلغ أقصى قوتهم ١٦٠٠٠٠ رجل ولا ينخرط أي فرد من هؤلاء فى أية حرفة دنيئة. لقد كانوا جميعاً منصرفين إلى السلاح ، ويتبع Calasiries الأقسام الأخرى . . (أسماء مهملة) . . وتبلغ أقصى قوتهم ٢٠٠٠٠٠ وكان محظوراً عليهم أيضاً ممارسة أى حرفة عادية ، ولا يزاولون سوى فن الحرب عن طريق التوارث . وإننى لأستطيع أن أقرر على وجه التحديد إذا ما كان هذا النظام قد أخذه الهلينيون من المصريين ، واضعاً فى اعتبارى أن الرحل التراقيين والفرس الليديين[2] وتقريباً سائر الشعوب اللاهلينية ، يعاملون الأشخاص الذين يمارسون الفنون والحرف ، ونسل هؤلاء الأشخاص ، على اعتبار أنهم فى مرتبة دون أعضاء المجتمع الآخرين ، فى حين أن الذين لا يزاولون الأعمال اليدوية يعاملون على أنهم من منشأ طيب. ولا سيما أولئك الذين ينصرفون إلى الاتجاه الحربى . وعلى أية حال ، فإن جميع الهلينيين تبنوا هذه العادة ولا سيما الإسبرطيون — والكورنثيون ، على عكس الأمة التى تبدى ازدراء أقل للعمل اليدوى . وفى مصر ، حازت الطائفة العسكرية الامتيازات التالية التى لم تتمتع بها أى طبقة أخرى من السكان فيما عدا الكهنة : فهم أولاً يحتفظ كل منهم باثنى عشر فداناً[3] منتقاة من الأرض لكل منهم دون جزية ، ويكون دخل كل حصة بالتناوب من فرد إلى آخر . ولا يبقى أبداً فى أيد بعينها بشكل ثابت ، وثانياً ، كان ألف من (الكالازيرس) وجملة مماثلة من

---

(١) ينقسم إقليم مصر كله إلى قسمين (المؤلف)

(٢) سكان وادى أيدين Aidin الحديث غرب الأناضول (المحقق) .

(٣) الفدان المصرى مائة ذراع مصرى مربع ، والذراع المصرى يتساوى فى الطول مع الذراع السامى (المؤلف) .

(الدمويتس) يخدمون سنوياً كحرس إمبراطورى . وإلى جانب الحصص ، فإن الأفراد الذين يشتغلون سنة فى هذه الخدمة يتسلمون ، كأجر إضافى ، جراية يومية تبلغ خمسة أرغفة لكل فرد ، وقطعتين صغيرتين من اللحم وأربع مغارف من النبيذ .

انتقال الألف باء

(هيرودوت : الكتاب الخامس . الفصول ٥٨ — ٥٩)

كانت حروف الهجاء من بين الابتكارات العديدة المفيدة التى وصلت إلى هيلاس على أيدى الفينيقيين الذين جاءوا مع « كادموس » واستعمروا البلاد التى تسمى الآن (بويوتيا) ، وكانت حروف الهجاء هذه ، فى رأيى ، غير معروفة من قبل فى العالم الهلينى . لقد أدخلوا فى الأصل صناعة الكتابة التى كانت شائعة الاستعمال بين الفينيقيين ، ثم تغيرت مع الزمن حياتهم فتغيرت معها بذات الوقت رسوم حروفهم . وقد كان الأيونيون أكثر الإغريق الذين كانوا يقيمون يومئذ فى تلك البلاد حيث الفينيقيون ، ولذلك تعلم الأيونيون فن الكتابة من الفينيقيين ، واقتبسوا حروف كتابتهم مع تعديلات طفيفة ؛ ومازالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية إنصافاً لمن نقلوها عنهم — على اعتبار أن الفينيقيين وحدهم هم الذين أدخلوها إلى هيلاس . واحتفظ الأيونيون أيضاً بالاسم القديم . اسم (القديد)[١] على الأوراق لأنه فى وقت ما ، اضطرتهم ندرة صحائف الكتابة إلى استخدام جلود الماعز أو جلود الماشية[٢] كأدوات كتابية . ولقد رأيت بنفسى كتابة الحروف الكدموسية محفورة فى نقوش[٣] على بعض القوائم المثلثة فى معبد (أبولون أسميناس) بطيبة البوطية .

---

(١) « دفتراى » فى اليونانية كلمة نقلها العالم الشرقى المعاصر وظلت فى الفارسية الحديثة فى كلمة « دفتر » (دفتر الحسابات) وعادت إلى اليونانية الحديثة عن طريق التركية (المحقق) .

(٢) فى بلاد غير هلينية كثيرة تستخدم الجلود المماثلة كمواد كتابية حتى أيامنا هذه (المؤلف)

(٣) يشرع هيرودوت فى اقتباس هذه النقوش حتى يتحقق الأشخاص المذكورون فيها فإن الدليل الموجود فى الأسلوب واللغة يثبت أنه قد دخلت إليها تزويرات فى فترة حديثة نسبياً (المحقق) .

هل خان « بنو الـكمايون » Alcmaeonidae هيلاس ؟

(هيرودوت : الـكتاب السادس . الفصول ١٢١ — ١٢٤)

أعتقد أن افتراض أن « بنى الـكمايون » عرضوا ترساً[1] كإشارة إلى الفرس ، بقصد إخضاع الأثينيين تحت نير الشرقيين وهيباس Hippias ، هو افتراض لا يمكن قبوله . إذ إن كل شيء يبين أن « بنى الـكمايون » كانوا على الأقل خصوماً أقوياء للاستبداد ، فمثلا « كالياس »[1] Callias كان الرجل الوحيد فى أثينا الذى لديه درجة كافية من الجرأة ، فعندما طرد « بيزيستراتوس » Peisistratus من البلاد ، لأنه اشترى أملاكه من مزاد الخزينة ، فإنه لم يفوت فرصة للعمل ضد بيزايستراتوس بأشد ألوان العداء مرارة . وكان « بنو الـكمايون » على الأقل خصوماً أشداء للاستبداد كما كان « كالياس » مما يجعلنى أرفض الاتهام الذى لا يستند إلى شيء بأنهم عرضوا ترساً فى هذه المناسبة . لقد نفى الطغاة « بنى الـكمايون » طيلة فترة حكمهم بأسرها ، وانتهى حكم أنصار « بيزيستراتوس » خلال مكائدهم — وهذا يعنى فى تقديرى الخاص ، أن « بنى الـكمايون » كانوا محررى أثينا لحد كبير أكثر من « هارموديوس » Harmodius و « أرستوجيتون » Aristogéton ، وبسبب قتل « هيبارخوس» فإن الأخير قد أغاظ العناصر التى ظلت على قيد الحياة من أسرة بيزيستراتوس ، دون الإسهام فى الإطاحة بسلطانهم ، بينما حرر « بنى الـكمايون » الأثينيين بشكل متميز ، وإذا ما كانوا حقيقة هم الذين أوحوا إلى كاهنة (دلفى) أن تقدم كل رد قدمته إلى الإسبرطيين وتحرضهم على تحرير أثينا ، حسب القصة التى شرحتها آنفاً ، وإذا ما قيل إنه كان لديهم بعض الضغينة ضد أعضاء مجلس العموم فى أثينا

---

(١) انظر هيرودوت الكتاب السادس فصل ١١٥ . وكان الترس يستخدم ليعكس الرسائل التلغرافية الشمسية ، عندما عادت الحملة الفارسية مرة أخرى بعد هزيمتها فى ماراثون افترض أن إشارة أبرقت إليها تنصحها بالإبحار حول أتيكا وترسو على الساحل المقابل أمام الجيش الأثينى ويمكنها أن تعبر حول البلاد (المحقق)

(٢) ابن فاينيبوس وأب هيبونيكوس (المؤلف) .

مما دفعهم إلى هذا المسعى لخيانة البلاد ، فيمكن الرد ، بأنه فى العالم الأثينى ، لم تكن هناك عائلة أخرى تمتعت بشهرة أعظم أو بشرف مماثل . وعلى هذا فليس من المعقول تماماً أن نفترض أن هذه الأسرة بالذات قد عرضت الترس لمثل هذا السبب . ومما لاشك فيه أن هناك ترساً قد عرض ، وليس هناك مراء فى هذه الواقعة ، إلا أننى لاأستطيع أن أقترب قيد أنملة أكثر مما فعلت هنا للإجابة على السؤال : من الذى أظهر الترس إذن ؟

هل خان الأرجيفيون هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصول ١٤٨ — ١٥٢)

يقدم الأرجيفيون الرواية التالية عن الدور الذى قاموا به بأنفسهم فى (الحرب الفارسية الكبرى) . وتلقوا ، بادئ ذى بدء ، معلومات عن العاصفة التى تتجمع ضد هيلاس من العالم الشرقى ، وبهذه المعلومات التى توافرت لديهم ، علموا أن الهلينيين يعتزمون المفاوضة حول التعاون ضد الفرس . وطبقاً لهذا ، بعثوا برسول إلى (دلفى) يسأل الرب أى مسلك من شأنه أن يضمن لهم أفضل النتائج . إذ لم يكن قد مضى وقت طويل على موت ٦٠٠٠ من رجالهم فى المعركة على أيدى الإسبرطيين (بقيادة كليومينيس Cleomenes بن انكسندريادس Anaxandriadıs) وكان هذا (حسب روايتهم) هو السبب فى إرسال المبعوث . وردت عليهم الكاهنة بالأبيات التالية :

بحق السماء الحبيبة ، بحق الجيران الذين قهروا ببشاعة
ضعوا الحراب فى غمدها وخذوا راحة
والتفتوا إلى عقولكم ، فالعقول سوف تنقذ البقية .

وكان إلقاء هذا الرد من جانب الكاهنة سابقاً على وصول البعثة الكونفدرالية إلى أرجوس ، حيث قوبلوا هناك بالتحية فى المجلس وقدموا تعليماتهم . وأجاب مجلس العموم على طلباتهم بأن أرجوس مستعدة لقبول مقترحاتهم على شرطين —

سلام لمدة ثلاثين عاما مع إسبرطة ونصيب مساو فى قيادة القوات الكونفدرالية كلها . وأضافوا أن العدل المطلق يخول لأرجوس نصيب الأسد فى القيادة ، ولكنها تكتفى بالمشاركة مع دولة أخرى . وكان هذا (حسب الرواية الأرجيفية) رد المجلس ، على الرغم من أن النبوءة قد اعترضت على التحالف مع الهلينيين . وأياً ما كان الأمر ، فإن خوفهم من النبوءة لم يكن يوازى تمتعهم بسلام ثلاثين عاماً حتى يمكنهم ، كما قالوا ، أن يجعلوا أولادهم يشبون إلى سن الرجولة فى هذه المدة ، وفى حالة عدم وجود مثل هذا السلام ، أدركوا أنهم فى حالة إصابتهم بكارثة أخرى فى الحملة ضد الفرس ، فوق ركام مصائبهم السابقة ، فإن الحاصل سوف يكون خضوع أرجوس تماماً لإسبرطة . ورد الأعضاء الإسبرطيون فى البعثة المشتركة على إعلان مجلس أرجوس بأن أعلنوا أنهم سوف يحيلون مسألة المعاهدة إلى رؤسائهم ، إلا أنهم فيما يتعلق بمسألة القيادة ، يجب أن يسترشدوا بتعاليمهم القاطعة ، والتى كانت تقضى بأن هناك ملكين فى إسبرطة وملكا واحدا فى أرجوس ، ومن المستحيل إبعاد أحد الملكين من القيادة ، إلا أنه لم يكن هناك اعتراض على الموافقة لملك أرجوس بأن يصوت مع ملكى إسبرطة . وحسب رواية الأرجيفيين الخاصة ، فإن هذا البيان أخرجهم عن صبرهم إزاء اعتداء الإسبرطيين وجعلهم يفضلون أن يقعوا فى قبضة الشرقيين على أن يسلموا بوحدة واحدة إلى الإسبرطيين . ونتيجة لهذا ، أنذروا البعثة بأن تكون خارج الحدود قبل غروب الشمس ، وذلك بمقتضى معاملتهم كأعداء . إلى هذا الحد يذهب الأرجيفيون أنفسهم ، إلا أن هناك قصة مختلفة تجرى فى هيلاس : ـ وهى أن « كسركسيس » قد أرسل مبعوثاً إلى أرجوس قبل أن يعد حملته ضد هيلاس . ويقال إن الرسول عند وصوله ألقى هذه المذكرة الشفاهية :

« أيها الأرجيفيون ، إن الملك كسركسيس له رسالة إليكم . إننا نؤمن بأن جدنا هو « برسيس » Perses ، بن « برسوس » (١) Perseus من

---

(١) ابن داناى Danae (المؤلف)

« أندروميدا » Andromeda بنت « كسيفيوس » Cepheus . ومادام الأمر كذلك ، فإننا لابد وأن نكون قد انحدرنا من مجموعتكم ، ويكون من الغريب أيضاً من جانبنا أن نشن حرباً على أسلافنا ، ويكون غريباً من جانبكم أن تقفوا فى وجهنا دفاعاً عن طرف ثالث . وأفضل طريق هو أن تلوذوا بدياركم وتحافظوا على حيادكم ، وإذا ما فزت أنا ، فلن يكون هناك بلد سأعاملها بتقدير أكثر منكم » .

ويقال إن الأرجيفيين تأثروا جداً بهذه الرسالة لدرجة أنهم لم يقوموا وقتها بأية مفاتحة أو طلب امتيازات من المبعوثين الهلينيين فحسب ، ولكنهم عندما حاول الهلينيون أن يطلبوا معونتهم أيضا ، طلبوا بحزم المشاركة فى القيادة ، وهم يدركون أن الإسبرطيين لن يوافقوا على مطلبهم ، وذلك حتى يتذرعوا بالبقاء على الحياد . ولتأكيدهذه الرواية ، أشاربعض الثقاتالهلينيين إلى رواية أخرى، تتعلق بالأحداث فى تاريخ متأخر . وهى أن بعثة أثينية تتكون من كالياس بن « هيبونيكوس» Hipponicus وحاشيته ،تصادف أن وجدوا أنفسهم فى مهمة فى (صوصه)(١) Susa عندما كانت بعثة أرجيفية مرسلة بذات فى نفس الوقت ، وصلت تسأل « ارتاكسركسيس » عما إذا كانت الاتفاقية التى عقدتها (أرجوس) مع « كسركيس » ماتزال قائمة ، أو إذا ما كانت حكومته تنظر إلى أرجوس على أنها دولة معادية — ورد الملك « ارتاكسركسيس » عليها بأن الاتفاقية قائمة بشكل طيب . وأنه ليس هناك دولة يعتبرها أكثر صداقة من أرجوس .

وسواء كان « كسركسيس » قد أرسل حقيقة مبعوثاً إلى (أرجوس) بالتعليمات السابق ذكرها ، أو أن بعثة أرجيفية زارت (صوصه) حقيقة لتتأكد من رأى ارتاكسركسيس حول الاتفاقية . فليس فى مقدورى أن أؤكدها ، ولا أعرض أى رأى عن الموضوع أكثر مما قرره الأرجيفيون أنفسهم . فقط أعلم هذا جيداً ، لو أن جميع أعضاء الجنس البشرى وضعوا أعباءهم الفردية بشكل جماعى

---

(١) مدينة ميمنون Memnon (المؤلف)

على أساس التبادل مع جيرانهم ، فإن فحص أعباء جيرانهم عن كثب يجعلهم يتنبهون ويسهمون بما أوجدوه هم أنفسهم . أما فيما يختص بهـذا ، فإن الأرجيفيين ليسوا أكثر الناس خطيئة فى التاريخ . وواجبى الشخصى أن أروى ماقيل فعلا ، ولـكن ليس على أن أصدقه — وهو مبدأ أطبقه عامداً ، بشكل محدد ، على كل عملى . أما بخصوص هذا ، فهناك قصة أخرى حول الموضوع أن الأرجيفيين هم الذين حرضوا الفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا العمل فى الحرب ضد الإسبرطيين ولم يشعروا بشىء طيب إزاء إذلالهم الراهن .

كيف أنقذت أثينا هيلاس

(هيرودوت : الـكتاب السابع . الفصل ١٣٩)

وعند هذا الحد ليس أمامى من طريق أسلـكه سوى أن أسجل تقديراً سيقابل بالاستياء من جمهرة الرأى العام ، إلا أننى لا أستطيع فيـه أن أحجم عن متابعة ما يبدو لى أنه الحق . ولنفترض أن الأثينيين قد وهنت عزيمتهم بمـا حل عليهم من خطر بعد ذلك كالهجرة من بلدهم ، أو نفترض — فى حالة عدم وجود هجرة — أنهم مكثوا وخضعوا لـكسر كسيس ، ففى هذه الحالة لم يكن فى وسع أحـد أن يقاوم الملك فى البحر ، وطالما لم يقاوم أحد « كسر كسيس » فى البحر ، فإن نتيجة الأحداث على البر يمكن أن تـكون كالتالى . وبغض النظر عن طبقات المراكز الجاهزة التى جذبها البليبونيزيون عبر برزخ كورنثا ، فـكان على حلفاء الإسبرطيين أن يهجروهم — لا عن عمد وإنما بتأثير (قوة أعظم) كما حدث واستسلموا ، بشكل فردى ، إلى قوات الأسطول الشرقى — وكان من المفروض أن يخضعوا للعزل . وفى ساعات عزلتهم قام الإسبرطيون بأعمال باهرة وماتوا ميتة مجيدة — فيما عدا الحالات التى كان يصل إلى علمهم فيها أن الهلينيين الآخرين ينضمون إلى جانب الفرس حتى يصلوا هم أنفسهم إلى شروط مع « كسر كسيس » — إلا أنه فى ظروف أخرى كان الهلينيون يسقطون تحت نير الفرس . أما فيما يختص بالمواقع عبر

البرزخ فإننى فى حيرة من أن أكتشف ماذا كانت قيمتها الحربية بالنسبة إلى الملك الذى سيطر على البحر . وفى مثل هذه الظروف ، فان الحق يحتم أن نقول إن الأثينيين كانوا منقذى هيلاس . وإن الميزان يميل إلى صالح كل جانب ينضم إليه الأثينيين ،فالأثينيون والأثينيون وحدهم، كانوا هم الذين رغبوا فى أن تبقى هيلاس مجتمعاً حراً ، وجمعوا شتات بقية العالم الهلينى (ومع ذلك حتى لا نستسلم للفرس) ، وهم أيضا (بعد الآلهة) الذين ردوا غزو الملك . حتى لم يستطع نذير النبوءة الذى جاء من دلفى ، أن يجعلهم يهجرون هيلاس . لقد تمسكوا بأرضهم ولم يحجموا عن مواجهة أسلحة غزاة بلادهم .

الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى

(ديودورس : الكتاب الثانى عشر . الفصول ١ — ٢)

إن أى فرد يوجه انتباهه إلى العنصر غير المتوافق فى الحياة الإنسانية ، قد نلتمس له العذر إذا ما وقع فى تناقض . فليس هناك ، فى مجال التطبيق ، نعمة واحدة من النعم المفروضة فى الحياة تمنح للكائنات البشرية بشكل مطلق ، وكذلك ليس هناك شر من الشرور يقع بشكل مطلق دون أن يكون له مخرج من الخير . ويمكن أن ندرك بيان هذا بتوجيه الانتباه إلى الأحداث الماضية ، ولاسيما تلك الأحداث ذات الأهمية البارزة . فإن ضخامة القوى التى استخدمت فى حملة كسركسيس ملك الفرس ضد هيلاس تلقى ضوءاً على الخطر المرعب على المجتمع الهلينى . إن السباق الذى فرض على الهلينيين أن يقاتلوا فيه لم يكن سوى العبودية أو الحرية ، فى حين أن المجتمعات الهلينية فى آسيا التى كانت قد وقعت بالفعل فى العبودية أثارت فى كل ذهن احتمال أن المجتمعات فى هيلاس سوف تواجه المصير ذاته ، وأياً ما كان الأمر ، فعندما وقعت الحرب ، على غير ما هو منتظر ، فى نتيجتها المدهشة ، لم يجد سكان هيلاس أنفسهم غير بعيدين عن الأخطار التى تهددهم فحسب ، وإنما وجدوا أنفسهم يمتلكون إلى جانبها الشرف والمجد ، بينما كان كل

مجتمع هلينى قد عبىء بمثل هذه البحبوحة لدرجة أن العالم بأسره كان مندهشاً إزاء الكمال الذى انعكس إليه الموقف .

وخلال نصف القرن الذى أعقب هذه الحقبة ، خطت هيلاس خطوات واسعة نحو الرخاء . وخلال هذه الفترة فإن آثار البحبوحة الجديدة ظهرت فى تقدم الفنون والفنانين بعظمة أكثر مما سجله التاريخ، فنهن المثال « فيدياس » Phidias الذى لمع فى ذلك الحين . وكان هناك بالمثل تقدم بارز فى المجال الذهنى، حيث تفردت فيها الفلسفة والخطابة إلى شرف خاص على نطاق العالم الهلينى ولا سيما فى أثينا . ففى الفلسفة كانت هناك مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وفى الخطابة كان هناك أعلام أمثال « بركليس » و « إيسقراط » Isocrates وتلاميذه ، وقد رجحت هذه على أيدى رجال أعمال ذوى شهرة عسكرية ، أمثال « ملتياديس » Miltiades و «ثيميستوكليس» Themistocles و«أرستيديس» Aristides و « كيمون » Cimon و « ميرونيدس » Myronides وصف طويل من الأسماء الأخرى أكثر من أن يذكر . وفى مقدمة هؤلاء جميعاً ، أحرزت أثينا انتصار المجد والبسالة حتى إن اسمها حاز شهرة عالمية واسعة . لقد زادت من سطوتها إلى درجة أنها حطمت ، بمصادرها الخاصة ودون مؤازرة الأسبرطيين والبليبونيزيين ، مقاومة القوى الفارسية على البر والبحر وحطمت من هيبة الإمبراطورية الفارسية حتى إنهـا اضطرتها إلى أن تجلو بمقتضى معاهدة عن جميع المجتمعات الهلينية فى آسيا .

تأثير قوة البحر على التاريخ

(أنونيموس[1] Anonymous عرف فى ٤٦٠ — ٤١٠ ق . م)أنظمة أثينا طبعة تويبز تحقيق كالينكا E. Kalinka ١٩١٣ : الفصل ٢ . فقرات ٢ — ٨ و ١١ — ١٦) .

---

(١) محفوظ بين الأعمال الصغرى لـ (كسينوفون)، الذى أثبت بالدليل الداخلى أنه ليس المؤلف الحقيق (المحقق)

لقد وهب الحظ الأثينيين ميزة يمكن أن نقررها فى العبارات التالية : كان السكان ، رعايا إمبراطورية برية فى وضع يمكنهم من توحيد موارد عدد من المجتمعات الصغيرة وأن يشتركوا فى حرب التحرير ، بينما رعايا أى امبراطورية بحرية ، وهم إلى حد بعيد سكان جزر ، لم يكونوا فى وضع يمكنهم من تعزيز موارد المجتمعات المعزولة . لقد فصل البحر فيما بينهم ، وسيطرت عليهم الدولة السائدة ، وحتى لو نجح سكان الجزر فى تركيز قواهم فى جزيرة واحدة دون أن يكونوا محجوزين ، فليس أمامهم سوى الهلاك ، وكانت المجتمعات البرية ، إلى أبعد حد ، تحت سيطرة الأثينيين ، ينظر إليها على أن القسم الأكبر منها يسيره الخوف ، والأقلية تدفعها الحاجة . وما من مجتمع يمكن أن يحيا دون واردات وصادرات ، وهذه سوف ينكرها أى مجتمع لا يخضع لسادة البحر . وكذلك ، فإن سادة البحر كانوا فى وضع (كما هى الحال مع الدول البرية فقط) يمكنهم من أن يدمروا إقليم دولة أقوى . ويمكنهم أن يمضوا قدماً حيث لا تعسكر قوات معادية أو على الأقل قوى ضعيفة ، ويمكنهم من أن يواصلوا الإبحار بقرب التحصينات . ويمكن للدولة البحرية أن تستخدم هذه الاستراتيجية بارتباك أقل من الدولة التى تسعى إلى أن تحرز الهدف نفسه على البر . وكذلك فإن سادة البحر فى وضع يمكنهم من أن يعملوا بأسطولهم إلى مسافة بعيدة عن قواعدهم كما يرغبون ، بينما لا يمكن للقوى البرية أن تتحرك إلى مسيرة أيام كثيرة من إقليمهم الأصلى . وفى العمليات البرية ، تكون التحركات بطيئة ومن المستحيل حمل مؤن كافية لحملة طويلة الأمد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجيش الذى يعمل على البر عليه إما أن يتحرك عبر أقاليم موالية وإما أن يقاتل لمسافة ما ، فى حين أن القوة البحرية يمكن أن ترسو حيث تجد التفوق إلى جانبها ، وهى ليست مضطرة إلى أن ترسو عند نقطة يكون فيها التفوق إلى الجانب الآخر ، ويمكنها أن تواصل إبحارها حتى تجد نفسها فى أقاليم صديقة أو فى سواحل دول أقل قوة .

وكذلك ، فإن النتائج السيئة التى تعود إلى الظروف الجوية تحل بشكل ما حق حتى على أقوى الدول البرية ، بينما يمكن للدولة البحرية أن تتجنبها فى يسر . ولا تصيب النتائج السيئة العالم كله ، وعلى هذا فإن سادة البحر قادرون دائماً على

أن يجذبوا إليهم المناطق التى لم تحل بها النتائج السيئة . وإذا ما غامرت بالانحدار إلى تفاصيل صغيرة ، فينبغى على أن أضيف أن السيطرة على البحار مكنت الأثينيين بالدرجة الأولى ، من أن يكتشفوا تهذيباً للرغد خلال علاقاتهم الخارجية الواسعة. وقد تجمعت رقة صقلية وإيطاليا وقبرص ومصر وليديا [1] والبحر الأسود وبليبونيزيا أو أى بلد آخر ، تجمعت على صعيد واحد بفضل السيطرة على البحر. وكذلك فإن ألفتهم مع كل لغة منطوقة تحت الشمس قد مكنت الأثينيين من أن يختاروا هذا التعبير من اللغة وهذا الشكل أو ذاك ، ونتيجة لذلك استمتع الأثينيون بحضارة كونية أسهم فيها سائر العالم الهلينى وغير الهلينى ، فى مقابل الهلينيين الآخرين الذين كانوا يحفظون ، كقاعدة عامة ، لهجتهم المحلية وطرائق حياتهم وأزيائهم .

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأثينيين هم الأمة الوحيدة،هلينيةأوغير هلينية،التى هى فى وضع يمكنها من أن تجمع الثروة ، وإذا ما حدث وكانت بلد غنية بأخشاب السفن ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت فى أن تسود البحار ؟ وكذلك ، إذا ما حدث ، وكان بلد غنى بالحديد والنحاس أو الكتان ، فأى سوق لها ، إذاما فشلت فى أن تجد مصلحتها فى الاتجاه نفسه ؟ إلا أن هذه هى بالتحديد المواد الخام التى أبنى منها سفنى — فإن الأخشاب تأتى من مورد واحد ، والحديد من مصدر ثان، والنحاس من مصدر ثالث ، والكتان من مصدر رابع ، والقنب من مصدر خامس. وبالإضافة ، سوف يرفضون السماح بتصدير هذه السلع إلى الأسواق الأخرى ، أو أولئك الذين يفضلون معارضة رغباتنا سوف يزاحون عن البحر . وهكذا ، فأنا الذى لا أنتج إحدى هذه السلع فى إقليمى الخاص ، أمتلكها عن طريق البحر بينما لا يوجد بلد آخر يمتلك واحداً أو اثنين منها فى وقت واحد . والبلد نفسه لا ينتج الأخشاب والكتان ، فالتربة جرداء ولا أخشاب فيها وحيث لا قنب . وكذلك فإن بلداً واحد لا ينتج الحديد والنحاس كما لا يوجد اثنان من هذه الخامات أوثلاث مواد فى بلد واحد ، وإنما توجد دائماً مادة هنا ومادة هناك .

---

(١) الوادى الحديث لايدين Aidin فى الأناضول الغربية (المحقق) .

وكذلك ، فبالإضافة إلى هذا ، فإن أي ساحل يرى له رءوس أراض ناتئة فى البحر أو جزر قريبة من الشاطىء أو ممرات ضيقة تقدم لسادة البحر نقطة ارتكاز يمكن أن يرسوا عندها ويلحقوا الضرر بالسكان البريين .

وأياً كان الأمر ، فهناك شيء واحد ، يفتقر إليه البر والبحر . فلنفترض أن الأثينيين قد سيطروا على البحر وباشروا أعمالهم من قاعدة جزرية ، فإنهم كانوا يتمكنون من أن يحدثوا أخطاراً كثيرة دون أن يخشوا أى انتقام (بسبب رؤية إقليمهم مدمراً أو معرضاً لغزو العدو) ، ما داموا يحتفظون بالسيطرة على البحر ، وفى الظروف الراهنة ، فان المصالح التى أرسيت وأصبحت خاصة بأثينا ، أياً ما كان الأمر . تميل كثيراً إلى أن تذلل للعدو ، بينما البروليتاريا ، التى تدرك تماماً أنه ليست لديها ملكية خاصة معرضة للحريق أو الدمار ، تعيش فى أمان وترفض الخضوع للعدو . وكان يمكن أن تظل فى أمان من أى قلق ما دامت تسكن الجزر . وليس عليهم أن يخافوا خيانة الأقلية المدينة أو فتح البوابات غيلة ، أو الهجوم المباغت من العدو (وهى أحداث كان من شأنها ألا تحدث فى بلد غير جزرى) أو أى اضطراب داخلى مع البروليتاريا (التى لا يوجد مثيلها فى دولة الجزيرة) . وفى الوضع الراهن ، إذا ما حدث وشبت اضطرابات داخلية ، يمكن أن يتوقعوا تأييد العدو لها ، وسوف تسعى قواتهم إلى أن تدخل عن طريق البر ، مما يدفع السخط إلى حد العصيان . وفى دولة الجزر ، ليس عليهم أن يضعوا كل هذه الأمور فى الحسبان . وأياً ما كان الأمر ، فلم يحدث أصلا أن اختاروا جزيرة موطناً لهم ، أو أخذوا لهذه الأمور الاحتياط الكافى . فقد أودعوا أملاكهم فى الجزر ، بثقة كاملة فى علو شأنها البحرى ، وعارضوا فى تدمير إقليمهم فى أتيكا ، وهم على يقين ، كما حدث ، أنه فى وسعهم فقط أن يظهروا اعتباراً إلى أتيكا مقابل تضحية مصالحهم ذات الأهمية البالغة .

الطاعون فى أثينا (٤٣٠ ق . م)

(توكوديديس : الكتاب الثانى . الفصول ٤٧ — ٥٣)

فى وقت مبكر من الصيف التالى ، غزا البلبيونيزيون وحلفاؤهم أتيكا بثلثى قواتهم تحت قيادة «أرخيدا موس » Archidamus « بن زيوكسيداموس » Zeuxidamus ، ملك الإسبرطيين ، كما فعلوا فى العام الذى قبله ،وراحوا يدمرون البلاد . ولم يكن قد مضى عليهم أيام كثيرة فى أتيكا قبل أن يهاجم الطاعون الأثينيين . وكان من المفروض أن هذا المرض قد شب من قبل فى (ليمنوس) Lêmnos وفى أماكن أخرى كثيرة ، ولكن لم يسمع من قبل أو فى أى مكان بهذا الوباء على هذه الدرجة والمدى من التخريب . وفى البداية ، كان الأطباء عاجزين تماماً عن مقاومته ، وذلك لجهلهم بطبيعته ، وتزايدت حوادث الوفاة فيما بينهم ، لأنهم عرضوا أنفسهم أكثر مما يجب للعدوى . فلا الدواء ولا أى علم دنيوى آخر كان فى مقدوره مواجهة الآلام ، حتى ولاشفاعات المصلين ومشورة الأنبياء والالتجاء إلى الدين ، فقد ثبت أيضا أنها لاحول لها ، فأصبح الأثينيون أخيراً غارقين فى الآلام حتى فقدوا إحساساتهم .

وكان المفروض أن الوباء قد بدأ فى السودان المصري ، ومن هناك رحل إلى مصر وشمال أفريقيا والجزء الأكبر من البقاع الفارسية . واكتسح فى طريقه الأثينيين الغافلين . وحدثت الحالات الأولى فى (بيرايوس) Peiraeus التى نشأت على أثرها رواية تقول بأن البلبيونيزيين سمموا مخازن المياه (لم تكن الآبار الراهنة موجودة) . وبعد ذلك اتخذ الوباء طريقه من الميناء إلى المدينة . وزادت حالات الوفاة . وسوف أترك لكتاب آخرين ، محترفين أو هواة ، أن يسجلوا تأملاتهم فيما يتعلق بأصل المرض وحالاته (إذا ما كان يمكن افتراض الأسباب بقدرة كافية فى حسبان اضطراب بالغ فى نظام الطبيعة)، وسوف أقصر روايتى على وصف موضوعى ، ولاسيما الأعراض التى من شأنها أن تساعد أولئك الأخصائيين فى تشخيص الطاعون بشكل صحيح إذا ماقدر له أن ينتشر مرة أخرى.وأستطيع

أن أقوم بهذا بشكل معتمد، لأنني أنا نفسي قد هاجمني الطاعون ورأيت كيف أنه صدع ضحايا أخرى .

ومن الحقائق التي كان مسلماً بها أن السنة التي جاء فيها الطاعون كانت خالية بشكل استثنائي من الأمراض الأخرى، بما فيها حالات توعك المزاج السابقة . فالأشخاص الذين في صحة عادية هاجمهم المرض بشكل لا يحصى دون سابق إنذار . وكانت الأعراض الأولى حمى عنيفة في الرأس واحتقاناً في العيون ويتبعها مباشرة داخل الفم تغير اللون الى الأحمر القاني في الحلق واللسان ورائحة كريهة في التنفس بشكل غير عادي . ويلي ذلك من الأعراض عطس وذبحة في الصوت، وتسرع العدوى الى الصدر، حيث تظهر على هيئة سعال عنيف . والحالات التي تصيب المعدة تتلفها تماماً وتفرز المرارة كل ما يصنعه الداء الناشيء عنها، كل هذا مصحوب بضيق حاد. ولقد هوجم معظم المرضى بتهوع لا تأثير له يسبب رعشة عنيفة، ويسبب في بعض الأحيان القيء إلا أن هذا لم يحدث في حالات أخرى . ومن الناحية الخارجية لم يكن الجسم في درجة حرارة مرتفعة عن الحرارة العادية ولم يصب في سطحه الخارجي بالبرقان، إلا أنه كان محمراً، أزرق اللون مغطى بطفح جلدي مع بثور وقرح صغيرة. وأياً ما كان الأمر، فإن درجة الحرارة الداخلية كانت مرتفعة بشكل مؤلم الى درجة أن المريض لم يستطع تحمل لمس أخف الأشياء، حتى الكتان، على الجسد العارى، ويود أن يغطس في الماء المثلج . وألقى كثيرون من الذين أهملتهم الرقابة بأنفسهم في موارد المياه، وهلكوا من عطش لا يرتوى — رغم أن الحال لم يتغير سواء شربوا كثيراً أو قليلاً . ولم يكن هناك من البداية إلى النهاية فكاك من رعب الأرق وعدم القدرة على الراحة . ولم يطل الوقت حتى بلغ الهجوم ذروته، إن الجسد لم يفن إلا أنه أظهر قوة لم تكن منتظرة للمقاومة . وبعد ذلك، فإن المريض سواء استسلم كما يحدث عادة) للحمى الداخلية في اليوم التاسع دون أن يفقد حيويته البدنية تماماً، أو اذا ما تخطى هذه المرحلة، فإنه يجد أن المرض قد هبط الى الأمعاء، التي تصبح في حالة احتقان عنيف مصحوب بهجمات إسهال عنيفة. وفي هذه المرحلة الثانية، فإن اولئك الذين ظلوا على قيد الحياة يقعون في بداية الأمر فريسة الانهاك،

وبعد إصابة الرأس ، يأخذ المرض طريقه الى الجسد كله ، وعندما يعيش الجسد خـــلال الأجزاء الحيوية ، فإنه يترك آثاره على الأطراف . إنه يهاجم أصابع الأيدى ، وأصابع الأقدام والأجزاء الخاصة ، ويخرج الكثيرون من المرض وقد فقدوا هذه الأعضاء ويفقد البعض بصره . ويصاب آخرون خلال فترة النقاهة بفقدان مؤقت للذاكرة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يتعرفوا تماماً على أصدقائهم ونسوا هويتهم الخاصة . وفى الحقيقة ، فإن رعب المرض يفوق الوصف . لقد كان كارثة فوق احتمال البشر ، ومن طبيعته الشاذة ، أن الطيور والحيوانات التى طعمت من جيفة الإنسان ، اما أن تبتعد عن الجثث ، وإما أن تموت منها . وتتضح الحقيقة من اختفاء جثث الطيور فى ذلك الوقت . إذ لم يرها أحد تأكل اولم تشاهد على الاطلاق ؛ إلا أنه كان من الميسور ملاحظة الظاهرة فى حالة حيوان أليف كالكلب .

لقد وصفت الطبيعة العامة للمرض دون المضى فى تفاصيل لاحصر لها حول صفاته وتنوعها فى حالات انفرادية . وخلال انتشاره كانت هناك مناعة من العلل العادية ، وإذا ماظهرت إحدى هذه العلل فإن المناعة تحصرها . وتعود بعض حالات الوفيات الى الإهمال ، إلا أن المرضى الآخرين ماتوا على الرغم من التمريض الفائق . ولم يكتشف علاج يمكن أن يستخدم بالذات ، لأن العلاج الذى نجح فى حالة ما أحدث وفاة فى حالات أخرى . ولم تكن هناك بنية ضعيفة أو قوية محصنة ضد الهجوم . لقد اقتلع المرض كل ماصادفه وأفسد كل علاج . إن أكثر مصيبتين مرعبتين هما اليأس الذى يهبط على كل من يشعر بالمرض (وهو نوع من اليأس السريع الذى يقوض مقاومة الضحايا ويتركهم فريسة سهلة للمرض) والمصيبة الأخرى هى عدوى السليم من المصاب ، مما يجعل الناس يموتون كالأغنام وحدثت وفيات كثيرة بسبب العدوى . وحينما يرفض السليم أن يقترب من المريض خوفاً من العدوى ، فإن المريض يموت بلارعاية ، ويحصد الموت سائر أهل المنزل لآخر واحد إذ لم يكن يوجد أحد يقوم بالتمريض . ومن جهة أخرى ، عندما يهبون لمساعدتهم كان هؤلاء يموتون أيضاً ، وقد عانى الناس فى أى مستوى سلوكى الأمرين

بهذا الصدد ، مادامت مشاعرهم النبيلة دفعتهم الى أن يضحوا بأنفسهم ويمضوا فى تمريض أصدقائهم بينما كان الرعب يخيم . فالأقارب للموتى غالبا ما يتمزقون من الأنين ويخلون مراكزهم . وكان أبرز المتعاطفين مع المرضى والموتى هم من فى دور النقاهة ، فهم يتحققون مما يعانيه المرضى وليس لهم مايخشونه على أنفسهم ، اذ أن الشخص نفسه لا يهاجمه المرض مرة أخرى هجوماً قتالاً . لقد تلقوا التهنئة من كل إنسان ،وملأهم غرور اللحظة الراهنة بآمال كاذبة عن بقائهم فى مناعة دائمة من الموت من أى مرض .

وزاد هول الألم بتركيز السكان الريفيين فى المدينة،ولاسيما فى اللاجئين أنفسهم. ولم تكن هناك بيوت لمأواهم ، وتكدسوا فى أكواخ خانقة فى جو هذا الصيف . ولم يكن هناك حد معين لو فاتهم.وتكدست جثث الموتى الواحدة فوق الأخرى، بينما البؤساء الذين يعانون سكرة الموت تضوروا فى الشوارع وتكاثروا حول جميع الفافورات يتطلعون بيأس إلى الماء . حتى أماكن العبادة التى كان يستريح فيها الجنود امتلأت بأجساد من مات فى التخوم، لأن الرعب كان يتدفق بشكل كبير حتى إن الشعب لم يعرف كيف يواجهه وفقد كل اعتبار للوصاية المقدسة أو الدنس . وانقلبت المراسيم الجنائزية المألوفة ، إذا أنهم دفنوا موتاهم بأفضل ما فى وسعهم، وفقد الكثيرون كل إحساس باللياقة إزاء الضائقة التى وصلوا إليها بسبب عدد الوفيات فى ذويهم . ووجد بناة المحرقة أنفسهم محتجزين من الآخرين ، الذين يضعون موتاهم عليها ويشعلونها أو الحمالين الذين يلقون بالجثمان على كومة محترقة ويجرون بسرعة .

وفى الحقيقة ، فإن الطاعون أعطى باعثا لكل نزعة غير اجتماعية فى أثينا . فانفرجت الأحابيل والمراوغات التى أحاطت من قبل بأنواع معينة من السلوك تحت وطأة تقلبات الحظ السريعة . وانطفأ الخير فى بريق العين ووهب المفلسون ممتلكات على حين فجأة . أما الأخلاق التى لافكاك منها فكانت أن تصرف بسرعة وأن تصرف على اللهو ، مادامت الحياة والثروة من أمور الساعة .واختفت

رغبة الاحتفاظ بأساليب الشرف المعروفة ، خلال عدم التأكد من أن الموت سوف يحل قبل تحقيق الهدف ، واغتصبت اللذة المؤقتة وكل ماسيتصل بها مكان الشرف والخير . أما مخافة الله وتقاليد الإنسان فقد كفت عن أن تزاول قدسيتها . مادام الموت يحل بالعادل وغير العادل ، وبدا الأمر على أنه ليس هناك محل للاختيار بين التقوى والكفر ، ولم يتوقع المجرمون أن تمتد بهم الحياة حتى يقتص منهم ، وأحسوا بأن عقاباً قد حل بالفعل على رءوسهم وأن الحياة يجب أن تسمح ببعض المتعة قبل أن تحل بهم الضربة .

الجزء الثالث

فن التاريخ

القسم الأول

مسائل فنيـــة

الإشكال الزمنى حول هرقل

(هيرودوت : الـكتاب الثانى . الفصول ٤٣ — ٤٥)

لقد سمعت ، فيما يتعلق بهرقل ، أنه من المقرر فى مصر أنه كان واحداً من الآلهة الاثنى عشر ، إلا أننى لم أنجح أبداً فى العثور فى مصر على أثر عن (الهرقل الآخر) الذى يألفه الهلينيون . ومن المؤكد أن المصريين لم يأخذوا إطلاقاً الاسم من الهلينيين وإنما الهلينيون هم الذين أخذوا الاسم عن المصريين ، وقد تم هذا على أيدى الهلينيين الذين أطلقوا اسم « هرقل » على ابن « أمفتريون » Amphitryon . وأحد الأدلة الـكثيرة على ما وجدته مقنعا فى هذه المسألة هو أن أبوى « هرقل » أمفتريون والـكميئا Alcmena ، كانا ينحدران من مصر ، وأن المصريين ينكرون كل معرفة بأسماء « بوسيدون » Poseidon « وديوسكورى » Dioscuri ، ولم يعرف البانثيون Pantheon المصرى بهذه الآلهة الأخيرة ، فى حين أنهم ، إذا كانوا قد أخذوا اسم أى إله من هيلاس ، كان لهذه الآلهة الثلاثة أن تحدث انطباعاً فى ذكرياتهم . واعتقادى الشخصى ، أن الحـكم الذى له وزن هو أن للمصريين فى تلك الفترة ، كانوا يجوبون البحر وأن هذه الآلهة الثلاثة كانت من عناصر الملاحة فى هيلاس — وهى ظروف من شأنها أن تجعل أسماء هذه الآلهة مألوفة للمصريين أكثر من اسم هرقل . [1] وأيـا كان الأمر ، فقد كان لدى المصريين إله قـديم خاص بهم يدعى « هرقل » يدخلونه فى زمرة الاثنى عشر إلهـا وقد وضع Eight هذه الآلهة الاثنى عشر فى الألف السابقة قبل حكم « أمازيس »[1] Amasis .

---

(١) كان بوسيدون وديوسكورى الحماة الهلينيين الملاحة (المحقق)

(٢) ٥٦٩ ـ ٥٢٥ ق . م (المحقق) .

ورغبة فى أن أحصل على معلومات دقيقة حول هذه المسائل من أولئك الذين هم أهل لتقديمها ، أبحرت إلى (صور) فى فينيقيا ، حيث سمعت أنه كان هناك ضريح نذر لهرقل . ووجدته مزيناً بشكل فاخر بعدد كبير من النذور ، وبه عمودان ، أحدهما من الذهب الخالص والآخر من الزمرد (ويظل العمود الأخير لامعاً مضيئاً فى الظلام) ودخلت فى حديث مع كهنة الآلهة وسألتهم عن التاريخ الذى أقيم فيه الضريح ، وعلمت عندئذ أنهم ، لا يقلون عن المصريين اختلافاً مع الهلينيين . إذ إنهم أخبرونى أن تأسيس الضريح يعاصر تأسيس (صور) نفسها ، وهو تاريخ يعود إلى ٢٣٠٠ سنة مضت .

وفى صور ، شاهدت ضريحاً ثانياً لهرقل يطلق عليه (هرقل الثاسوسى) Heraclas of Thasos . وفى (ثاسوس) نفسها (التى زرتها أيضا) اكتشفت معبداً لهرقل أقامه فى الأصل الفينيقيون الذين استعمروا الجزيرة خلال رحلة قاموا بها بحثاً عن « يوروبا » (١) . — وهى حادثة سابقة بخمسة أجيال على مولد هرقل ابن « أمفتريون » فى هيلاس . وتبين نتائج أبحاثى بوضوح أن هرقل كان إلها قديما ، وفى رأيى ، أن الإجراء الأكثر صحة هو ذاك الذى اتبعه الهلينيون الذين أقاموا أضرحة مزدوجة لهرقل وحافظوا عليها ، وشرفوا بها من حمل الاسم على حدة باثنين من الطقوس المتميزة ، — أحدهما خالد وهو يدخل فى زمرة سكان الأوليمب ، والآخر يدخل فى زمرة القديسين (٢) . والهيلينيون الذين يقترفون عبارات سيئة التقدير ، يسردون على الأخص أسطورة طفولية تتصل بهرقل . تدور حول الوقت الذى زار فيه هرقل مصر ، وعندما أخذه المصريون ضحية وقادوه فى موكب رزين ليقدموه قرباناً إلى « زيوس » . لم يبـد البطل أى مقاومة ولكنه عندما تأهبوا لوضعه على المذبح ، قاوم فى سبيل حياته وأتى لآخر رجل وفى رأيى ، أن القصة تفصح عن الجهل الكامل من جانب الهلينيين بطبيعة

---

(١) كانت يوروبا ، حسب أسطورة الهلينيين ، أميرة فنيقية اختطفها الإله زيوس وهو فى شكل ثور وحملها إلى كريت (المحقق)

(٢) « بطل » فى اليونانية (المحقق) .

المصريين وأنظمتهم . فان الذبائح الحيوانية ، عند المصريين ، بمثابة (تابو) فيما عدا الأغنام والثيران ونتاج الثيران . ومن هنا . فليس من المعقول أن يقدم المصريون ذبائح بشرية . وكذلك حسب افتراض الهلينيين فهناك هرقل واحد ، وهذا الفرد الوحيد كان كائناً بشرياً ، والفكرة القائلة بأنه ذبح عشرة آلاف لاتتفق مع مجرى الطبيعة . وبهذا أختم ملاحظاتي حول الموضوع — الذى أتق إزاءه بأنه لا الآلهة ولا القديسون يحملوننى رغبة فاسدة.

تقويم مصرى وتقويم هلينى

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٤٢ — ١٤٦)

وعند هذا الحد من روايتى ، كانت مصادرى هى المصريين وكهنتهم ، الذين حسبوا الفترة من أول ملك حتى كاهن « هيفا يستوس» Hephaestus ،ويشتمل حكمهم على سلسلة من ٣٤١ جيلا ، مليئة بهذا العدد الدقيق من كبار الكهنة والملوك على التوالى.وتقدر الأجيال الثلاثمائة الآن ب ١٠٫٠٠٠ عاماً[1] ،بينماالواحد والأربعون جيلا الباقية، بالإضافة إلى الأجيال الثلاثمائة،تكون ١٣٤٠ عاماً ، وفى عبارة أخرى فإن المصريين يؤكدون أنه بالنسبة ل ١١٫٣٤٠ عاماً ، لم يكن هناك إله يتجسد فى شكل إنسان — وهى ظاهرة لاتعزى بطبيعتها ،فيما يتعلق بهذا الموضوع الى أى من ملوك مصر الباقين ، سواء كانوا سابقين على هذه الفترة أو لاحقين لها . وخلال الفترة موضع البحث،يؤكدون أن إله الشمس قد تحول عن مكانه السابق فى أربع مناسبات — وهناك دورتان تحول فيهما فكان يغيب حيث يشرق الآن ويشرق حيث يغرب الآن[2] . وأضافوا أن هذه الثورات الفلكية لم تحدث أى تغيير فى الظروف البيئية لمصر ، كمسائل خواص التربة أو النهر ، وحالة الصحة العامة ومعدل الوفيات .

---

(١) ثلاثة أجيال مائة عام (المؤلف)

(٢) إشارة مضطربة إلى الدورة الفلكية من التقويم المصرى ، ومن المفروض أن يبدأ الشهر الأول يوم بزوغ كوكب الشمس (سوثس) وهو تاريخ يتكرر فعلا مرة كل ١٤٦٠ سنة فلكية (المحقق) .

وقد حدث قبل زمانى أن زار « هيكاتيوس » Hecataeus الراصد[1] طيبه Thebes وشرع فى سرد نسبه الخاص ، حيث ربط فيه أسلافه بالآلهة فى الجيل السادس عشر ، وحيث فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه معى من قبل ، على الرغم من أننى أحجمت عن أن أحذو حذوه . لقد أخذوه إلى البهو الداخلى الكبير للمعبد وعرضوا فى حضرته سلسلة من التماثيل الخشبية يصل عددها إلى الرقم الذى ذكرته . وكانت هذه هى عادة كل كاهن كبير أن يقيم له شبيهاً إبان حياته فى هذا المبنى . وقد استعرض الكهنة هذه التماثيل مرة أخرى فى حضورى ، وزعموا وجود تسلسل غير منقطع من الأب إلى الابن ، وكان الإجراء الذى قاموا به هو أن يبدأوا من تمثال الكاهن المتوفى مؤخراً حتى يأتوا على نظائر السلسلة كلها . وأياً ما كان الأمر ، فعندما كان « هيكاتيوس » يسرد نسبه ويربط نفسه بإله الجيل السادس عشر ، لم يكونوا قانعين بإحصاء التماثيل وإنما سردوا أنسابهم هم فى مقابل أنسابه ، حتى يظهروا تشككهم فيما يتعلق بتأكيده أن إنساناً ما من نسل الله . وكان منهجهم فى سرد أنسابهم المقابلة هو أن يعلنوا أن كل تمثال كان « بكراً »[2] أو جده « بكر » حتى أوجدوا نظائر لـ ٣٤١ تمثالا ، ورفضوا أن يربطوها بإله أو قديس . وكانوا ، بالطبع ، يزعمون بأن سائر سلسلة الأفراد التى تمثلها التماثيل كانت كائنات بشرية ، وهى جميعاً بعيدة عن الآلهة . وأياً ما كان الأمر فهم يسلمون بأنه قبل زمن هؤلاء الرجال ، فإن حكام مصر كانوا آلهة يسكنون بين البشر ، وكان يحكمهم أحدهم دورياً . وطبقاً لرواياتهم ، فإن آخر ملك — إله فى مصر كان « حورس » Horus بن « أوزيريس »[3] Osiris الذى يطلق عليه الهلينيون « أبولون » Apollo .

وكان من المفروض أن يكون أصغر الآلهة فى هيلاس هم « هرقل » و

(١) راصد مبكر وراوى للأنساب من (ميليتوس) المدنية الهلينية (عرف فى القرن السادس ق . م) — المحقق

(٢) Piromis فى المصرية تقابل الكلمة اليونانية (السيد) — المؤلف

(٣) Horus هو آخر ملك فى سلسلة الملوك الذين ارتقوا العرش فى مصر بعد الإطاحة بـ « تيفوس » والكلمة اليونانية « أوزيريس » هو « ديونيسوس » — المؤلف

« ديونيسيوس » و « بان » Pan بينما « بان » فى مصر هو أعظم مجموعة الآلهة الأولى قدماً «ضمن » و «هرقل» من المجموعة الثانية «الاثنى عشر» و«ديونيسيوس» من المجموعة الثالثة التى تنحدر من « الأثنى عشر » وقد أصبح التاريخ الذى وضع فيه المصريون « هرقل » بالإشارة إلى حكم « أمازيس » ضحا فعلا . أما تاريخ «بان» فهو مبكر عن ديونيسيوس آخر الثلاثة ، على الرغم من أن الفترة التى تفصل ديونيسيوس من حكم أمازيس تقدر بـ ١٥٫٠٠٠ عاماً ويعلن المصريون أنهم يعرفون هذه الوقائع بالتأكيد خلال سلسلة غير منقطعة من الإحصائيات والسجلات التقويمية وفى مقابل هذا فإن « ديونيسيوس » هو الذى زعم أنه ابن « سيميل » Seme e ابنة « كادموس » Cadmus الذى عاش منذ ١٠٠٠ عام قبلى على وجه التقريب وعاش « هرقل » ابن « الـكمينا » منذ ٩٠٠ عاماً ، « وبان » ابن بنيلوبى(١) penelope ٨٠٠ تقريباً ، أو لم يعش قبل الحرب الطروادية بـكثير . وعلى القارئ أن يأخذ من هذه التواريخ المتعارضة ما يجده أكثر امتناعاً . أما تعقيبى الشخصى على الموضوع فقد أوضحته فعلا . وإذا ما كان الاثنان الآخران ، واللذان أقصد بهما ديونيسيوس بن « سيميل » و « بان » « بنيلوبى » ، فقد أوجدوا أثارهم وعاشوا حتى نهاية أيامهم فى هيلاس ، مثل هرقل بن أمفتريون، ويمكن الجدل بأن الهلينيين الذين يحملون هذه الأسماء كانوا بالمثل أناسا اكتسبوا الأسماء من أسلافهم وسموا الإلهين المصريين . وأيا ما كان الأمـــــر ، فإن الهلينيين يؤكـدون أن « ديونيسيوس » بعد ولادته مباشرة ، التصق بفخذ زيوس ونقل « نيسا » Nysa فى جنوب مصر ، بينما كانوا غير قادرين أن يخبروك ماذا فعل « بان » مع نفسه عندما ولد . وعلى هذا فمن الواضح بالنسبة لى أن الهيلنيين تعلموا أسماء هذين الالهين فى تاريخ متأخر عن هؤلاء الآخرين ، وأنهم ، فى حساب أنسابهم ، يؤرخون مولدهم من الفترة التى سمعوا فيها عنهم لأول مرة .

---

(١) حسب الرواية الهلينية ، وكانت أم « بان » هى « بنيلوبى » ووالده هرميس. المؤلف

دليل كتابي

(بوليبيوس : الكتاب الثالث . الفصل ٢٦ ١ — ٥ و ٣٣ ١٧ — ١٨ والكتاب الثانى عشر الفصل ١١ ١ـ٤).

لقد أوضحت الآن قسمات هذه المعاهدات [١] ، ونصوص كل معاهدة محفوظة على ألواح [٢] البرنز ، فى معبد زيوس على الكابيتول [٣] فى حجرة الوثائق [٤] . وعلى ضوء هذا ، فلكل شخص الحق فى أن تتملكه الدهشة إزاء المؤرخ « فيلينوس » [٥] لا لجهله بالوقائع [٦] ، وإنما إزاء الوقاحة التى لاتصدق عندما يجرؤ على تأكيد نقيض ذلك ، ويزعم أن المعاهدات بين روما وقرطاجنة كانت قائمة وهى التى منعت الرومانيين من دخول أى جزء من صقلية ومنعت القرطاجينيين من دخول أى جزء فى إيطاليا . وهو افتراض يستنتج منه أن الرومانيين انتهكوا وعودهم الموقرة عندما حلوا لأول مرة فى صقلية [٧]. على الرغم من أنه ليس هناك مثل هذه الوعود المكتوبة التى تبين أن هذا قد حدث فى وقت ما ، وهذا هو التأكيد الواضح الذى دونه « فيلينوس » Philinus فى مجلده الثانى . ولقد أشرت إلى هذه المسألة فى مقدمة مؤلفى ، إلا أننى أرجأت تناولها إلى الفرصة الحالية . والتى أقوم بها الآن بشىء من التفصيل ، على ضوء أن كثيرا من دراسى التاريخ قد انقادوا إلى الخطأ فى هذا الصدد بسبب اعتمادهم على عمل « فيلينوس » . . .

وينبغى ألا يدهش قرائى إزاء دقة هذه العودة [٨] حتى على الرغم من أننى

---

(١) المعاهدات المبكرة بين روما وقرطاجنة (المحقق)

(٢) بعض أجزاء المستندات الهلينية والرومانية (القانونية والدينية) حفرت على ألواح البرنز وبقيت من التاريخ القديم ، رغم أن النصوص المذكورة هنا ليست من بين العدد (المحقق) .

(٣) جوبيتر كابيتولاينس (المحقق)

(٤) كلية لضباط يختارون سنوياً فى روما وكانت وظائفهم اقتصادية بحتة (المحقق)

(٥) مؤرخ هلينى للحرب البونية الأولى (٢٦٥ — ٢٤٢ ق م) وكان من الواضح أنه معاصرلها (المحقق)

(٦) ليس هناك مايبعث على الدهشة فى هذا ، على اعتبار أنه حتى فى أيامنا فإن هذه النصوص لم تكن معروفة لأكثر الدرسين اهتماماً بالشئون العامة ، بما فيهم أولئك الذين وهبهم عصرهم أكبر قدر من الذاكرة (المؤلف)

(٧) فى عام ٢٦٤ ق . م أول حملة فى الحرب اليونانية الأولى (المحقق) .

(٨) عودة القوة التى غزا بها هانيبال فى ايطاليا

قد وصفت إجراءات « هانيبال » فى أسبانيا بتفصيل أكبر أكثر من السند الأول الذى يعرض الشئون الجارية التى مرت من بين يديه ، وينبغى ألا يدينونى كذلك دون أن يستمعوا لى إذا ماسلكت بريبة كمسلك المؤرخين الأفاكين عندما يرغبون فى خلق انطباع بالحقيقة . وأن القائمة فى ضريح (لاكينيوم)[1] Lacinium عن اكتشافى ، حيث وضعت فى سجل من ألواح برنزية بواسطة هانيبال ، فى أثناء حملاته فى إيطاليا . واثق باطمئنان فى هذه الوثيقة ، وعلى الأقل فى المسائل التى سردتها ، والتى عزمت على اتخاذها هادياً لى .

وإذا ما كان صديقنا « تيمايوس »[2] قادراً على أن يضع يديه على أية محفوظات عامة أو نصب تذكارى تأييداً لرأيه ، فهل لنا أن نفترض أنه فشل فى أن يذكرها؟ إن « تيمايوس » هو المؤرخ الذى يقارن قائمة الدليل السنوى فى (أسبرطة) مع قائمة الملوك (حتى عصور قديمة) ؛ وهو الذى يرتب حكام أثينا السنويين والكاهنات فى (أرجوس) فى أعمدة مقارنة مع الظافرين فى الألعاب الأوليمبية ؛ وهو الذى يعرض أخطاء الحكومات فى سجلاتها الرسمية عن هذه المعلومات ، التى يثبت فيها أن ثلاثة شهور غير دقيقة . مرة أخرى ، إنه « تيمايوس » الذى اكتشف السجلات على الجانب الخطأ من المبانى العامة وقوائم القناصل الأجانب على أبواب المداخن الجانبية فى الأضرحة

مكان الجغرافيا فى التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثالث . الفصول ٥٧ — ٥٩)

والآن وقد أدرت روايتى فيما يتعلق بى وبقادة القوات المعادية والحرب ذاتها[3] حتى أعتاب أيطاليا ، فإننى أرغب ، قبل أن أبدأ فى العمليات الحربية ، أن أناقش بإيجاز مسائل معينة غير مناسبة فى عملى . إذ إنه من المحتمل أن يتوق بعض القراء

---

(١) ضريح شهير للربة (هيرا) فى اقليم كروتون وهى عاصمة هلينية فى آخر ايطاليا (المحقق) .

(٢) « تيمايوس » من تور ومينيوم (٣٤٦ — ٢٥٠ ق . م) مؤرخ هلينى شهير ضاعت مؤلفاته . ومعلوماته الرئيسية عنه مأخوذة من بوليبوس ، لهجمات الطويلة والعنيفة عليه (المحقق) .

(٣) الحرب الهانيبالية أو (الحرب الثانية) بين روما وقرطاجنة (المحقق) .

إلى معرفة ماهى تلك المسائل، بعد التوسع فى جغرافية شمالى غرب أفريقيا وأسبانيا، ولم أسهب بالذات فى مضايق جبل طارق، والمحيط الأطلنطى وظواهرها الغريبة، والجزر البريطانية وصناعة القصدير، أو مناجم الفضة ومناجم الذهب فى أسبانيا ذاتها — وهى موضوعات أفسح لها المؤرخون السابقون صفحات عديدة من المناقشة. والسبب عندى فى طرح هذا الفرع من التاريخ جانباً لم يكن لأنه غير مناسب، وإنما لأنه غير مرغوب فيه، فى المحل الأول، لأنه يقطع بشكل مستمر سياق الرواية ويحرف انتباه القارئ الجاد عن موضوعى العملى، وفى المحل الثانى، هو قرار موضوعى بألا أتناول هذه المادة بطريقة مستقلة أو عرضية، وإنما لأخصص لهذا الفرع مكاناً خاصاً ووقتاً خاصاً به وبعدئذ أقدم رواية لها بكل ما أملك من دقة. ولهذا ينبغى ألا يدهش قرائى، إذا ما وجدوا فى الفصول التالية، أننى، عندما أصل إلى مناطق أخرى من الاهتمام الخاص بالجغرافيا، قد طرحت جانبا هذا الفرع من البحث — فقد وضحت مبرراتى لهذا الآن. وإذا ما أصر أى قارئ على تلقى هذه المعلومات شيئاً فشيئاً، ومنطقة منطقة، فمن المحتمل ألا يكون مدركاً أنه بهذا يسلك مسلك النهم على المائدة. إذ إن النهم يتذوق كل طبق ولا يستمتع أصلاً بأى من المأكولات فى لحظة أكله ولا يحصل على أية فائدة دائمة منها فى طريقة الهضم والغذاء، وإنما يحصل تماماً على عكس ذلك، وكذلك فإن القارئ النهم يضر بنفسه، سواء كان هـــدفه التسلية المؤقتة أو التثقيف الدائم.

إن الحاجة الفعلية للتفكر الوثيق والإصلاح (فى اتجاه دقة أكبر)، والتى يندرج تحتها هذا الفرع من التاريخ أكثر من أى فرع آخر، قد وضحت من اعتبارات عديدة، وسوف أذكر أكثرها إقناعاً. إن سائر كتاب التاريخ تقريباً أو الأغلبية الساحقة على أى تقدير، سعوا إلى وصف وضعية البلدان التى تقع على حدود العالم المأهول المعروف لدينا وخواصها، ووقعت الأغلبية فى عملها هـذا فى أخطاء لا حصر لها. وعلى هذا ليس هناك عذر لطرح هـــذا الموضوع جانباً، ولكن بذات الوقت، مهما قيل فى الرد على أسلافنا يجب أن يقال بانتباه كامل

ولا يقال بطريقة عارضة مشوشة . ويجب أيضاً ، ألا يقال بروح اللوم أو بنغمة التقريع . فمن الأسلم أن تمتدح جهودهم مع تصحيح أخطائهم ، مدركين أن أولئك المؤرخين لو كانوا قادرين على أن يفيدوا من الفرص الراهنة ، لتوفروا على تصحيح وإعادة ترتيب كثير من أعمالهم التي نشرت . ففي الماضي ، كان من المستحيل أن نشير إلى عدد أكثر من الهلينيين المرموقين الذين سعوا إلى الإفادة من الأراضي المتاخمة — وكان العائق هو عدم القدرة على تطبيق المشروع . وكانت مخاطر السفر بحراً وقتئذ لا يمكن حصرها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، رغم أنها لم تكن سوى جزء من أخطار البر . ولو نجح المسافر كذلك ، عن رغبة أو إلزام فى الوصول إلى تخوم الأرض ، فإنه كان ما يزال معرضاً لعدم إكمال هدفه . وكانت أية ملاحظة أولية أخرى تلاقى صعوبات لأن بعض المناطق أصبحت أقل حضارة والبعض الآخر خالياً من السكان ، بينما الاختلاف فى اللغات البشرية جعل من الصعب إدراك أية معلومات نتيجة البحث فيما يتعلق بالأهداف التى تقع تحت البصر . وأياً ما كان الأمر فحتى عند إدراك هذه المعلومات ، فإن العمل الأكثر صعوبة منها جميعاً من وجهة نظر المراقب ، كان أن يزاول كبح جماح النفس لمقاومة إغراء العواطف والمتاجرة الغريبة ، حتى يعطى واجب الأمانة الأول إلى الحق وأن يقرر لنا الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحق . وبالتالى ، فإن البحث التاريخى الدقيق فى المواضيع السابق ذكرها لم تكن صعبة جداً بدرجة مستحيلة فى الماضى ، وأبعد من أن تستحق اللوم لأخطائهم ونقائصهم ، فإن كتاب اليوم قد يطالبون بحق برضائنا وإعجابنا بمثل هذه الوقائع كالتى يؤكدونها وللدرجة التى طوروا بها معرفة الموضوع الذى يوجد تحت ظروف معاكسة . وأياً ما كان الأمر ، ففى الأزمنة الحديثة ، نجد أن إمبراطورية الإسكندرية فى آسيا وسيادة روما فى كل مكان قد فتحت تقريباً كل العالم للبر أو البحر ، بينما رجال الأعمال وجدوا أطماعهم تتحول من المهن الحربية والسياسية وقدمت لهم الظروف الجديدة تسهيلات هامة وعديدة للاستثمار والبحث فى الموضوعات السابقة ، ولهذا فإنه محتم علينا أن نكتسب معرفة أكثر ودقة أفضل فى حقول لم يخطط لها من قبل وسوف أحاول أن أسهم من

جانبى فى هذه المهمة عندما أصل إلى حد ملائم فى مؤلفى لهذا الفرع من الاستقصاء وسوف آمل أن أدرب طلاباً جادين على الموضوع بطريقة مفهومة . وفى الحقيقة ، فإن هدفى الرئيسى هو تعريض نفسى للأخطار التى أحصيتها فى رحلاتى فى أفريقا وأسبانيا ، وأيضا فى بلاد الغال Gaul وفى المحيط الذى يغسل شطئان هذه البلدان النائية ، وكان من شأنها أن تصحح جهل أسلافنا فى هذا الفرع من المعرفة وأن نجعل هذا الجزء من العالم مألوفاً للجمهور الهلينى كبقية الأجزاء الأخرى .

منهج الفصول المتعاقبة

(بوليبيوس : الكتاب ٢٨ الفصول ٥ — ٦)

إننى لست بغافل عن أن بعض القراء سوف ينتقدون عملى على أساس أننى قدمت رواية للأحداث غير كاملة ومشوشة — فمثلا ، عند المضى فى سرد حصار قرطاجنه أغفلتها فجأة فى الوسط ، وقطعت سلسلة أفكارى ومضيت أتابع تدابير هيلاس ومقدونيا وسوريا أو مناطق أخرى . وسوف يقال لى إن الدارسين الجادين يطلبون الاستمرار ويرغبون فى متابعة موضوع ما حتى ختامه — وهو المنهج الذى من شأنه أن يحصل على أقصى قدر من المكافأة ويقدم أكبر قدر من التعليم إلى القارىء اليقظ . أما من جهتى ، فإننى لا أخالف هذا الرأى فحسب بل إننى أعزز الرأى المضاد ، تدعيما لما أنا على استعداد لأن أطلق عليه دليل الطبيعة ذاتها . فإن الطبيعة لا ترغب ، فى حدود أى معنى على حدة أن تبقى بشكل مستمر على موضوع بذاته . إن الطبيعة هى الحامى المخلص للتغيير ، وهى ، إذا ما مالت إلى موضوعات متشابهة ، فإنها تفضل أن تفعل هـــذا فى فترات ومن زوايا مختلفة ، وسوف تتضح قضيتى من زاوية السمع ، التى لا تميل إلى البقاء بشكل مستمر فى مراحل متماثلة ، سواء سمعت أو سردت ، ولـكن التغيرات هى التى تنبهها ، وبطريقة عامة ، أو أى شىء شاذ أو يتسم بألحان عنيفة وسريعة ، وبالمثل ، فإن معنى الذوق سوف يكون غير جدير بالاحتفاظ به ، دون تغير ، حتى بالنسبة لأدسم الأطباق . إنها تشبع سريعاً حتى إنها لتبتهج بالتغير وترحب دائماً بالطعام الســـهل أكثر من الطعام الدسم

لمجرد التجديد . وسوف تلحظ الظاهرة نفسها فى حالة رؤيتها ، فإن المنظر غير كفؤ من الناحية العملية فى التركيز بشكل مستمر على هدف واحد ، ولكن يثيرها التنوع والتغير فى مجال الرؤية . وأياً ما كان الأمر ، فإن أكثر أمثلة القانون وضوحا متوافر فى الذهن ، فإن المشتغلين بالمسائل الذهنية المضنية يجدون تسلية مماثلة فى نقل البؤرة العقلية والانتباه من موضوع إلى آخر . والحق أننى أعتقد بأن أكثر المؤرخين المرموقين القدامى يقتبسون عن وعى وسائل هذه التسلية ،البعض عن طريق التحريف فى شكل الأسطورة أو الملحة،والبعض الآخر عن طريق تشتيت روايتهم التاريخية بشكل كبير فمثلا لا يقصرون نقلهم على أجزاء هيلاس المختلفة ولكنهم يحتضنون العالم الخارجى . إننى أفكر فى مثل هذه الحالات بصفتى مؤرخاً ، يقطع روايته فى منتصف سزدر تاريخ تساليا وتدابير « الإسكندر الفرايوى» Pherae ، ليصف مشروعات الإسبرطيين فى البليبونيز ، وحتى مشروعات أهل طيبة ، أو ، الأحداث فى مقدونيا أو الليريا Illyria أيضا ، وهو الذى يشرع فى التباطوء فى حملة إيفقراط Iphicrates إلى مصر أو انتهاك حرمة « كليارخوس » Clearchus فى البحر الأسود . والنتيجة هى أن سائر الكتاب التاريخيين سوف نجد أنهم استخدموا هذا المنهج فى التناول ، إلا أنهم فعلوه بلا منهج نظامى ، حيث أكون أنا نظامياً . وعلى سبيل المثال ، فإن الذين سبقونى بعد أن سجلوا كيف أن الملك الليدى « بارديليس » Bardyllis أو ملك تراقيا « كيرسوبليبتيس» Cersobleptes حصلوا على عروشهم ، لا يقطعون هذه الرواية دون أن يقدموا فى القصة فصلا ثانيا فحسب ، بل إنهم أيضـــا ينسون أن يخطر ببالهم المتابعة بعــــد فترة معينة ، بدلا من النتيجة التى يرجعونها إلى موضوعهم الأصلى ويتناولون الآخر بوصفه مجرد إدماج . وكان على منهجى الخاص أن يميز سائر مناطق العالم الهامة نسبيا والإجراءات الواحدة من الأخرى التى كانت مسرحاً لكل منها على حدة ، وأن يتمسك فى عرضه لها ، بنظام ثابت من التتابع ، وأن يرى فى حدود كل سنة متتالية ، الأحداث المتعاصرة التى وقعت فيها . وبهذه الطريقة أجعل من المستحيل بالنسبة للدراسين الجادين أن

يخطئوا المسائل التى التزم نحوها بمتابعة الأحداث التى رويت من قبل أو أن أقطع روايتى للأحداث فى أية حالة معينة ، بحيث لا أترك جزءا من الأجـــزاء السابق ذكرها مبتوراً أو ناقصا . من وجهة نظر القارئ الجاد .

(أنا) فى الرواية

(بوليبيوس : الـكتاب ٣٦ ، الفصل ١٢)

ينبغى ألا يدهش قرائى إذا ما أشرت فى بعض الأحيان إلى نفسى باسمى وفى بعض الأحيان بتعبيرات عامة مثل (عندما قلت هذا) أو (عندما اتفق فى هذا) . والحقيقة أننى غارق جداً فى الإحساس الشخصى ، فى الإجراءات التى ينبغى أن أرويها من هذه النقطة فصاعداً ، يجعل من الضرورى بالنسبة إلى أن أغير من الإشارة إلى نفسى . وعلى أن أتجنب أى حرج بتكرار اسمى بشكل رتيب وعلى كذلك أن أكون يقظاً إزاء الانزلاق فى السوقية باستخدام كلمة (أنا) و (فى روايتى) فى كل مناسبة . وعلى هذا سوف أفيد من كل هذه القضايا ، مختاراً التغير الأكثر مناسبة لـكل مقام ، بأفضل ما يعذرنى قرائى من أكبر رذيلة شاقة وهى الإعلان عن النفس — وهى خدعة أسلوبية ينشأ عنها اشمئزاز غريزى على الرغم من أنه لا يمكن تجنبه فى الغالب عندما لا يـكون هناك منهج بديل عنه فى تقديم مادة الموضوع . إن الحظ السعيد قد ساعدنى على أن أحل هـذه المشكلة حسب الحقيقة التى تقضى بأن — فى حدود أقصى معلوماتى — ليس هناك فرد آخر قبل زمانى ، كان اسمه « بوليبيوس » .

الخطب : مـكانها الملائم وغير الملائم

(بوليبيوس : الـكتاب ٣٦ . الفصل الأول ، والـكتاب ١٢ ، الفصل ٢٥ ا ـ ب)

من المحتمل أن يتطلع بعض قرائى لمعرفة كيف أننى لم أسع إلى الشهرة بإعادة الخطب التى ألقتها الأطراف المختلفة ، مادام لدى موضوع بمثل هذه الضخامة ومجال

بمثل هـذا الاتساع . ولـكن لماذا لم أترسم خطى أغلبية المؤرخين ، الذين صنفوا الأحاديث الهامة حسب المناسبة التى ألقيت فيها كل منها ؟ إن الحقيقة التى تقضى بأننى شخصياً لم أنبذ هذا الفرع من الـكتابة التاريخية قد وضحت بشكل كاف فى مقاطع كثيرة من عملى وذكرت فيها مراراً أحاديث ومؤلفات الناس الجماهيريين ، إلا أنه قد أصبح من الواضح الآن أننى لم أتشبث بأن أتابع هـذه التجربة بمناسبة وبلا مناسبة ، على اعتبار أنه لن يكون من اليسير أن نجد موضوعاً أكثر أهمية من الموضوع الراهن[١] أو مادة وافرة أقدمها لقرائى . وقد أضيف بأن شيئاً لن يـكون أكثر بساطة بالنسبة لى من أن أقدم جهداً أدبياً من هذا النوع ، مادمت غير مقتنع بأن القاعدة نفسها تنطبق على المؤرخ كما تنطبق على السياسى . إذ أنه ليس من واجب السياسى أن يعلق أو يوسع تفاصيل أى موضوع يطرح للمناقشة ، وإنما عليه أن يوائم بين عباراته فى مناسبة بعينها ، وكذلك ليس من مهمة المؤرخ أن يتدرب على حساب قرائه أو أن يستعرض قدراته الأدبية بأقصى ما فى وسعه من جهد ، ولـكن عليه أن يبذل قصارى جهده فى إفادتهم وأن يشرح العبارات التى قيلت فعلاً ، ملتزماً بأكثر المقاطع حيوية وفعالية .

ومما يجرى كمضرب الأمثال ، أن أى قطرة من أكبر جرة تـكفى بأن تفصح عن طبيعة اللون كله الذى تحتوى عليه ، وهذا ينطبق على الموضوع الذى بين أيدينا فعندما تدون رواية أو روايتان مغلوطتان فى عمل تاريخى ، وتـكون هـذه الروايات قد وضعت عن عمد ، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يـكون هناك اتكال أو ثقة بأية تأكيدات عن مثل هذا الـكاتب ، وأقترح على أمل إقناع حتى أبطال « تيمايوس » الغيورين ، شيئاً بخصوص سياسته والتطبيق فيما يتعلق بالأحاديث والمرافعات ، والمذكرات الدبلوماسية الشفاهية ، وباختصار كل أنواع الخطب ، التى يمكن اعتبارها تقريباً مختصرات للخطب وكقاسم مشترك للـكتابة التاريخية . ولا يكاد القراء يخطئون فى أن « تيمايوس » قد زيف ، وزيف عن عمد ، الأحاديث

---

(١) نشوب الحرب الثالثة والأخيرة بين روما وقرطاجنة (١٥٠ / ١٤٩ ق.م) المحقق .

التى تنطوى عليها مؤلفاته ، فبدلاً من أن يستعيد العبارات كما قيلت فعلا ، فإنه يقرر ما ينبغى أن يقال ويأخذ بعدئذ فى تفصيل ما تفيده الأحاديث والنتائج الأخرى لسلسلة الأحداث المعينة ، بدقة كما لو كان طالباً أمام تمرين يحاول أن يجعل منه فرصة لاستعراض قدراته ، وذلك بدلاً من أن يقرر العبارات التى قيلت فعلاً .

إن وظيفة التاريخ فى المحل الأول أن يحقق العبارات الدقيقة التى قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات ، وفى المحل الثانى أن يتحرى السبب الذى توج الحدث الذى تم أو العبارات التى قيلت بنجاح أو فشل . إن صياغة الوقائع عارية هى فى حد ذاتها متعة دون أن تكون فيها قيمة تثقيفية ، بينما يحيل الشرح الإضافى للسبب من دراسة التاريخ عملاً مثمراً . إن التحليلات التى يمكن أن تستخلص من مواقف تماثل مواقفنا تقدم مواد وافتراضات للتنبوء بالمستقبل ، فيما يتعلق بتلك المواقف التى تكون بمثابة النذير ، بينما تشجعنا فى فترات أخرى بأن نبدى جسارة فى الأحداث المقبلة بموجب موازنة تاريخية . وأيا ما كان الأمر ، فإن المؤرخ الذى يلغى كلا من العبارت التى قيلت وسببها ويحل مكانها عروضاً كاذبة وهراء ، فإنه بعمله هذا يدمر الصفة التى يتميز بها التاريخ ، وهذا هو على وجه التحديد الضرر المسئول عنه « تيمايوس » ومن المعروف تماماً أن كل مجلد من أعماله ملىء بهذه المادة الكاذبة .

الحديث والرواية فى التاريخ

(ديودورس : الكتاب ٢٠ : الفصول ١ — ٢)

إن الكتاب الذين يدخلون الخطب المعدة ذات النفس الطويل فى مؤلفاتهم التاريخية ، حق عليهم اللوم والتصنيف وكذلك أولئك الذين يقدمون خطابات مستديمة . فإنهم لا يقطعون تسلسل روايتهم فحسب لعدم ملاءمة هذه الخطب التطفلية ولكنهم يفسدون دور التطلع الذهنى فى عقول أكثر الباحثين الغيورين على المعرفة التاريخية . وبالإضافة إلى هذا كله ، فيجوز لأى شخص يرغب فى

عرض قدراته الأدبية أن يؤلف مجموعة أحاديث ومذكرات دبلوماسية شفاهية ومدائح وهجاء ، إلى آخر هذا من الأعمال المستقلة . ويؤدى فريضة الشكل الأدبى ، وهو بإخراج موضوعاته بشكل مستقل فى فرعى الكتابة ، فإنه قد يأمل بشكل معقول أن يبرز فى كلا المجالين . وأيا ما كان الأمر ، فإن بعض الكتاب ركزوا فعلا على المقاطع الخطابية بمثل هذا الطول مما جعل التاريخ كله مجرد حاشية للأحاديث — غافلين عن أن هذا التذوق لا تضيره الكتابة السيئة فحسب ، وإنما أيضاً الكتابة التى قد تعتبر ملائمة وباعثة على الغبطة فى سياق آخر ، إذا ما خرجت عن مكانها الصحيح. ونتيجة لذلك فإن قراء مثل هذه المؤلفات سواء تخطوا الخطب ، أيا كانت درجة تمرسهم ، أو إذا ما تحطمت روحهم تماماً بسبب إسهاب الكاتب وعدم ملاءمتها ، فإنهم يتخلون عن محاولة قراءتها مرة واحدة . ولا يمكن لومهم على هذا ، مادام التاريخ بوصفه فرعاً من الأدب بسيط ومتجانس ويحمل تماثلا عاماً لأجزائه ، وقد تكون الأجزاء محرومة من نعمة الحيوية ، بينما إذا ما حافظت على تعاونها المستمر ، فإنها تبقى فى أحسن حالاتها ، وتجعل من مهمة القارئ شيئاً مرغوباً فيه وسهلا بسبب تناسق بنائها الكامل .

وفى الوقت نفسه لن أتمادى فأدين المقاطع الخطابية بدون أسانيد وأنبذها تماماً من مؤلفى التاريخى . ملتمساً ، كما يفعل التاريخ ، زينة التنوع ، فإن التاريخ لا يستطيع أن يستغنى عن مثل هذه المقاطع هنا وهناك (وهى لمسة أكون أنا محجماعن المضى بهافى مكانها الصحيح) وطبقا لهذا فعندما يتطلب الموقف مذكرة شفاهية دبلوماسية أو خطبة برلمانية . وما أشبه ذلك، فان المؤرخ الذى ليس لديه الشجاعة لينزل إلى حلبة الخطابة معرض أيضاً للنقد . وفى الحقيقة ، هناك عدد لابأس به من المناسبات التى نجدها تقدم مورداً للخطابة الضرورية . وقد نتقبل الأحاديث الزاخرة والماهرة على أنها واقعة تاريخية ، وفى هذه الحالة يكون من الخطأ أن نغفلها . ونتخطى مقاطع تعبر عن ذكريات قد لاتخلو من معلومات من وجهة النظر التاريخية . وكذلك ، فإن مادة الموضوع قد تكون لها أهمية ومكانة مرموقة . كهذه بحيث قد لا تسمح العبارات التى قيلت بأن تبدو مناسبة للأفعال

التى وقعت . كذلك ، فإن (الختام) قد يكون فى بعض الأحيان باعثاً على الدهشة حتى إننا قد نجـد أنفسنا مضطرين إلى أن نستخدم الأحاديث فى اتساق مع الموضوع حتى تقدم مخرجاً من هذا المأزق .

ما الذى يكون موضوعاً تاريخياً حقاً؟

(ديودورس . الكتاب السادس عشر . الفصل الأول)

ينبغى أن يهدف الكتاب ، فى سائر الأعمال التاريخية ، إلى أن يضمنوا مجلداتهم الخاصة أعمالا ، سواء الخاصة بالدول أو الحكام ، وأن تحتوى عليها من البداية إلى النهاية ، وعندالفحص وجدأن هذا المنهج ، هو الذى يقدم التاريخ إلى القارئ فى أكثر الأشكال صفاء وسهولة على تذكره . فإن الأعمال التى لاتتم دون اتصال بين البداية والنهاية ، تفسد التشوق الذهنى عند القارئ الجاد ، بينما التدابير التى تحتوى على اتصال العمل حتى ختامه فإنها تخلق رواية تشكل كلاً متكاملاً فى ذاتها . وأياما كان الأمر ، فعندما تتعاون طبيعة الأحداث مع جهد القارئ ، ليس ثمة عذر لعدم سعيه لتحقيق مثاله (وطبقا لهذا ، سوف أبذل قصارى جهدى ، من جانبى ، مادمت قدوصلت إلى أعمال «فيليب» بن «أمينتاس» حتى يشتمل على حياة ذلك الحاكم فى المجلد الراهن . فخلال الأربعة والعشرين عاماً من حكمه كملك لمقدونيا ، والتى بدأ فيها بأقل المـوارد ، بنى « فيليب » مملكته فى أعظم دول أوروبا . أما وقد وجد مقدونيا تحت نير « الليبريين » فقد بسط سيادتها على أمم ودول عظيمة كثيرة ، وأقام، بقوة شخصيته ، سطوتها على سائر العالم الهلينى ، حيث خضعت له دول هذا العالم بمحض إرادتها . وأخضع المجرمين الذى نهبوا معبد (دلفى) ، وقد كافأته النبية بطولته بقبوله فى مجلس (٦) Amphictyons حيث تنازل عن أصوات الفوكيين المهزومين كمكافأة على غيرته الدينية . وبعد إخضاع « الليبريين » والبايونيين Paeonians والتراقيين ، والنوماد وسائر الأمم المحيطة ، ووضع خطة للإطاحة بالإمبراطورية الفارسية ، وأرسى القوات فى آسيا وكان يعمل على تحرير السلع الهلينية عندما داهمه القدر —

على الرغم من أنه ترك بناء حربياً بمثل هذا الحجم والكيفية إلى درجة أن ابنه الإسكندر تمكن من أن يطيح بالإمبراطورية الفارسية دون طلب معونة الحلفاء . وهذه الأعمال لم تكن فعل الحظ ولكن بفعل قوة شخصيته ، لأن هذا الملك برز على جميع الآخرين بسبب فطنته ، وشجاعته الشخصية وومضته الذهنية .

القسم الثانى — نعشر

نقد بوليبيوس لزينون لردوسى Zeno of Rhodes

(عرف فى النصف الأول من القرن الثانى ق.م)

(بوليبيوس : الكتاب السادس عشر ، الفصول ١٤ و ١٧ [٨] ـ ١٨ [١] و ٢٠)

إن الفترة التى وقعت فيها هذه الأحداث [٥] فى (مسينيا) ، وكذلك العمليات البحرية السابق ذكرها ، تصادف أن تناولها إخصائيون تاريخيون عديدون ، ومن بينهم من أرى أن أقول كلمة قصيرة عنهم . طالما لا أستطيع أن أتناولهم جميعاً . فإننى سوف أقتصر على أولئك ، فى رأيى سوف يوفون المناقشة والفحص ، وسوف أتناول « زينون » و « انتثنيس » Antisthenes الرودسى . ولدى أسباب عديدة لاختيار هذين الكاتبين . فكلاهما معاصر ، وكلاهما زاول قسطاً من السياسة ، ويمكن القول عموماً إن كليهما قد أخرج أعماله بدافع الطموح واعتبارات أخرى مشرفة للسياسة تماماً ولم يكتبهما بدافع عن مصالح ذاتية . إن تناولهما للأحداث ذاتها كما فعلت يمنعنى من أن أتغافلهما بدافع رؤية دارسين جادين يعتمدون عليهما فى تفضيل عملي الخاص بمسائل موسمية لعدم الاتفاق فيما بيننا ، حسب شهرة بلادهم والافتراض المسبق بأن عمليات الأسطول يجب أن تكون موضع عناية خاصة من كتاب رودس .

إن أول خطأ كان يتعين على أن أكتشفه عند « زينون » و « أنتيثتنيس »

---

(١) تنظيم دولى أدار الأحرام فى دلفى وثرموبولاى ، والذى يمثل حصة ـ أكبر من العالم الهليني أكثرمن أي هيئة منظمة رسمية (المحقق)

(١) ٢٠٢ — ٢٠١ ق . م (المحقق .

هو أن كليهما يعرض معركة (لاد Lade) على أنها أكثر حــدة وليست أقـل عنفاً وأنها كانت أكثر حماسة من معركة (خيــوس) [1] . Chios ،ويقول كلاهما فيما يتعلق بتفاصيل العمل ونتائجه العامة ، فى عبارات عامة إن النصر ظل إلى جانب الرودسيين . وسأذهب إلى أبعد من هذا فأسلم بأن المؤرخين يحق لهم أن يرجحوا الـكفة لصالح بلادهم ، ولـكن لا يحـق لهم أن يجعلوا أنفسهم ، يؤكدون ما يناقض الحقائق من أجل بلادهم . إن خطأ الجهل الذى يتعرض له الـكتاب بحكم عدم العصمة الإنسانية هو أمر خطير للغاية ، ولـكن إذا ما كنا — نحن المؤرخين — نزيف الوقائع عن عمد لصالح أصدقاء البلاد ، فسوف يـكون هؤلاء بالتأكيد،فى مستوى أقل من أولئك الذين ينذرون أنفسهم لسوء التصرف باعتباره مهنة مربحة . وشخصيات كهذه تقدم أعمالها عن طريق انحيازها عن مصالحها المادية باتخاذها مستوى لمؤلفاتهم ، وكذا فإن الساسة ، بالمثل ، غالباً ما ينصرفون إلى النتائج نفسها بالوقوع تحت تـأثير تعاطفهم أو نفورهم . وهذا عامل يجب على القارئ أن يثابر على مراقبته ، وعلى الـكاتب أيضا أن يثابر على إرشاده . إن مسألتى قد أوجدتها الوقائع ذاتها .

(تأتى بعد ذلك سلسلة من الإيضاحات)

وتبدو كافة الإيضاحات التى قدمتها آنفاً ، فى ضوء السهو الذى يقبل بالإيضاح والاعتذار — أن معظمها أخطاء عن جهل ، بيـنما الرواية المقدمة عن الاشتباك البحرى خطأ ناجم عن التحيز الوطنى . فما هى المسائل إذن ، التى يتعرض فيها زينون للنقد الجاد بشكل عادل ؟ هى على وجه اليقين ، أنه لم يكرس جل عنايته للبحث أو التأليف وإنما كرسه للأسلوب ، ولا يفصح زينون فى هـذا الصدد ؛ كعدد غيره من المؤرخـين المشهورين ، كـثيراً عن غروره الذاتى . وأنا أرى أنه

(١) وقع كل من الاشتباكين فى ٢٠٢ — ٢٠١ ق . م بعيداً عن خيوس بين فيليب الخامس ملك مقدونيا وقوات الأسطوال المتحدة من رودس وبرجاموم وذلك فى (لاد) بين أساطيل مقدونيا ورودس منفردة (المحقق)

ينبغى أن نفكر ونولى مادة (١) الموضوع انتباهاً لا بأس به ، إلا أن هؤلاء القضاة اليقظين ليس لهم أن يعطوا أولوية للأسلوب . وسوف نجد هناك ، بعيداً عن جادة الصواب ، ما يمكن أن يكون عوامل أخرى فى الكتابات التاريخية ذات النظام الأعلى ، نجد نجاحاً قد يبرر فيه الغرور الذاتى فى ذهن السياسى . ويمكننى أن أشرح المعنى الذى أقصد إليه بشكل أكثر إيضاحاً بالمثال التالى

(يأتى بعد ذلك الإيضاح)

وفى رأيى أن هذه الفترات وغيرها من الفترات المماثلة تلقى بالمؤرخ فى خزى شائن ، بينما مثالنا (وكان مثالا نبيلا) ينبغى أن يسود كافة العوامل فى الكتابة التاريخية ، والبديل الثانى الأفضل من هذا هو تركيز الانتباه على تلك التى هى أكثر أهمية وأكثر لزوماً حقيقة . لقد رغبت فى أن أقدم الملاحظات بتماثل المناظر التى يقدمها (التاريخ) هذه الأيام والفنون والمهن الأخرى . وفى كل حالة ، فقد حط من شأن الحق والمنفعة ، بينما أطرى على الدجل والادعاء ونظر إليها بإعجاب على اعتبار أنها شيء مهيب ومدهش ، رغم أنها فى الحقيقة أيسر من أن تنجز وأقل دقة فى مستواها ليس فى التاريخ فحسب ولكن فى فروع الأدب الأخرى أيضاً .

أما فيما يتعلق بجهل زينون بطبوغرافيا (لاكونيا) Laconia ، فإن خطأه كان عظيماً لدرجة أننى لا أتردد فى أن أكتب إلى المؤلف نفسه . ولم يكن المبدأ الذى أعمل على أساسه ، فى اتخاذ هذه الخطوة ، أن أعتبر أخطاء زميلى كتحقيق عرض لى ، وهى عادة شريرة لدى بعض الكتاب ، إلا أننى سأبذل قصارى جهدى فى أن أحسن وأصحح أعمال المعاصرين لى كما لو كانت أعمالى أنا ، وذلك فى سبيل التقدم العام للمعرفة . وعندما تلقى « زينون » رسالتى ، اغتم جداً عندما تأكد أنه من المستحيل أن يجرى تغييرات فى عمله وذلك لأن العمل كان قد نشر فعلا ، غير أنه على الرغم من أنه وجد نفسه عاجزاً من الناحية المادية ،

---

(١) من الواضح أن هذا ليس مجرد عنصر بل إنه عنصر بالغ الأهمية ، فى كافة الكتابات التاريخية الناجحة (المؤلف) .

فكان رقيقاً حتى إنه تقبل عملى بروح ودية للغاية . وسوف أنتهز هذه الفرصة فأقدم التماساً شخصياً إلى قرائى من أجيالى والأجيال المقبلة ، فإذا ما أظهرت عامداً مُقدمات زائفة أو تجاهلا متعمداً للحق فى أى مسألة من عملى ، فيتعين عليهم أن ينتقدونى دون رحمة ، ولكن عندما أكون مذنباً عن جهل (دون سوء نية) ، فإننى ألتمس المعذرة ولاسيما فى حالتى الخاصة ، مع وضع مدى تأليفى والنطاق الشامل لمادة موضوعى فى الاعتبار .

نقد ديونيسوس الهاليكارناسى لهيرودوت وثوكوديدس وثيوبومبس

(ديونيسوس الهاليكارناسى) : الرسائل الأدبية الثلاث تحقيق ريس روبرتس W. Rhys Roberts كمبردج ١٩٠١ ، مطبوعات الجامعة: رسائل إلى بومبيوس الفصل ٢و٦ .)

ولعلك تسأل أيضاً عن رأيى إزاء هيرودوت وكسينوفون وتفترض مقدماً ماأنا كاتب عن الموضوع . وهاك ما قد فعلته فى مذكرات إلى ديمتريوس بخصوص المحاكاة) . وتتناول أولى هذه المقالات مشكلة المحاكاة ، وتتناول الثانية أحسن نماذج التقليد فى الفروع الأربعة .. الشعر .. الفلسفة والتراجم . الأحاديث العامة؛ فى حين تتناول الثالثة المنهج وهى لما تتم بعد . وسوف أسرد لك ماقلته فى الرسالة الثانية التى تتعلق بهيرودوت وثوكوديدس وكسينوفون وفيليستوس Philistus وثيوبومبوس، وهؤلاء اخترتهم على اعتبار أنهم خير النماذج :

« وهاك أفكارى فيما يتعلق بهيرودوت وثوكوديدس، إذا ما كان يتعين على أن أضمهم فى عرضى للموضوع . إن الواجب الأول والضرورى للمؤرخ حقيقة، بغض النظر عما يكون عليه أصله ، هو أن يختار موضوعاً جيداً يجلب المتعة لقرائه . وعندى أن هيرودوت كان أكثر توفيقاً فى هذا المجال من توكوديدس . فإن هيرودوت قد أوجد تاريخاً عاماً للعالم الهلينى والشرقى ، (بهدف إنقاذ ماضى الجنس البشرى

من النسيان وضمان أن هذه الأعمال الرائعة وغيرها) — تقتبس مقدمته من الكتاب، وهو من الغلاف للغلاف توسيع لهذه المقدمة . أما ثوكوديدس فقد كتب تاريخ حرب واحدة ، لم تكن مجيدة أو نافعة وكان من الخير لو أنها لم تقم (أو على الأقل) يطويها النسيان وأخفيت عن الخلق . وقد كشفت مقدمته عن رداءة موضوعه ، ويلاحظ فيها أنه دمر فى هذه الحرب عدد من البلدان الهلينية ، بعضها على أيدى غير الهلينيين والبعض الآخر على أيدى حلفاء الهلينيين، وكان تشتت السكان ودمار الحياة بدرجة لم يكن لها مثيل ، مثل الهزات الأرضية ، والمحاصيل الهزيلة ، والأوبئة وكوارث أخرى . وبهذا فإن القارئ الذى لا رغبة له فى سماع كل هذه المصائب التى حلت بهيلاس ، يصده موضوع المؤلف بمجرد الانتهاء من مقدمته . إن قصة الأعمال الرائعة للعالمين الهلينى والشرقى تسمو على هذه الكوارث القاسية التى جرت على الهلينيين وحدهم ، وهذا يعنى أن هيرودوت قد أبدى تروياً فى اختياره للموضوع أكثر مما فعل ثوكوديدس . وليس من العدل أيضاً أن يقال إن ثوكوديدس لم يكن لديه موضوع آخر إلا أن يكتب ما كتب إذا ما كان عليه أن يتجنب سلوك الطريق نفسه الذى سلكه سالفوه ، على الرغم من أنه يكون قد عرف دونية موضوعه : وعلى العكس ، لقد حط من شأن الماضى فى مقدمته وزعم أن جيله قد عاش خلال أعظم تجربة فى التاريخ ، مما يبين أن اختياره للموضوع كان مقصوداً . وهذا يخالف هيرودوت تماماً ، الذى لم تعترضه حقيقة أن الكتاب الأول أمثال « هيلانا كوس Hellanicus وخارون Charon قد نشروا أعمالا حول هذا الموضوع ذاته ، إلا أنه وثق ، وهذا جائز ، بقدرته الخاصة لإيجاد شيء أفضل(١) .

« والواجب الثانى للمؤرخ هو أن يرسى البداية والنهاية . ومن الواضح أيضاً، أن تقدير هيرودوت أفضل من ثوكوديدس ، إذ إن هيرودوت قد بدأ بسبب أول اعتداء من جانب الشرقيين على الهلينيين ، وتوقف عندما وصل بروايته عند العقاب الذى وقع على الشرقيين جزاء لهم . أما ثوكوديدس فقد بدأ بالنقطة

---

(١) يرى كثير من الدارسين غير هذا الرأى. ويقولون إن ثوكوديدس هو أول مؤرخ علمى . بمعنى أنه يضع نفسه خارج الأحداث ويتخذ موقفا محايداً ويكتب التاريخ غير متأثر باعتبارات ضيقة (المترجم).

التى أخذ عندها العالم الهليني ينهار ، وكانت بداية خاطئة من جانب مؤرخ هليني وأثيني (ولا سيما إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لم يكن أحد الذين لحقهم تحقير أو نبذ ، وإنما كان رجلا جماهيرياً شهيراً ارتفع بفضل آلام بنى وطنه إلى مركز وقيادة أعلى) . وهو حقود أيضا لدرجة أنه يحمل بلده مسئولية وهمية عن الحرب ، فى حين كان ينبغى عليه أن يتعقبها إلى أصولها الأخرى ، وكان ينبغى عليه أن يبدأ بأعمال بلده الرائعة مباشرة بعد الحرب الفارسية والتى ذكرها بعد ذلك فى مكان خاطىء وبطريقة لا اكتراث فيها ولا إمعان . وبعد أن أبدى عدالة وطنية كان ينبغى أن يعرض الإسبرطيين على المسرح . ويشرح خوفهم المتزايد ونقمتهم على أثينا ، ويبين كيف أنهم أوجدوا أعذاراً من نوع آخر للتورط فى الحرب . ولم يكن فى حاجة إلى أن يذكر (كوركيرا) وتصرف أهل ميجارا بعيداً عن هذه المقدمات . وما زالت خاتمة عمله متكاثرة الخطأ . وبعد أن يبين أنه شهد الحرب كلها ووعد بعرض كامل لها ، توقف عند المعركة البحرية بين الأثينيين والبليبونيزيين فى (كونوسيما) [1] Cynossema التى حدثت فى العام الثانى والعشرين من العدوان . وكان فى وسعه أن يفعل أفضل من هذا إذا ما عرض القصة كاملة وأن يختم عمله بالعودة العظيمة للمنفيين إلى (فيلى) Phyle ، التى كانت بمثابة بداية لعودة حرية أثينا ، وبهذا ينتهى عند إشارة من شأنها أن تسر قراءه تماماً .

أما واجب المؤرخ الثالث فهو أن يضع فى اعتباره ما ينبغى أن يشتمل عليه بحثه وما ينبغى أن يتغاضى عنه ، وفى هذا الصدد ، فإننى أشعر ، مرة أخرى بأن ثوكوديدس أقل شأناً من هيرودوت . إذ إن هيرودوت أدرك أن الرواية ذات طول لا بأس به ويجب أن تتنوع بالوقفات إذا كان له أن يحرز تأثيراً مقبولا على عقل القارىء ، وأدرك أنه يجب ألا يظل على وتيرة واحدة (مهما كانت مهارة الكاتب فى الصنعة) دون أن يوجد إحساساً مؤلماً بالرتابة . وقد استهدف التنوع فى كتابته

---

(١) يحتمل أن يكون الموت قد اختطفه ويحمل عمله علامات واضحة على عدم إتمامه (المحقق)

كبطله ومثله « هومر » والقارىء الذى يلم بأعماله يجد نفسه مسحورا حتى آخر مقطع ومتعطشاً دائماً إلى المزيد . أما ثوكوديدس فقد تناول حرباً واحدة بذاتها ، وجمع شتات نفسه ، ومضى معها فى نفس واحد . المعركة تلو المعركة ، والسلاح يقرع السلاح ، وصفحة أثر صفحة ، حتى يضعف انتباه القارئ البائس ويذبل نتيجة للتفرع . وفى وسع « بندار » Pindar أن يخبره بأن (العسل يمكن أن يتخم الزهور الحبيبة الحلوة) ، وعليه فى فترات أن يحقق الفضيلة المنفذة للتغيير والتنوع بالنسبة المؤرخ . وهناك مكان أو مكانان تلطف فيهما عليهم ، مثل انحرافه حول نشوء الإمبراطورية الأودريسية Odryaian والدول فى صقلية .

« وثمة واجب آخر على المؤرخ وهو أن يجمع ويرتب مادته . ودعنا نرى كيف أن مؤرخينا يقومان بهذه العملية كلا على حدة . فثوكوديدس يلتزم بالترتيب الزمنى ، بينما يتبع هيرودوت التقسيمات الكبيرة لموضوعه . وهذا يجعل ثوكوديدس غامضاً ومن الصعب متابعته ، لأن هناك بالطبع فى أى صيف وأى شتاء أحداث كثيرة فى أماكن متفرقة ، وعليه أن يتوقف فجأة فى سلسلة أحداث كى يتناول سلسلة أخرى . وكذلك فمن الطبيعى أن ينقطع الخيط ونبذل مجهوداً كبيراً حتى نجد إجابة صحيحة لما يعرضه . ويبدأ هيرودوت بمملكة ليديا ، ويصل بالرواية حتى حكم « كرويسوس » ويمضى قدما حتى « كيروس » قاهر « كرويسوس » ، وبعدئذ يتناول حكاية مصر ، وأراضى الاستبس وشمال غرب أفريقيا . وهناك فى بعض الأحيان عرض لنتائج منطقية ، ويؤلف بين المادة ليصنع منها أشياء ، ويأتى الاستطراد فيجعل القصة أكثر متعة . ويروى بعد ذلك تاريخ الهلينيين والشرقيين فى فترة تزيد على مائتى وعشرين عاماً ، وفى ميدان يشتمل على سائر القارات الثلاث ، وينتهى بهرب « كسركسيس » ، دون أن يقطع التسلسل . والذى يحضرنا هنا هو أن الكاتب الذى تناول موضوعاً واحداً نجح فى تحطيم الوحدة إلى أجزاء كثيرة بينما الكاتب الذى آثر مجموعة متنوعة من الموضوعات قد خلق وحدة متجانسة من كتلة أمور صغيرة .

« وسوف ألمس سمة واحدة فى تناول مادة الموضوع ، التى تجذب ، فى أى عمل تاريخى اهتمامنا على الأقل بمقدار المسائل موضع الاعتبار فعلا . فما هو موقف الكاتب إزاء الموضوع ؟ إن موقف هيرودوت صائب دائماً . إذ إنه يبتهج للخير ويمقت الشر . أما موقف « ثوكوديدس » فرر لايلين ، ولا يغفر لبلاده أنها ألقت به فى المنفى . ولا رحمة عنده فى تناول أى شىء على خطأ بالتفصيل ، ولكن عندما يكون الأمر على صواب ، فإنه إما أن يتجاهله تماماً وإما أن يمسه مساً خفيفاً أو يذكره بضغينة .

« أما ثيوبومبس الخيوسى [1] التلميذ الأشهر لايسوقراط Isocrates فهو مؤلف عدد من الخطب (مدائح سياسية) من(رسائل خيوس) وبعض المعاهدات الهامة وهو كمؤرخ محترف له بعض الفضائل . فإن موضوعاته — نهاية الحرب البليبونيزيه وحياة فيليب — عمل جيد ؛ فالترتيب فى كلا الحالتين واضح ومن السهل متابعته ؛ إلا أن أقوى فضائله هى وعيه الأدبى والصناعة . ويكشف الدليل الداخلى ، بغض النظر عن عباراته الواضحة ، عن الجهد فى عمله التحضيرى ، والقيمة الموجودة فى مجموعة مادته ، وعدد الأحداث التى كان شاهد عيان لها ، وعدد الجنود المشهورين المعاصرين ، والساسة والمفكرين الذين احتك بهم . ومن الجلى أنه كان دائم التفكير فى عمله . وبعض الناس يجعل من التاريخ هواية ؛ وقد وهب ثيوبومبس حياته للتاريخ . وإن النطاق الواسع لاهتمامه سوف يقدم فكرة ما عن عنائه المضنى . فإنه يسجل أصول الأجناس وتأسيس الدول ، ويرسم الحياة الخاصة وشخصيات الملوك ، ويضم إلى عمله كل ظاهرة بارزة ومفصلة على البر أو البحر . ويكون من الخطأ أن نفترض أن هذا لمجرد الجاذبية . بل على العكس إنها مفيدة لدرجة ما . وسوف أقنع نفسى بالحقيقة المقبولة على نطاق شامل وهى أن التربية الأدبية الأكثر سمواً تتطلب معرفة بعلم الاجتماع [2] ، والقانون ،

---

(١) ٣٨٠ — ٣١٠ ق.م (المحقق)

(٢) غير هلينى مثل الهلينى (المؤلف)

والعلوم السياسية والتراجم . وفى سائر هذه الموضوعات يعتبر « ثيوبومبس» حجة ولا تنفصل هذه المعلومات بشكل منفعل عن سياقها التاريخى . وهذه هى بعض الصفات التى تدعو للإعجاب عند مؤلفنا . وبالإضافة إلى ذلك فإن عمله يوجد برمته فى التعاليم الدينية الطريفة والفلسفة الأخلاقية ، ولم يتناول عمله المتميز والذى يعد فى القمة بدقة أو مهارة أى كاتب من قبله أو بعده . إننى أشير إلى كفايته لا لمجرد رؤية المظاهر الواضحة لأية حادثة وتقريرها ، وإنما لـكشف الأسباب الخفية والدوافع والملابسات السيكلوجية ، التى يجـد الناس العاديون من الصعب تفسيرها ، ولأجل الـكشف عن كافة أسرار الفضيلة المزعومة والرذيلة الخفية.ومن المحتمل أن يكون الفحص الأسطورى للأنفس التى تحررت من الجسد وعلى كرسى الاعتراف فى العالم الآخر يصلح كموضوع لبحث كالذى استخدمه المؤرخ ثيوبومبس وهذا ما أعطاه شهرة الحقد فى وزن الشخصيات البارزة بالدقة وبتفاصيل غير ملائمة . والحق ، أنه بمثابة الجراح الذى يضع الـكى والتشريط بأعمق ما تـكون عليه الأنسجة المعتلة فيزيل الزوائد ،دون أن يمس الأعضاء السليمة الطبيعية.

وهذه تشـكل أساس شخصية ثيوبومبس كما تبينه من تناوله لمادة موضوعه وكما تتميز من أسلوبه .. إذ إنه ليس طاهراً ، وعلى الأخص فى مسألة الانحرافات؛ فهى فى بعض الأحيان لا لزوم لها ، وغير مناسبة وطفولية للغاية . وفـكر فى شبح سيلينوس Silenus فى مقدونيا أو القتال بين ثعبان البحر والسفينة البحرية وهى ليست أمثلة غير عادلة لرواياته . . »

هل هيرودوت مغرض ؟

(الأخلاق عند بلوتارخ : نص تويبنر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخاص تحقيق ج . ن برنادا كس Bernadakis: الفصول ١ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٨ ، ٢٩)[١].

كثير من قراء هيرودوت تأخذهم بساطة أسلوبه ، وسهولته وسلاسته ، ويؤخذون أكثر بشخصيته . وإذا ما كان أفلاطون على صواب فى قوله إن آخر صورة نقية من الخلود هى المظهر الزائف للنزاهة ، فإنه من الصحيح أيضاً أن العمل بالغ المكر افتراض لطبيعة جيدة كهذه وبساطة حتى يسخر بالملاحظة . إن حقد هيرودوت موجه غالباً (رغم أنه لا يفلت منه أحد) ضد البيوتيين والكورينثيين ، وعلى هذا فإننى أشعر أننى مطالب بأن أدافع عن الحق وعن أسلافى فى وقت واحد مع عرض هذا الجزء فى عمله على الخصوص . فإذا ما كان على الناقد أن يتناول كافة مزيفاته وخيالاته ، ملأ بذلك عدة مجلدات . وأياً ما كان الأمر ، فإننا ننقل عن « سوفوكليس » Sophocles » (الاقتناع له ملامح خادعة) ولا سيما عندما يستقر فى كتابات مليئة هكذا بالسحر ومتمرس لا فى إخفاء ذلك الشذوذ فحسب ، وإنما شخصية المؤلف كلها . وعندما ثار الهلينيون على فيليب الخامس وانضموا إلى « تيتس فلامينينسوس» Titus Flamininsus ، لاحظ الملك أن الطوق الذى وضعوا فيه أعناقهم لين إلا أنه سميك . والآن فإن خبث هيرودوت ناعم الملمس أكثر من خبث ثيوبومبس ، إلا أنه أيضاً أكثر نفاذاً وأكثر التواءاً ، تماماً كتيارات الرياح تهب بطريقة خبيثة خلال شرخ فهى أكثر إيذاءاً من رياح السماء .

خذ مثلا تناوله لمسألة « أيو »« أبنة » إيناخوس » فى البداية الأولى لقصته والرأى الشائع فى هيلاس أن هذه البطلة الشهيره قد لقيت شرفاً قدسياً من الشرقيين وخلفت اسمها على كثير من البحار والمضايق الرئيسية فى العالم ، وأنها السلف

---

(١) هذا المقال وعنوانه « الخبث عند هيرودوت » جاء مع أعمال بلوتارخ إلا أن بعض النقاد يعتقدون أنه مشكوك فى صحته (المحقق) .

لأكثر البيوتات المالكة تميزاً .ولكن ماذا قال عنها مؤرخنا المغوار؟ لقدقال إنها ألقت بنفسها من على رءوس بعض التجار البحارة من الفينيقيين، لأنها كانت قد أغريت على الزنى من القبطان (رغم أن الأمر ليس ضد إرادتها) وخشيت أن يفتضح حملها . هذه الرواية الطريفة تنسب تعسفاً إلى الفينيقيين ، ويسرد أقوال المؤرخين الفرس كدليل على أن الفينيقيين قد احتفظوا بـ «أيو» ونساء أخريات ، وشرع فى تنفيذ الرأى القائل بأن الحرب الطروادية — وهى أعظم عمل وأكثر أعمال هيلاس فخامة — قد نشبت نتيجة الغباء من أجل امرأة لا تساوى شيئاً، يقول «من الواضح أن النساء ما كن ليختطفن إذا لم تكن راغبات فى ذلك وفى هذه الحالة ، علينا أن نتهم الآلهة بالغباء لإلقائهم انتهاك بنات «ليوكتروس» Leuctrus على الإسبرطيين أو على معاقبة «أجاكس» Ajax لانتهالا حرمة «كاساندرا» Cassandra . وحسب أقوال هيرودوت ، على أية حال ، فمن الواضح أن النساء ما كانت تنتهك حرماتهن إذا لم تكن راغبات فى ذلك . إلا أن هيرودوت نفسه يقرر أن «كليومينيس» Cleomenes قد أخذها الإسبرطيون حية وقد حدث المصير نفسه للقائد الآخى فيلوبويمن Philopoemen ، بينما ريجيلوس الرومانى» Regulus القنصل قد أخذه القرطاجينيون أسيراً. إننا نود أن نسمع عن مقاتلين أكثر شجاعة أو جنود أفضل من هؤلاء . إلا أنه ليس هناك شىء غير عادى فى تجاربهم ، واضعين فى اعتبارنا أن الفهود والنمور قد أخذت حية من جانب الكائنات البشرية . ونفس الشىء ، فإن هيرودوت يفضح النساء اللاتى انتهكت حرماتهن ويبيض أوجه الرجال الذين اغتصبوهن .

وعندما يصل إلى (الحكماء السبعة) وهو يسميهم «الموقظين» فإنه يتبع عائلة طاليس حتى يصل بها إلى الفينيقيين أو بعبارة أخرى إلى أصل غير هلينى، وانتحل شخصية «سولون» حتى يتسنى له أن يسب الالهة كما فعل فيما يلى «مولاى ، إننى أعلم حقيقة أن الحقد والتخريب من طبيعة الآلهة بشكل ثابت ، وبعدئذ تسألنى عما يتعلق بالحياة الإنسانية ! » هذا هو رأيه الخاص عن الأرباب ، وعندما يتناول سولون يمزج الخبث بالكفر ...

والآن دعنا نفحص روايته الخاصة بنتيجة المعركة (معركة ماراثون) فيكتب « إن الشرقيين دفعوا إلى سفنهم الباقية ، والتقطوا العبيد من (إرتريا) Eretria فى الجزيرة التى تركوهم فيها ، وبدأوا يبحرون حول (سونيم) Sunium ، بهدف أن يصلوا المدينة (أثينا) قبل الأثينيين أنفسهم . ويدعى أنه فى أثينا دبر (بنو الكمايون) هذه المكيدة التى يقال إنهم عرضوا ترساً [1] كإشارة لهم بعد أن كانوا قد ركبوا سفنهم. وعلى هذا فقد شرع الفرس فى الإبحار حول «سونيم» وقد يتغاضى القارئ عن إشارة إلى (الارتريين) على أنهم عبيد ، رغم أنهم قد أبدوا روحاً سامية من أى هلينيين آخرين وعانوا مصيراً لا يتفق وطبعهم . ناهيك عن وشايته ببيت (الكمايون) مع سائر العائلات الكبيرة والأفراد المرموقين المنتمين إليهم . ولكن مما لا يغتفر له أنه خرب عظمة الانتصار وجعل العمل العالمى الشهير لماراثون ينتهى بلا شيء. وما دام الأمر هكذا ، فمن الجلى ألا يكون هناك معركة أو عمل له أية نتيجة ، وليس هناك سوى (قرصنة) صغيرة فى الجزء الذى رشى من العدو (كما يبقى قليلو الشأن) ، وإذا ما كان قد حدث بعد المعركة ، بدلاً من قطع دابرهم ، ما يجعلهم يهربون ويتركون أنفسهم كيفما يحملهم النسيم بعيداً عن أتيكا ، أن يتلقوا إشارة خيانة نتيجة عرض الترس ، فقد طووا أشرعتهم نحو أثينا على الأمل أن يستولوا على المدينة ، وحاصروا سونيم ، بسهولة ، ثم عرجوا على (فالريم) ، بينما كان أكثر الأثينيين شهرة وتميزاً يخونون أثينا خوفاً من وقوعهم فى العبودية . وبعد ذلك ، عمل على تبرئة « بنى الكمايون » وذلك فقط كى ينسب الخيانة إلى آخرين فيكتب شاهد عياننا [2] وما من ريب فى أن ترساً قد عرض، لست أعترض على الواقعة. وأية غرابة ، فى أن الأثينيين قد أحرزوا نصراً ساحقاً ! ولكن حتى إذا حدث هذا ، فلم يلحظه العدو ، الذى كان يطرد فى سفنهم بتأثير القتلى العديدين ، فكانوا يهربون بأسرع ما يمكن فى طاقة كل جندى .

---

(١) يستخدم بمثابة التلغراف الشمسى (المحقق) .

(٢) من المحتمل ألا يكون هيرودوت قد ولد بعد عندما وقعت معركة ماراثون . إن المؤلف يكتب بأسلوب تهكمى بالطبع (المحقق) .

وكذلك عند محاولة الدفاع « عن بنى الـكمايون » ضد الاتهامات التى وجهها ضدهم فى بداية الأمر ، يكتب « وعندى ، أن الافتراض بأن بنى الـكمايون قـد عرضوا ترساً إشارة للفرس كى يخضعوا أثينا لغير « هيبياس » فهـــو افتراض لا يمكن قبوله . » إلا أن هذا يذكرنا فقط بالأبيات التالية :

قف حيث أنت ياسيد (أبو جامبو)

وعندما أقبض عليك ، فسوف أخلِى سبيلك على الفور

فلماذا تتطلع للقبض عليه إذن،ما دمت ستطلق سراحة مرة أخرى ؟وأنت أيضاً ياسيدى ، تبدأ بالاتهام ، وبعدئذ تترافع . إنك تلصق الوشايات ضد رجال شهيرين وبعد ذلك تمسح هذه الوشايات . ينبغى علينا أن نستدل بأنك لا تثق بدليلك ، لأنك لم تسمع من أحد ولـكنك أنت بنفسك الذى قلت بأن « بنى الـكمايون » هم الذين عرضوا ترساً للعدو بعدما فر هارباً ....

وبعد ذلك هناك الأرجيفيون ، ويعرف كل إنسان أنهم لم يرفضوا مساعدة الهلينيين الآخرين ، إلا أنهم فقط أصروا على أن يـكونوا تحت القيادة الدائمة للإسبرطيين أعدائهم اللدودين . هذه هى الوقائع ، فهو يوعز بأخبث اتهام . ويكتب ، أنه عندما طلب الهلينيون من الأرجيفيين أن ينضموا إليهم ، عرف الأخيرون أن الإسبرطيين لن يقبلوا اشتراكهم معهم فى القيادة ، وعلى هذا وضعوا هذا الشرط ، على أمل أن يجدوا مبرراً لبقائهم على الحياد . ويضيف أن أرتاكسركسيس عندما علم بعد ذلك بهذه الواقعة من جانب رسول الأرجيفيين ، الذى قام برحلة إلى (صوصة) Susa ، أعلن أنه ليست هناك دولة ينظر إليها بصداقة أكثر من أرجوس ، وبعد ذلك ، وبشكل متميز ، يلجأ مؤلفنا إلى التعليمات، معلنا أنه ليس لديه معلومات دقيقة حول هذه المسألة ولـكنه يعرف جيداً أنه لا يوجد أحد بلا أنيس وأن الأرجيفيين ليسوا أسوأ حظا فى التاريخ . ويعلق قائلا : « إن واجبى الشخصى هذا أن أعرض ما قيل ، ولست ملزماً على أية حال بتصديقه — وهـــذا مبدأ أستخدمه ، دون ما قصد ، فى كافة أجزاء عملى فيما يتعلق بهذا ، وهناك رواية أخرى

فيما يتعلق بما قيل عن دعوة الأرجيفيين للفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا فى الحرب ضد الإسبرطيين وشعروا بأن أى شىء أفضل من وضعهم السىء الراهن . » ونذكر القارئ برواية هيرودوت التى يسجل فيها قرار « اثيوبيان » فيم يتعلق بروائح وأصباغ التحنيط : « إن مراهم الفرس وملابسهم هى خادعة أيضاً — إنهم يكرون ويفرون حول الشىء ولا يخضعون قدماً » ويلقى الرسامون أضواءهم على بروز ظلالهم . ويركز هيرودوت تشويهاته بإنكارها ، ويرفع من تأثير إيمازاته عن طريق الألغاز . ولا يمكن بالطبع إنكار أن الأرجيفيين لم يشتركوا مع الهلينيين وأنهم تركوا مجال الشجاعة إلى الإسبرطيين حسب اعتراضهم على ترك القيادة لهم وإلى هذا الحد ، حطوا من شأن الذرية النبيلة لهرقل ، لأنه كان من الأفضل أن يحاربوا فى سبيل حرية هيلاس تحت قيادة « السفينين Siphnians أو « الـكثنيين » Cythnians خيراً من أن يخسروا نصيبهم فى النضال العظيم المجيد بسبب النزاع على القيادة مع الإسبرطيين ، فلماذا لم يقفوا إلى جانبه صراحة عندما وصل ؟ وربما بقوا فى الخطوط الخلفية ، بسبب عدم الانضمام إلى قوات الملك ، ودمروا (لاكونيا) وقاموا بمحاولة جديدة على (تيريا) Tyrea ، أو حاصروا الإسبرطيين بشكل أو بآخر من أشكال التسلل . وعن طريق منعهم من إرسال قوات كبيرة للحماة كهذه التى أرسلت إلى (بلاتايا) Plataea كانوا قد وجهوا ضربة كبرى إلى القضية الهلينية .

إلا أنه ، على أقل تقدير ، قد أعلى من شأن الأثينيين فى هذا الجزء من عمله وأطلق عليهم منقذى هيلاس ، وهذا صحيح وسليم إذا لم تكن إطراءاته مشتتة بين القدح والذم وها هى ذى كلماته : « لم يكن من الممكن أن يهجر الهلينيون الآخرون الإسبرطيين ما لم يكونوا قد اكتشفوا أن الآخرين ذهبوا ينضمون إلى الجانب الفارسى فى فترة يصلون فيها بأنفسهم إلى شروط مع كسركيس ». وفى هذه المقطوعة ليس الهدف الحقيقى مدح الأثينيين . بل على العكس ، فهو يثنى عليهم فقط حتى يسىء إلى الآخرين . والقارئ يستطيع بصعوبة أن يصبر على

سيل الإهانات المرة التى يلقى بها على الطيبيين والفوكيين ، عندما يذنب فى حق أولئك الذين غامروا بحياتهم من أجل هيلاس ، فيتهمهم بخيانة لم تحدث فى الواقع رغم أنها ربما حدثت فى الذهن فى ظل ظروف افتراضية وهو حتى يلقى وشاية عارضة على الإسبرطيين يجعلها مسألة عامة سواء كانوا قد ماتوا فى ميدان الشرف أو وقعوا شروط التسليم ، فإن قصتهم التى يقدمونها هم فى (ترمويو لاى) كانت بلا شك تافهة .

وعندما كان عليه أن يصف أربعة معارك ضد الشرقيين ، ماذا فعل ؟ لقد جعل الهلينيين يهربون من (أرتيميز يوم) Artemiseum ، ، فى ثرموبولاى ، عندما كان ملكهم وقائدهم يضحى بحياته من أجلهم ، جعلهم يقبعون فى بيوتهم لا يفكرون فى شىء سوى الاحتفال الأوليمبى والمهرجانات الكارنيية ، وعندما جاء إلى (سالاميس) أفرد مساحة أكبر للملكة « أرتيميزيا » أكثر مما أفرد للمعركة بأسرها؛ وأخيراً ، فى (بلاتيا) أعلن أن الهلينيين بقوا فى المعركة غير عابئين بها حتى انتهت . وتخميناً ، فإن أولئك الذين ذهبوا إلى العمل وافقوا على القتال فى صمت كى لا يجذبوا انتباه الآخرين ، كالمشهد الذى ورد فى الملحمة الهزلية (معركة الضفادع والفيران) التى كتبها « بيجرز » Pigres أرتميزيا كفكاهة. وكذلك أظهر أن الإسبرطيين لم يكونوا أكثر شجاعة من الشرقيين وأنهم هزموهم فقط بسبب تشتت العتاد . ويذكر أن « كركسيس » نفسه عندما كان موجوداً فى (ثرموبولاى) ، كان من المفروض عليهم أن يدفعون بالكرابيج إلى الأمام قبل أن يتقدموا ضد الهلينين ؛ والآن ، من الواضح ، فى بلاتيا ، أنهم أصبحوا شخصيات مهذبة ؛ ولم يكونوا أقل فى الأخلاق أو القوة البدنية . أما نقطة ضعفهم فكانت عتادهم ، التى لم يكن فيها ما يقى البدن ، وكان عليهم أن يقاتلوا معرضين ضد قوات مغطاة». وإذا تصرفوا بشكل فعال فى أى مجد يتصل بالهلينيين على أساس من هذه المعارك، فإذا ما كان الإسبرطيون يقاتلون رجالا غير مسلحين ، وإذا ما كان الباقون غير عابئين بأن المعركة كانت تحتل مكانها فى الجوار ، أما إذا كانت مقابر الميت المجيد لا تحوى

أسفلها جثماناً ، وإذا ما كانت النقوش التى غطت شواهد الحرب كاذبة وإذا لم يعرف أحد الحقيقة سوى هيرودوت ، بينما اهتم كل كائن بشرى آخر بهيلاس واعتقد أن منجزاتها فى الحرب الفارسية كانت فوق طاقة البشر ، وقد سجلت فى أسطورة . من المحتمل أن مؤلفنا ، بأسلوبه البهيج الخلاب ، وسحره ورشاقته وطرافته ، كان يروى لنا حكايات «عواجيز الفرح» بكل مهارة الشاعر ، وليس فقط بعذوبة الشاعر وتهذيبه ؟ ولاشك أن كل إنسان يجده جذاباً وخلاباً ، ولكنه يتكلم بالشر وتتوارى الوشاية بين نعومة عباراته الرشيقة كالزنابير بين الورد . لتكن يقظاً ، وإلافإنه يسمم عقولكم بأفكار زائفة ساخرة عن أعظم البلدان ، وأنبل الرجال فى هيلاس .

نقد لوسيان الساموساطى لمعاصريه

Luican of Samosata (١٢٥ — ٢٠٠ م)

(لوسيان: مجموعة الأعمال : نص تويبنر ، تحقيق. جاكوبيتز C. Jacobitz المجلد الثانى : كيف تكتب التاريخ ، الفصول ١٤ — ١٦ ، ٤١ ، ٤٣) .

سوف أعرض لكم بعض مؤرخى هذه الحرب (١) مما يمكن أن أتذكره من أقوالهم ، بعضها كان لى حظ سماعه فى أيونيا من زمن ليس ببعيد وأخرى فى أكايا Achaea فى مناسبة مبكرة . وسوف أجازف بشهرتى الأدبية على الحق الذى أمضى فى قوله . حقا ، سوف أكون مهيأ لأقدم دليلا دامغاً ، وإذا ما كان من اللائق أن تحول مقال إلى افتراض. وسار أحدهم قدماً مع «ربات الشعر» بنشرة لدعوة أولئك السيدات ليشاركنه فى عمله . وسوف تلحظ كم كانت هذه المقدمة جديرة بالإعجاب فى نغمتها وكم لاءمت بشكل طريف العمل التاريخى وكم هى مناسبة لهذا الفرع من الأدب . وأحط من ذلك بقليل قارن بين قائدنا وأخيل وبين الـ (شاه) Shah وترسيتيس Thersites ، دون أن يتأكد من أن أخيل كان

---

(١) الحرب البارثو . رومانية ١٦١ — ١٦٥ م (المحقق) .

الأفضل لهزيمة «هكتور» Hector لاهزيمة «ثرسيتيس»وفي هذهالحالة فإن رجل حرب قوى كان قد (هرب من قبل) وأنه (أفضل منه) قد جاء بعد ذلك) وبعدئذ قدم مديحاً لنفسه ليؤكد أن قلمه كان جديرا بموضوعه المجيد . وبعد ذلك كان هناك إطراء آخر ، وهذه المرة من مواطن له من بلدة (ميليتوس) ، مع ملحوظة يشرح فيها أى تحسين كان قد أدخله على « هومر » ، والذى تغاضى عن بلدته فى سكون . وأخيراً ، فى ختام مقدمته ، وعد على الفور ، فى كلمات كثيرة ، أن يفخم من أعمالنا ، وأن «يقوم بواجبه» فى الإنقاص من قدر العدو . وهذا يحق ما بدأ به روايته، والتى انغمس فيها فى مناقشة أصول الحرب : « لقد شن الحرب ، ذلك المجرم الشاه « ولوجيسيوس » Wologesus الأبكم والذى لا يغتفر له . لكم كانت مطامعه . . . وهكذا .

ويكفى هذا القدر عن هذا المؤلف ، وثم مؤلف آخر منهم كان معجباً جداً بثوكوديديس ، وسار بأمانة على دربه حتى افتتح موضوعه بالعبارات ذاتها ، واستبدل اسمه الخاص به. وعندما أنقلها ، أظن أنكم ستذوقون الطعم الطريف من الروح الآتيكية Attic وسوف توافقون على أنها أكثر الافتتاحيات التى سمعتموها توفيقا : كتب « كريبريوس كالبو رنيانوس من بومبى فيل » Crepereins Calpurnianus of Pomp.ville تاريخ الحرب بين «البرثيين» Parthians والرومان . لقد بدأ الكتابة فور نشوب الحرب . » وبعد مقدمة كهذه ، فمن نافلة القول أن تذكر كيف أنه نقل غرس الخطيب الكوركيرى إلى « أرمينيا » Armenia عندما أراد أن يلقى خطاباً هناك ، أو كيف أنه عندما شن طاعوناً على (نيسبيس) Nisibis لاتخاذه الجانب الخاطىء ، فقد أخرجها مجسمة من ثوكوديديس [1] . لقد تركته حتى يتم دفن الأثينيين البؤساء

(١) كانت الأشياء الوحيدة التى أغفلها هى (البلازجيه) والجدران الطويلة ، وفيها حلت ضحايا الطاعون إلى أثينا ، ولكنه يملك كل شىء آخر ، بما فيها السودان ، عندما انتشر الطاعون فى مصر ، وعلى الجزء الأكبر من الأراضى الفارسية على الرغم من أنه فى هذه المناسبة كان مضطراً ألا يرحل بعيداً . (المؤلف) .

فى نيسبيس ورحلت بمعرفة دقيقة عن كل كلمة سوف يعرضها بعد أن مضيت . وحقيقة إنها لمغالطة شائعة هذه الأيام لمؤلف أن يتصور أنه يكتب ثوكوديديس إذا ما كرر كلماته مع تغيرات طفيفة . نعم ، وهناك نقطة أخرى عند المؤلف نفسه نسيت أن أرويها لكم . لقد استخدم العبارات الرومانية لعدد من الأسلحة والأجهزة ، وحتى بالنسبة (للمتدق) و (الكوبرى) وغيرها . تصور كيف بدت على نمط ثوكوديدس بسمو ، ان ترى هذه الكلمات الإيطالية المطمورة فى عبارات أتيكية ، ينزع عنها الغطاء كالجواهر ويبرز مثل هذه الفائدة الكبرى وينسقها بهذه الروعة مع الصورة الخلفية .

ومؤرخ آخر ألف مجرد مذكرة بالأحداث بأكثر الأساليب تفاهة وركاكة ، كالتى يمكن أن نجدها فى يوميات الجندى أو الصانع أو التاجر الذى يلتحق بالجيش . إن هذا المؤرخ الهاوى كان إلى حد ما غير متعجرف . ويمكنك أن تمسك بتلابيبه إلى فترة كنحات الخشب أو كمقطر الماء ، بدلا من شخص ذى موهبة أدبية وتاريخية أفضل منه . إننى اختلفت فقط مع عنوانه الذى كان إطنابا أكثر من أى شىء فى عالم الرسائل كان لهحظ فى الوجود . «أسفار بارثيان ، الكتاب الأول والكتاب الثانى ، وغيره ، على أيدى دكتور كاليمورفس Callmiorphus ، الرماح السادس» وارتكب بالصدفة مقدمة مؤلمة فى موضوع أن التأليف التاريخى جاء بين ثنايا الطب ، لأن « إيسكلابيوس » كان ابن « أبولون » والأخير كان المرشد لربات الشعر والحامى العام للتراث . وقد شرع أيضاً ، ولا أستطيع أن أتصور لماذا ، فى الكتابة باللهجة الأيونية وتعداها على الفور إلى لهجة عامة أو لهجة يونانية متنوعة ، بعبارات أيونية قليلة تناثرت هنا وهناك مثل البرقوق فى الكعكة . وإلا لكان الحديث عادياً ، وذلك إذا ما كان أى شىء دارج جداً .

إن المؤرخ المثالى عندى هو الجسور وغير القابل للفساد وذو العقل السامى والمؤازر الصريح للحق . أن يوفى مطالب الحكمة القائلة بأن التين يجب أن يسمى تيناً والمعول معولا . إن عدم محاباة تقديره سوف لا يتأثر بالود أو النفور ، الإحساس الطيب العاطفة ، الخجل أو العار . إنه سوف يبذل قصارى جهده إزاء كافة

شخصياته بأقصى ما يمكن أن يفعل دون محاباة أحد على حساب الآخر . إنه سوف يضع نفسه موضع الغريب ونزيل أرض الكتب ، يطبق القانون على نفسه ولا يعترف بحق الانحياز إلى الرعية . إنه لن يتوقف ليضع فى اعتباره ما سوف يظنه هذا أو ذاك وإنما يقرر الوقائع .

إننى أعجب بقاعدة ثوكوديديس ومعياره عن الكتابة الجيدة والرديئة . (لقد كان يفكر بالشهرة التى صاحبت هيرودوت ، والتى كانت كبيرة لدرجة أن مجلداته سميت بأسماء عرائس الشعر) ويزعم ثوكوديديس أنه أسهم دائماً فى المعرفة أكثر من القيام (بعمل بطولى) سريع الزوال ، ونال الثقة لمقاومة إغراء التأنق أو أن يترك للخلف سجلا بالوقائع كالتى حدثت فعلا . وهو يقدم أيضاً فكرة المنفعة وما هو معروف بالهدف الفعلى للتاريخ ، والذى ، كما يوضح هو ، يمكن الجنس البشرى من أن يناضل بنجاح مع المشاكل الجارية فى ضوء سجلات الماضى ، وفى حالة الأحداث التى تكرر نفسها .

وهذه هى الروح التى أريد أن أجدها فى مؤرخى ، أما فيما يختص بالإلقاء والتعبير ، فإننى لا أريده أن يكتسب ، عندما يبدأ فى الكتابة ، النهاية المقتضبة فى أسلوب الخبير بلذعته المبالغ فيها ، والأناقة والسلاسة . وأريد شيئاً ما أقل عدوانية — الفكر المتتابع والمركز ، واللغة الصافية والعملية ، والعرض الممتاز .

الجزء الرابع

ختاميات

كسينوفون

(تاريخ الشئون الهلينية: الـكتاب السابع . الفصل الخامس ٢٦ — ٢٧)

كانت نتيجة المعركة[1] على النقيض تماماً مما توقعه أى إنسان . إذ إن سائر هيلاس تقريباً قد احتشدت إلى هذا الجانب أو ذاك ، وكان من المسلم به ، أنها إذا مادخلت موجة العمل ، فإن المنتصرين سوف يكونون سادة بينما سوف يكون المقهورون تحت رحمتهم ، إلا أن الله قد صرفها بحيث أن الجانبين قد شيداً أنصبة تذكارية فى ذكرى النصر بينما لم يحاول أى من الفريقين أن يمنع الفريق الآخر من فعل هذا ، وقد رد كل من الجانبين قتلى العدو فى ظل راية الهدنة فى ذكرى النصر بينما تلق كل فريق قتلاه فى ظل راية الهدنة في قبول الهزيمة ، وزعم كل فريق بأن النصر معقود له على الرغم من أن أياً منهما لم يستطع أن يبدى أقل كسب فى الأراضى،أو الحلفاء،أو الإمبراطورية خلاف مايمتلـكونه قبل المعركة.وعلى العكس، كان هناك عدم استقرار كثير واضطراب فى هيلاس بعد المعركة أكثر مما كان قبلها — ولـكننى لاأرى أن أواصل روايتى أكثر من هذا وسوف أترك بقية ذلك إلى أى مؤرخ آخر يهتم بتسجيلها .

بوليبيوس

(الـكتاب ٣٨ ، الفصول ١ — ٤ والـكتاب ٣٩ الفصل ٨)

لقد عانت هيلاس فى زمانها فترات انهيار متكررة ، فى الامتداد العام كما هو الحال فى الامتداد المحلى ، إلا أنه لم يكن هناك أحد من أعدائها السابقين يمكن أن يتميز بشكل عادل بالاسم،(كارثة)بكل مترادفات تلك الـكلمة،كأحداث جيلنا [2] .

---

(١) معركة مانتينيا وقعت ٣٢٦ ق . م بين طيبة واسبرطة مع حلفائها ، وفقد فيها المؤلف ابنه (المحقق)

(٢) نهوض مقدونيا الأخير فى ١٤٩ — ١٤٨ ق . م والحرب بين الاتحاد الآخى وروما فى ١٤٦ ق . م (المحقق) .

وليس من البساطة أن نرثى للهلينيين بسبب آلامهم فى هذه المناسبة . وفى ضوء الوقائع كما تدرك تفصيلياً ، يجب أن ينظر إليهم على أنهم مسئولون عن الكارثة بسبب أعمالهم المتعمدة ، حتى مأساة قرطاجة الفائقة لم تكن كبيرة لدرجة أن تقارن بمأساة هيلاس هذه ، والتى تفوقها فعلاً فى الأبعاد فى بعض النواحى . لقد خلف القرطاجيون على الأقل للأجيال المقبلة مواد لتطويع ذاكرتهم إلى أقصى درجة ، بينما لم يقدم الهلينيون أى قواعد معقولة كيفما كان لتعتبر أعذاراً لأخطائهم . وفضلا عن ذلك ، فإن القرطاجيين كانوا سعداء لكونهم قد فنوا وقت الكارثة وتحللوا من كل وعى مقبل عن مصائبهم ، بينما أصبح الهلينيون مشاهدين لكوارثهم حتى يخلفوا مصائبهم إلى أبناء أبنائهم . ومن المعتاد أن يرثى للذين قاسوا الشدة فى بطء أكثر من أولئك الذين فارقوا الحياة ساعة المحنة ، وعلى هذا القياس ، فإن مصائب هيلاس يرثى لها أكثر من مصير قرطاجنة — مالم نتجاهل ، فى تقبل الحكم ، اللياقة والشرف وننظر بشكل استثنائى إلى اعتبارات مادية . وسوف يتحقق أى قارئ من صدق قضيتى الراهنة ، بتذكر المصائب التاريخية لهيلاس من أجل أن يقارنها بهذه الكارثة الأخيرة .

وكان غزو « كسركسيس » لأوروبا هو إحدى المناسبات التاريخية التى ألقى الحظ بفظائعها على رأس هيلاس . وكانت هيلاس بأسرها وقتئذ فى ورطة إلا أنه من الملحوظ أن قليلا من أبنائها قد تدهور — وهى ملحوظة صحيحة على الأخص عن الأثينيين ، الذين يحتاطون بما فيه الكفاية للجلاء عن بلادهم فى الظروف الحسنة ومعهم نساؤهم وأطفالهم . وبالطبع ، فإن الأثينيين ، لم يهربوا سالمين من الأزمة ، لأن الشرقيين قد احتلوا عاصمتهم ودمروها بروح انتقامية ، إلا أن الضحايا فى الوقت نفسه ، هم أبعد ما يكون حتى يجلبوا لأنفسهم العار أو الفضيحة ، أحرزوا مجداً عريضاً واشتهروا لأنهم ضحوا عامدين بكل مالديهم فى سبيل أن يقاسموا زملاءهم الهلينيين حظهم . ونتيجة لذلك ، فإنهم كوفئوا على قرارهم النبيل ، ليس من قبيل الاسترداد السريع لبلادهم وأقاليمهم الوطنية ، بل بتطور مكنهم بعد فترة ليست طويلة أن ينازعوا الإسبرطيين السيادة على سائر هيلاس . وفى تاريخ متأخر ، عندما حطم الإسبرطيون

قوتهم الحربية مرة أخرى ، فقدا ضطروا إلى الهبوط إلى ممر كهذا بحيث إنهم أجبروا على تخريب تحصينات مدينتهم ، إلا أن اللعنة هنا لم تسقط على أثينا فحسب ، بل على إسبرطة أيضاً ، إلى الحد الذى استغلت فيه بعنف القوة التى وهبها الحظ إياها. وقد هزم أهل طيبة بدورهم الإسبرطيين، وفقدالأخيرون سيطرتهم على هيلاس ، وبعد أن تنازلوا عن إمبراطوريتهم فى الخارج ، ترتب على ذلك أن انحصروا داخل حدود لاكونيا . ومع هذا ، فبالإضافة إلى ذلك كله ، فأى عار فى ذلك ، وفى مجال المنافسة على أعلى الجوائز الشرفية ، كان عليهم ببساطة أن يرغموا على أن يشقوا طريقاً للتراجع داخل حدود مجالهم القديم . وهكذا فإن الأحداث التى ذكرتها يمكن أن يطلق عليها شرعاً (بلايا) ولكن ليس من الممكن أن توصف بأنها (كوارث) . وقد اضطر « الماتينيون » (كى يستمروا) إلى أن يغادروا موطنهم ، عندما اقتحمها الإسبرطيون ، وأن يستقروا فى قرى مبعثرة ، إلا أن كل خزى هذه الحماقة وقع على إسبرطة لا على (ماتينيا) . وفى تاريخ متأخر نوعاً ، رأى أهل طيبة موطنهم قد تهدم ، عندما كان الإسكندر الذى كان يفكر فى غزو آسيا ، يحسب أن الرعب الذى انتشر بفعل عقاب طيبة من شأنه أن يجعل هيلاس فى امتحان ، بينما كان قد انشغل من قبل بأطماعه الخاصة . إلا أنه عندما يرثى أى أحد طيبة باعتبارها ضحية ظلم قاس ، لا يسعى أحد إلى تبرير هذا العمل من جانب الإسكندر . وبالتالى ، لم يمض وقت طويل حتى حصل أهل طيبة على تأييد مكنهم من إعادة احتلال وطنهم بأمان . والحقيقة التى تقضى بأن تعاطف الجانب الثالث مادة لا أهمية لها لضحية سوء الحظ ، من زاوية الظاهرة العامة حتى إن الحظ نفسه دار فى تعاطف مع اتجاهات الرأى العام ، حتى ندم المنتصرون تماماً وأصلحوا بأيديهم الكوارث التى أنزلوها بشكل لا يمكن الدفاع عنه . وكذلك فقد قدر على خالكيس و كورينثا وبلاد أخرى عديدة ، بسبب قيمتها الاستراتيجية لفترة من الخضوع تحت تاج مقدونيا ، والتى كانت الحاميات المقدونية قد احتلتها فى هذه الفترة، إلا أن المجتمعات التى وقعت فى الرق كان عزاؤها أن كل شخص كان يتطلع إلى أن يفعل ما فى وسعه لتحريرها ، بينما الذين دمروا

حريتها كان ينظر إليهم بكراهية عامة وعداء كامل . . . وباختصار عندماقاسى الهلينيون من الانهيار أو وقعوا فى الحزن فى الفترات السابقة، كانت مجتمعات بعينها هى الوحيدة التى تأثرت عموماً ، وكانت مناسبات العثرة إما مزاحمة للسلطة السياسيه وإما أعمالا أخرى من أعمال الخيانة من جانب الملوك والحكام . ولهذه الأسباب،فإن الأمثلة قليلة بالتأكيد ، التى يلحق فيها الخزى بالضحايا أو التى تصبح فيها كلمة (كارثة) مرتبطة بشكل دائم بمصائبهم . و (المصائب) اسم صحيح للكوارث التى لامبرر لها فى الحياة العامة كما هو الحال فى الحياة الخاصة ؛ بينما اسم (كارثة) يجب أن يحفظ بشكل استثنائى لأعمال الحماقة التى تجلب العار على مؤلفيها .

وأياً ما كان الأمر ، فى الفترة موضع البحث ، فإن (الكوارث) التى وقعت فى الوقت ذاته على البليبونيزيين والبيوتيين والفوكيين . . .[(١)] واللوكريين وعديد من الجماعات الهلينيية على الساحل الأدرياتيكى ، كما هو الحال عند المقدونيين[(٢)]، لدرجة أن النكبة فى هذه المناسبة كانت كبيرة من ناحية الكم والكيف عن أى كارثة سبقتها . وفى الحقيقة ، فى هذه المناسبة قاست هيلاس مالاتطلق عليه (مصيبة)على الإطلاق،إلا أن (المصيبة) المخزية جداً من المعقول أن تكون من نوع غير مشرف[(٢)]. لقد أظهرت مزيجاً من عدم الإخلاص والجبن وارتكبت أعمالا[(٣)] مروعة تلوث اسمها [(٣)]. وعلى هذا ، فقد أضاعت كل شيء كان قد شرف قدرها، وأبناءها ساعة المصير هذه ـــ وظهورهم إلى الحائط إن لم تكن مجرد سلبية جبانة ـــ قد سلموا باختيارهم الصولجان والفئوس فى بلدانهم . لقد سيطر عليهم الرعب بسبب شناعة خطاياهم الفردية — إذا ما كان من العدل أن

---

(١) اسم ضائع فى المخطوط (المحقق)

(٢) فى هذه الفقرة ، حيث النص اليونانى مشوه بشكل سيء ، تتبعث التجديد الذى الذى قام به فردريش مولتش(المحقق)

(٣) التجديد الذى افترضه تيودورهيس (المحقق) .

نطلق عليهم (فردية). وأنا شخصياً، ينبغى أن أقول إن الأغلبية قد زاغت عن الحق إلى الضلال ، وإن الخطيئة توجد عند السياسيين الذين يغذيهم جهل بهذا العمق .

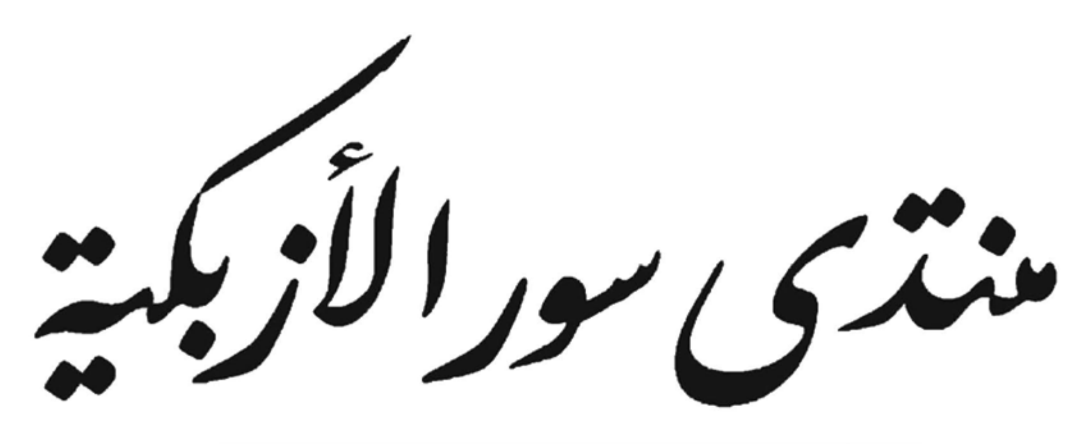
وبهذا الصدد ، سوف لا أقدم أى عذر إزاء الخروج على عرف الرواية التاريخية وتقديم ماقد يبدو أنه أكثر جدلا وجسداً شخصياً على عملى . ومن المحتمل أن أتعرض للنقد فى بعض أجزاء الكتابة بشكل حاد، عندما يكون واجبى أولا وقبل كل شىء هو أن أسدل ستاراً على خطايا الهلينيين. وأنا شخصياً أختلف فى هذا . وأعتقد أن الناس ذوى التفكير السليم ، لا ينظرون إلى الجبان الذى يتنصل كصديق أصيل ، من واجب الحديث الصريح ؛ وعلى السياق ذاته ، لا ينظرون إلى الجبان الآخر ، الذى حاد عن الصواب خوفاً من إيذاء مؤقت كان مرتبطاً ببعض أناس معينين ، كمواطن حق ، وعندما نصل إلى مؤرخ المسائل العامة ، فإن المهنة ينبغى أن تسد أبوابها فى وجه الكاتب الذى يقيم وزناً لأى شىء أكثر من الحق. ويصل السجل التاريخى إلى جمهور أكثر اتساعاً ولفترة أطول من الوقت أكثر من أى ملاحظات عابرة؛ وهذا من شأنه أن يحدد القيمة التى يعطيها المؤلف للحق والتى ينبغى على قرائه أن يضعوها فى مستوى عظيم . وفى فترة الأزمة . فإن واجب كل هلينى أن يساعد هيلاس بكافة مالديه من وسائل — ليدافع عنها، ويسدل ستاراً على الخطايا، ويدافع مع المبتهلين الذين يرثون لها ـــ وهذا ماقمت به بكل إخلاص وقت الشدة . وأياً كان الأمر ، فإن واجب الهلينى أيضا ، عندما يكون فى موقف يحتم عليه أن يخلف للأجيال المقبلة سجلا تاريخياً عن الماضى ، أن يتركه كاملا دون مازيف . إن غرض التاريخ ليس إمتاع القارئ على المطالعة ، وإنما إفادة روح القارئ ، وإنقاذه من التعثر مرة واحدة من المرات العديدة . . . .

وما إن أتممت مهمتى[1] ، حتى غادرت روما إلى بلدى . وأكاد اشعر

---

(١) ألحق بوليبيوس مستشاراً خبيراً لهيئة المبعوثين التى كانت قد أرسلت لتصفية الاتحاد الآخى بعد الحرب الرومانية — الآخية عام ١٤٦ ق.م بعد الحصول على كل تهدئه ممكنة من جانب البعثة حتى يتم أعمالهم بعد رحيلهم ، ثم يتبعهم إلى روما بنفسه ليقدم تقريره عنها .

إننى حققت على الأقل بعض هذه الأهداف السياسية التى جاهدت فى سبيلها طوال حياتى ، وقد عادت على صداقتى لروما بالجزاء السخى . والآن سوف أصلى إلى سائر الأرباب وأتوسل أن أقضى بقية أيامى بنفس النشاط وفى ظل الظروف نفسها. لقد لاحظت أعمال الحظ وأعرف طبيعة عبقريتها نحو الحاقد على الجنس البشرى ، وأعرف أيضاً أن سيطرتها مطلقة تماماً على هذه الواحات فى الحياة البشرية والتى تبدو فيها أوهام الضحية أكثر دقة وأكثر أمناً .



المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع للأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١